زمن الاحتلال

الياس خوري

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

الياس خوري

زمن الاحتلال



مؤسسة الابحاث العربية ش.م.م
ص. ب : ٥٧-٥٠٥-١٣ (شوران) بيروت . لبنان



* الياس خوري : زمن الاحتلال

* الطبعة الأولى ١٩٨٥

* الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.

* ص. ب. : ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان

هاتف ٨١٠٠٥٥ تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان

* تصميم الغلاف : نجاح طاهر



مدخل

هذه المقالات، والتي سبق لها وأن نشرت في جريدة «السفير» لا تطمح أن تكون أكثر من شهادة على مرحلة بالغة الصعوبة، عشناها في لبنان بعد الغزو الاسرائيلي، وبعد أن خيم شبح الاحتلال على كل شيء.

وحين تجتمع المقالات في كتاب «زمن الاحتلال»، فإنها تطمح أن تكون جزءاً من سيرة المقاومة الوطنية، ومحاولات كسر الظلام الذي فرضه الاحتلال على الوعي.

مقالات ـ شهادات. إنها شكل من أشكال السيرة الشخصية وغير الشخصية في آن. فالذي كانت تطمح إليه هذه المقالات، هو أن تكتب اللحظة الساخنة، وأن تساهم في بلورة الأسئلة التي تطرحها مسألة مقاومة الاحتلال، من أجل ان تكسر الحصار الذي ولدت في داخله.

زمن الاحتلال، هو زمن المقاومة أيضاً، والمقاومة التي ولدت في بيروت، أيلول ٨٢، كانت تعبيراً عن استمرار إرادة الحياة. فرغم الاحتلال والمذابح؛ والمدن المهدمة، والمقابر الجماعية، والهيمنة، وحفلة التهريج التي أرادت تحويل لبنان الى مستعمرة اسرائيلية، استطعنا أن نواجه التيار الجارف، وأن نسبح ضده، ونغير الكثير من المجاري.

لعل دروس الاحتلال والمقاومة، تقدم اليوم تراثاً فكرياً وسياسياً كبيراً. فلقد ثبت ان الطريق الوحيد لمواجهة الاحتلال هو في مقاومته، وان المقاومة ممكنة دائماً، على الرغم من كل الظروف، وعلى الرغم من

محاولة الاحتلال التلاعب بنار الحرب الأهلية، وإشعال الجنون الطائفي، وحين تنسحب اسرائيل اليوم من الجنوب والبقاع المحتلين، فإنها تعلن عجزها عن قهر إرادة شعب قرر مقاومتها، كما تعلن عجزها عن التوسع خارج فلسطين التاريخية.

هذا العجز الاسرائيلي المزدوج، اتى نتيجة المقاومة، التي لولاها لبقينا خاضعين للهيمنة الاسرائيلية، ولتحول لبنان الى بوابة لغزو العالم العربي. وحين يتم صد الغزو عن لبنان، فإن هذا يعني أن أفق مقاومة اسرائيل في الأرض الفلسطينية المحتلة، هو أفق مفتوح على احتمالات الحرية.

لا يقدم هذا الكتاب تحليلا متكاملاً لآلية المقاومة، لكنه يقدم مجموعة من المواقف والتحليلات الجزئية، التي تتشكل داخل لوحة موحدة، كأحد تعبيرات رفض الاحتلال ونتائجه، وكمحاولة لفهمه وفهم المتغيرات التي حصلت بعد الغزو.

وأنا لا أدعي ان الكتابة تغيّر الأشياء. الكتابة تعبّر عن الأشياء في حركتها وفي تغيراتها. وإذا كانت هذه المقالات تعبر عن شيء، فآنها تطمح أن تكون جزءا من صوت آلاف الذين صنعوا بنضالهم وعذابهم وموتهم، أفق المقاومة.

وفي النهاية، فإن هذا الكتاب مدين لهم بكل شيء. فلولاهم لما كانت الكتابة ممكنة.

الياس خوري
بيروت -شباط ١٩٨٥

لحظة الوضوح

النقاش المستتر ، الذي يدور حول المسألة الثقافية في لبنان بعد الاحتلال الاسرائيلي ، ما يزال نقاشا خجولا ومرتبكا ومترددا . فالذهول الذي صاحب التطورات المتسارعة : الاجتياح ، حصار بيروت ، خروج المقاومة ، انتخاب بشير الجميل واغتياله ، المذابح ، المفاوضات ، الحرب الطائفية في الجبل ، الخوف في بيروت ، وضع النقاش في إطار الضياع شبه الكامل ، وقام بتغييب نقاطه الاساسية .

النقاش السياسي ـ الفكري العلني ، دار في اغلبه حول مرحلة ما بعد الانسحابات ، حول التوازنات التي ستحل في لبنان بعد الانسحاب السريع للقوات الاسرائيلية . مع تأخر الانسحابات ، عيد الاستقلال ، رأس السنة ، وتأجيل المواعيد ، بدأ النقاش الغالب ، يبدو وكأنه تأجيل للبحث في المسألة الراهنة على اعتبار انها ستحلّ تلقائيا وبداية البحث عن صيغ المستقبل : إعادة النظر في الاطارات التقسيمية ، توحيد المؤسسات ، التبرؤ من الحرب الأهلية وإعلان ولاء غامض للبنان .

قد يكون هذا النقاش العلني اخف من النقاش السري الذي لم يكتب : اليأس المطلق ، الاقتناع بلا جدوى اي فعل ، السقوط تحت ركام الهزيمة ، النقد الذاتي بشكل يجرف الى تبني مقولات طائفية شبه مطلقة ، الدعوة الى الاستقالة الكاملة من كل شيء ، والالتهاء بالترجمة كأن الاحتلال لم يحصل .

كأن الثقافة والمثقفين أصيبوا بما يشبه فقدان الذاكرة الموضعي ، وفقدان القدرة على رؤ ية الأشياء . وكأن بيروت من شدة ما تحملت ، ومن احساسها بالوحدة والعزلة ، قررت ان تستقيل من نفسها ولو مؤقتا . قررت ان تدخل في ذهول الصمت ، وان تسترجع بهدوء تاريخها القريب ، كي تستطيع ان تكتشف بداية ما ، في زمن الاحتلال . ومن داخل هذا الصمت ، نكتشف اننا اليوم امام اشد اللحظات وضوحاً منذ بداية الحرب الاهلية عام ١٩٧٥ كأن ايصال الغموض الى ذروته ، وإغراق لبنان بالاحتلال الأسود ، بدأ يسمح برؤ ية واضحة للأشياء وهي تأخذ اشكالها الحقيقية دون تردد او التباس .

لحظة الوضوح الأولى هي لحظة الهزيمة . غير ان الهزيمة لم تحصل في صيف ١٩٨٢ ، صيف ١٩٨٢ كان زمن اعلانها الصارخ ، وفي هذا الصيف الدموي اكتشفنا كم كان الواقع غامضا قبل الاجتياح ، وكم كانت الهزيمة كامنة ، وكم كان العجز عن مواجهة احتمالاتها والتفكير بها قاتلا .

الهزيمة المعلنة والمأساة المستمرة منذ صيف ١٩٨٢ ، وتحول آلاف الناس الى اشباح هائمة تحت القنابل والموت والجوع والخوف ، هي لحظة الحساب الكبرى مع النفس . . وحسابنا يجب ان يبدأ من لحظة تجاهلنا شبه المتعمد لواقعنا كشعب ممزق ويتمزق في منطقة انهارت انظمتها قبل ان تحارب ، وهذا يعني او كان يجب ان يعني اننا لا نستطيع ان نتصرف كسلطة وهمية ، وإن وهم السلطة كان هو الوهم القاتل .

غير أن مراجعة التجربة ونقدها تختلف عن التصرف الانتهازي الذي لا ينقد إلا الماضي . لا يتمرجل إلا على المهزوم ويمجد من يعتقده منتصرا . مراجعة التجربة تبدأ من رؤ ية اللحظة الراهنة واكتشاف احتمالاتها ونقد اخطائها ، ومن دون ذلك نكون كمن لم يتعلم شيئا .

لحظة الوضوح الثانية هي الأسئلة التي لم نجرؤ على طرحها ، او التي حين طمست لم نجرؤ على إعادة طرحها. إنها الاسئلة الأولية : الديمقراطية ، معنى الوطن ، معنى الثقافة ، العلاقة بين الحرب الأهلية والحرب الوطنية ، نقد الأنظمة نقد التفتت في عصبيات طائفية . هذه الأسئلة تعود اليوم لتطرح نفسها من جديد ، وهي لا تطرح نفسها في فراغ ثقافي ، بل تطرح كمهمات فعلية داخل المهمة الكبرى مهمة طرد المحتل الاسرائيلي وإجباره على الانسحاب دون قيد أو شرط .

لحظة الوضوح الثالثة هي لحظة الكشف عن علاقة الناس بمصائرهم . « فالشعب » ، هذه الكلمة ، التي افرغت من محتواها من شدة ابتذالها ، نعود اليوم لنكتشفها ونحن نكتشف المآسي . فالذين هزموا هم الفقراء ، والذين يعتقدون انهم انتصروا هم الذين يهربون من كل حرب قبل ان تبدأ . حين يهزم الفقراء يكون الوطن هو الذي ينهزم .

لحظة الوضوح الرابعة والأساسية هي اننا نعيش تحت الاحتلال الاسرائيلي . انها اللحظة التي توضح جميع اللحظات وتعطيها معناها . لبنان يقع في القبضة الاسرائيلية ، ونحن حين نكتب في بيروت نكتب في مدينة يسكنها شبح الاحتلال ، في مدينة شبه محتلة .

والعصر الاسرائيلي القادم هو عصر تصفيتنا كشعوب وتحويلنا الى قبائل وطوائف ، انه عصر يسعى الى إدخال الحرب الأهلية في دورة الاحتلال كي يصبح الاحتلال ابديا ودائما وطبيعيا .

وهذا العصر واضح لا لبس فيه ، انه يريد احتلالنا بشكل مطلق ، احتلال ارادتنا واحتلال فكرنا واحتلال ارضنا وتحويلنا الى شعب بلا وطن .

ما يحاول هذا الاحتلال تبليغه لنا هو وجوده الطبيعي ، تمهيدا لتحويل الطبيعي الى دائم ، وتحويلنا الى « بانتوستان » جديد ، نشتغل كعمال

يدويين عند العبقرية ـ الاسرائيلية ، نموت كخدم عند الاسياد الجدد ، نقطع رؤوسنا ونتخلى عن كل شيء كي ننعم بفضلات الحياة .

الحقيقة الأساسية هي ان هذا الاحتلال يريد ان يبقى باشكال مختلفة ، واننا بالتالي لا نجد امامنا سوى مهمة وحيدة ، هي طرده وإجباره على الجلاء ، وفي هذه المهمة تعيد الأشياء تنظيم دلالاتها ، نعيد النظر في تجربتنا وكتاباتنا ، نعيد النظر في الطروحات ونتعلم من التجربة طرق طرد الاحتلال .

إن تغييب واقع الاحتلال ، تغييب حقيقة ان كل الشعب هزم من قبل المحتلين ، حقيقة ان الدور الأساسي للحياة الفكرية والثقافية هي في استعادة القدرة على التفكير والكلام ، استعادة القدرة على تحديد المشكلة الرئيسية ، هو تغييب كامل لارادة الحياة ودفعنا الى الجنون والانتحار .

والذين لا يرون المأساة القادمة مع الاحتلال الاسرائيلي ،

الذين ما زالوا ينظرون الى الواقع اللبناني بعقلية الصراع الأهلي الداخلي ،

الذين يعتقدون ان الأوطان يمكن ان تقدمها لهم الدول الكبرى ، ويعفون انفسهم من مهمة البحث والتفكير ،

الذين يبشرون بنهاية الحرب ، والاحتلال ما يزال مسيطرا ، ويدعون الى التصرف بعقلية لبنان القديم قبل الحرب الأهلية وقبل الاحتلال ،

الذين يركضون خلف سراب السلطة ويخافون من ان يجدوا انفسهم على قارعة الهزيمة والشوك يحيط بهم ،

الذين لا يراجعون الماضي إلا من اجل تبرير خطايا الحاضر ،

هؤلاء هم الشكل الملموس الذي يتخذه الاحتلال . هؤلاء هم

الاحتلال من الداخل الذي يحاول اجتياحنا وتصفيتنا . هؤلاء هم الـوهم الذي يريدنا ان لا نرى ، الذي منعنا في الماضي من رؤ ية المصير الـدموي الذي حل بنا ، والذي لا يريدنا اليوم ان نرى الكارثة القادمة مع المحتلين الممتلئين حقدا وعنصرية .

وعلى الرغم من ان الأجوبة ليست جاهزة . وعلى الرغم من ان جميع الأجوبة الجاهزة هي اجوبة خاطئة ، فان طريق الوحدة وطريق اعادة تقييم التجربة وطريق النقد الذاتي تبدأ من نقطة واحدة : مقاومة الاحتلال .

انه زمن الوضوح المخيف .
انه زمن الاحتلال .

وفي زمن الاحتلال نعيد طرح اسئلتنا كـي نكتشف الاشكال الحقيقية لمقاومة الاحتلال .

٨٣/١/١٨

الزيارات « الثقافية » لم تأخذ الطابع الاحتفالي الذي اخذته المسألة الثقافية عندما بدأ تطبيع العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية ، وقبل ان يثبت ان هذا التطبيع شبه مستحيل .

غير ان المسألة المركزية التي تواجه الثقافة اللبنانية في مرحلة محاولة المحتل إملاء شروطه ، تتمثل في مسألتين مركزيتين :

المسألة الأولى هي تغييب النقاش حول الواقع الجديد . فالنقاش الخفي الذي دار حول انتخابات اتحاد الكتاب اللبنانيين في الشهر الماضي ، تركز على ذيول الحرب الأهلية ، وسط تصديق بعض المثقفين لاشاعة الانسحابات القريبة ، والنقاش الثقافي المنشور وغير المنشور يدور اليوم على اشكال استعادة العافية الثقافية لمرحلة ما بعد الاحتلال ، ولا يطرح مهمات ملموسة مرتبطة بالاحتلال .

إن مسألة تغييب النقاش او صرفه في اتجاهات أخرى ، تحول الثقافة ، ليس الى ثقافة هامشية يكتبها هامشيون ، بل الى ثقافة حجب يكتبها حجاب مهمتهم الاساسية هي إبعاد الناس عن مناقشة واقعهم . والفرق بين الهامشية والحجب شاسع وكبير . الثقافة الهامشية قد تكون في لحظة تاريخية معينة هي الثقافة الحقيقية ، لأنها نتاج الهامشي الذي تهمشه سلطة القمع . اما الحجب فهو مسألة أخرى ، انه محاولة شبه واعية لتغليب الذاتي على الموضوعي (في ما يتعلق بالمثقف الحاجب نفسه) وتغليب الوهم على الحقيقة (في ما يتعلق بالسلطة ـ المرحلة التي تستخدمه) .

حجب الاحتلال ، والاستمرار في لعبة الحرب الاهلية ، على المستوى الواقعي ، وحجب الاحتلال والاستمرار في لعبة تغليب الهم « التوحيدي » ، أي الالتحاقي شبه الطائفي ، على المستوى الثقافي ، هو محاولة لوضعنا في « دويخة » الاحتلال ، حيث لا نرى واقعنا إلا من خلاله ،

ولا نرى المسألة المركزية التي يجب معالجتها .

هل بسبب من النجاح النسبي للحجب فان قدرتنا على فهم ما يجري قد استلبت او سلبت ، وطاقات مؤسساتنا الاجتماعية والثقافية غابت او جرى تغييبها ؟ ام اننا وقعنا ضحية صدمة الهزيمة والعجز الذي برز فيها ؟ مسألة تغييب النقاش الفكري والثقافي والسياسي عن الواقع الجديد ، تغييب اخطار الضم والألحاق عبر « المناطق الامنية » تغييب اخطار التفتت الطائفي والمذهبي امام الدولة ـ الطائفية (اسرائيل) ، هو الخطوة الأولى في سبيل فرض التطبيع الثقافي ، اي فرض الهيمنة الكاملة والاستيلاء على ثقافتنا من ضمن الاستيلاء العام على بلادنا .

إن ما نقوله لا يحمل اية دعوة الى التقوقع العنصري ، فبيروت كانت المكان العربي شبه الوحيد ، الذي قرأ وترجم الأدب العبري والاسرائيلي ، لكن المسألة اليوم ليست في القراءة والتحليل بل في منع القراءة الحقيقية عبر فرض طريقة وحيدة للقراءة ، وعبر الاستيلاء على عقل القارىء .

المسألة الثانية ، هي المحاولة الاسرائيلية المستميتة لاحتلال بيروت والغاء دورها . واالدور الاساسي ، الذي يجب ان ندافع عنه ، هو الدور الثقافي لبيروت . فهذه المدينة التي لم يستطع النفط والارهاب ترويض البعد النقدي في ثقافتها ، هذه المدينة التي تعرضت لقصف تدميري بهدف اركاعها ، تتعرض اليوم لمحاولة محو شخصيتها الثقافية ، بوصفها المختبر الأول للثقافة العربية ، المكان الذي ولدت فيه الطلائع الثقافية ، والمكان الذي حلل ونقد ولم يركع .

التطبيع الثقافي هو محاولة لإلغاء دور بيروت نهائيا ، وتحويلها من عاصمة المقاومة والفكر الى مدينة صغيرة تافهة ، الى ضاحية اسرائيلية .

والفشل الاسرائيلي في إخضاع بيروت ، سوف يكون بداية الفشل

الكبير في إخضاع المنطقة وفي احتلال لبنان وضم المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ .

مـواجهة التـطبيع الثقـافي ، مواجهـة الاخضاع الفكـري هي الخطوة الاولى ، لحظة التصدي الاساسية التي ستجعل من بيروت مـدينة المقـاومة الديمقراطية لهذا الوحش الأسود الذي يحاول ابتلاعها .

٨٣/١/١٩

وحدة الثقافة

كانت اللعبة الثقافية ـ الايديولوجية في لبنان الحرب الأهلية تافهة الى درجة تبعث على السخرية والرثاء . فمع المذابح الطائفية الهمجية كانت اللازمة الايديولوجية تقول ان الطائفية ليست من تراثنا ، وبالتالي فقد جرى إهمال متعمد أو غبي للظاهرة الطائفية حتى ابتلعتنا وانقلبت اللازمة الى البحث عن وحدة ثقافية من داخل التعدد الثقافي ، على اعتبار ان كل طائفة ، او مذهب يملك بنيته الثقافية المتميزة .

والواقع ، ان وسط طبول التعددية التي تصم الآذان ، لا يوجد اي تحديد دقيق لمعنى هذه الكلمة السحرية . التحديد الوحيد هو الذي قدمه الأب سليم عبو والذي يدّعي وجود تعددية لغوية : العربية والفرنسية . هذا التحديد هو تعبير عن الحنين الى زمن الاستشراق حين كان المستشرقون يحددون ثقافة المغلوب ، وحين حاول الفرنسيون عبر استيلائهم على ثقافة جزء من النخبة واستلابها اقناع انفسهم بانهم تحولوا الى طرف ثقافي اصيل في بلاد الشرق .

وفي زمن الاحتلال الاسرائيلي ، يجري التركيز على الوحدة الثقافية او على استعادة هذه الوحدة الثقافية من ضمن العقلية القديمة التي يبدو ان سنوات الحرب الطويلة لم تكن كافية لزعزعة اسسها الوهمية .

هذه الوحدة المزعومة تفترض وجود ثقافات متعددة في لبنان ، وانطلاقا

من هذا الافتراض هناك ثقافة اكثر رقيا يجب الالتحاق بها . انها الثقافة الغربية . .

ولكن السؤال البديهي هو ما هي نتاجات هذه الثقافة :

سعيد عقل عندما كان شاعرا ، كانت مشكلته مع المتنبي وليس مع فاليري . كانت فصاحته « المدهشة » والقاتلة هي استكمال لخط الاستعادة الثقافية « للماضي الذهبي العربي » مع تطعيمه بعناصر ثقافية جديدة .

يوسف الخال الذي ينافس سعيد عقل على تزعم الدعوة الى العامية التي يسميها اللغة العربية الحديثة لم يكتب اي نتاج له معنى حقيقي بلغته العامية هذه .

رينه حبشي ، الذي حاول ان يخلف ميشال شيحا كمنظر للنظام اللبناني ، لم يجد سوى اللجوء الى مقولة الحضارة المتوسطية التي هي اكثر اتساعا من مقولة الحضارة العربية .

شارل مالك ، ونزعته التومائية ام فؤاد افرام البستاني الذي اهلكنا من كثرة كتاباته عن الشعراء الجاهليين والامويين والعباسيين ؟

الواقع ان ما يسمى ثقافة هو حجب للاسم الحقيقي : السياسة .

لا وجود لدعوة ثقافية حقيقية ، ان ما يجري التبشير به على المستوى الثقافي هو دعوة مكشوفة لالحاق لبنان سياسيا بالغرب ، ولالحاق جميع الطوائف بالطائفة الغالبة . وهذا المشروع لا يحتاج الى كل هذا العناء الثقافي ، فالسعودية قامت بحل المشكلة ، دون اطنان الكتابات المهدورة على لا شيء .

الدعوة الى وحدة الثقافة تخفي في الواقع بعدا سياسيا ميزاته الرئيسية هي عجزه عن مواجهة الواقع وهروبه الدائم الى اشكال ماضوية تشكل

امامه فلا يرى الاحتلال الاسرائيلي بل يرى نفسه في مرآة مقلوبة هي مرآة الآخر . . إذا ما على المحايد سوى ان يكون محايدا في المؤسسات الغالبة . . هكذا تنتهي المشكلة ويعاد تشكيل الثقافة وتوحيدها بعناصرها المختلفة . . .

يتناسى هذا الطرح ان العودة الى « الماضي » الثقافي شبه مستحيلة ، وان ما يبدأ اليوم هو آلية جديدة لم نألفها لا قبل الحرب ولا خلال سنواتها الطويلة ، وان الحلول المؤسساتية وصورة المثقف الجديدة ليست الا تهربا من محاسبة النفس والتصدي للواقع الجديد .

الثقافة المتعددة التي تلصق ببعضها وتخفي مشاعر الكراهية كانت موجودة دائما ولكنها كانت على الرغم من سيطرتها السلطوية الشكلية خارج جميع مجاري الابداع الحقيقي .

وإن قراءة سريعة للكيفية التي كانت توزع فيها اعانات وزارة التربية على النوادي الثقافية ، تكشف عن مدى الاستهتار بالثقافة وعن كونها مجرد ستار سياسي ، كانت « الندوة اللبنانية » تنال خمسين الف ليرة سنويا ، وينال النادي الثقافي الماروني في قبرص عشرة آلاف ليرة ، بينما لا ينال اتحاد الكتاب اللبنانيين سوى خمسة آلاف ليرة (!) .

غير أن ما يهمنا من إثارة هذه المسائل ليس العودة الى الماضي ، فهذا الماضي لم نكن نملكه او لم تكن الثقافة الطليعية على علاقة بمؤسساته . ما يهمنا هو الانطلاق من اللحظة الراهنة للاشارة الى حقيقتين بديهيتين :

الحقيقة الأولى هي ان الثقافة هي أداة للمعرفة وهي حين تستقيل من دورها الواقعي ولا تجرؤ على النظر في الواقع ـ واقعها وواقع انتاجها الاجتماعي ـ تصبح أداة حجب وقمع ، وتندرج في زمن الانهيار والتفكك .

ثقافة الوحدة

حين حاول الجنرال شارون تبرير حرب الابادة التي شنها على اللبنانيين والفلسطينيين ، فانه ركز على ما اسماه « مثلث » السلام القدس ـ القاهرة ـ بيروت. ومثلث «السلام» كما يطرحه المحتل الاسرائيلي ليس مجرد مثلث سياسي ـ هندسي . فشارون يحاول تحطيم المنطقة بأسرها عبر فرض سلامه على القاهرة وبيروت. القاهرة وبيروت كانتا منذ القرن الماضي المكانين الاساسيين للمقاومة الثقافية والفكرية ضد الهيمنة العثمانية وضد الاحتلال الاوروبي . فرض الاستسلام على بيروت بعد القاهرة هو محاولة لسحق عقل المنطقة وتجريد المشرق العربي من المكانين اللذين نما الفكر المقاوم فيهما ، تمهيدا لتحيوله الى ركام خاضع للامبراطورية الاسرائيلية .

لذلك فاستسلام مصر يجب ان ينعكس على بيروت . فبيروت ، في التصور الاسرائيلي ، يمكن ان تتحول من مركز المقاومة ورمزها الى بوابة اسرائيلية لاجتياح المنطقة .

من هنا يأخذ صمود بيروت دلالاته الكبرى . بيروت المحاصرة بالاحتلال ما تزال عصية على اسرائيل ، وهي إذا استطاعت ان تتماسك وتؤسس لاشكالية مقاومتها الجديدة . قد تتحول الى احتمال رد حقيقي على زمن الانحطاط الذي يحاصرنا .

غير ان التوازن الثقافي المهيمن في لبنان ، لم يعد ممكنا بشكله القديم في المرحلة الراهنة . فالثقافة اللبنانية المسيطرة كانت تتألف من جناحين متناقضين متكاملين :

على تجاوز المنطق التقسيمي الذي يراد لنا ان نحشر فيه .

انه يفترض قدرة على قراءة الحاضر . كل قراءة حقيقية تبدأ من قراءة الحاضر . قراءة تناقضاته واحتمالاته . الانغراس فيه والتخلص من عقدة اوديب المقلوبة التي جعلت من ثقافتنا بحثا دائما عن اب ميت .

وقراءة الحاضر تحدد شكل قراءة الماضي . ولكن خلال قراءتنا لحاضرنا سنصطدم بحقيقة اساسية ، وهي ان المحتل هو اليوم من يحاول تحديد الحاضر والماضي والمستقبل ، وبذلك تصبح قراءة ماضي المحتل وحاضره ، ليس بوصفه ماضينا الناقص ومستقبلنا الممكن بل بوصفه ماضي الآخر وحاضره المتشابك مع واقعنا ، هو مدخل لقدرتنا على صياغة اسئلتنا الخاصة .

مواجهة الاحتلال لا يمكن ان تنشأ على ارضية الثقافة التي مهدت للاحتلال واعطته شرعيته ، انها تنبت على ارض الثقافة التي همشت ، الثقافة التي لم يستطع زمن القمع العربي استيعابها وتفريغها من مضامينها ، الثقافة التي تسعى الى اكتشاف عناصر وحدة الشعب والأرض وتؤسس .

تتميز هذه الثقافة بميزتين اساسيتين :

انها اولا ثقافة حوار وتعدد ، الحوار هو الشرط الضروري لأي نمو ثقافي ، وهو يفترض الاختلاف والاجتهادات المتعددة . وفي افق الحوار لا تكون المسألة هي الهوية الماضية ، بل تنطلق من كيفية قدرة الحاضر على تحديد هويته ، وفي كيفية قدرة الثقافة على مواجهة الاحتلال .

الحوار والتعدد لا يعنيان وجود ثقافات مختلفة ، هما في الأساس غير معنيين بالماضي . انهما معنيان بتأسيس ثقافة تواجه وتجتهد وتختلف اساليبها واشكالها ، لكنها حين تنطلق من الحاضر ومشكلاته فانها تؤسس لثقافة الوحدة ، اي للثقافة التي تشكل سياجا شعبيا ، وتكون احدى أدوات

مقاومة الغزو والابادة والانتحار .

وحين تتحرر الثقافة من البحث في تاريخ الملائكة تكون قد بدأت خطوتها الأولى نحو صياغة اسئلتها الحقيقية .

وهي ثانيا ثقافة هجومية ، لحظتها الدفاعية الراهنة هي في جوهرها لحظة هجومية . انها لحظة نظر وإعادة نظر في سبيل ان تعبر الثقافة عن عصر المواجهات الجديد . ان السقوط في الدفاع السلبي يعني القبول بشروط الانقراض والتقوقع داخل اللحظة الطائفية السائدة . من هنا فثقافة الوحدة هي ثقافة هجومية تعيد النظر وتستشف وتطرح اسئلتها .

بهذا المعنى تصبح ثقافة الوحدة هي مساهمتنا اللبنانية في الثقافة العربية . وكما كان لبنان ارض المواجهات الكبرى التي كشفت زيف اللحظة العربية السائدة ، فان الثقافة اللبنانية ، لا خيار لها سوى ان تكون ثقافة تجريبية طليعية، ثقافة جديدة تعيد النظر في ذاتها قبل ان تعيد النظر في الآخرين .

وهي بهذا المعنى ثقافة تبني وتؤسس .

٨٣/١/٢١

حرية الابداع

في زمن الاحتلال، زمن التحول السريع وتغير الدول، تكون الثقافة هي الضحية الأولى، انها المطالبة بصياغة لغة جديدة في زمن لم تتضح ملامحه .

وبسبب الترجرج ، يصاب الحيز الثقافي ـ الفكري بجميع امراض ردود الفعل الأولي ، ويصبح اسير لغته . فهو قد يصاب بالخمول الكامل ، الصمت والانتظار والترقب ، أو قد يصاب بمرض عبادة السلطة والتسرع في وضع نفسه في خدمة المنتصر ، أو يحاول ادعاء البراءة وتقديم نفسه وكأنه فوق الصراعات والأحداث ، أو قد يصاب بردة فعل رومانسية تجعله عاجزاً عن رؤ ية الجديد المتغير .

الخمول والبراءة وجهان لموقف واحد يضع المثقف ـ المبدع فوق زمنه يعطيه إحساساً كاذباً بالتعالى على أمراض مجتمعه ويقذف به إلى مرتبة النبوءة ومرض النبوءة الذي أصابنا منذ المتنبي ثم استعاده جبران، مايزال هو المرض الأكبر الذي يجتاح حياتنا الثقافية ويجعلها مليئة بالأوهام .

أما مرض عبادة السلطة وخدمة المنتصر، فهو الآخر قديم قدم الأدب . لكنه في العصر الحديث بدأ يحول الثقافة الى مجرد ملحق بالسياسة السلطوية . لقد مارست السلطات المتنوعة القمع والارهاب في سبيل تحويل الكاتب الى خادم وتحطيمه والغاء علاقته بكتابته وبالناس . وفي تجربتنا اللبنانية ، مورست اخطاء فكرية لا تحصى بحق الابداع . . لذلك وقبل

ادانة المثقفين يجب ادانة توجه ثقافي عام استسهل العمل الثقافي وعامله كملحق بالسلطة ، ليكتشف مع انقلاب الزمن ان الملحق ينقلب هو الآخر .

أما ردة الفعل الرومانسية ، والتي قد يتزايد حجمها مع تزايد وزن المقاومة الوطنية للاحتلال ، فهي محاولة للعودة الى الوراء ، محاولة للتقليل من حجم الذي حدث ولآثاره المدمرة ، واستعادة رومانسية فقدت منذ زمن طويل . .

يطرح زمن الاحتلال تحديات جديدة لا مجال للتهرب منها . واذا كان الجواب السياسي ـ النضالي في الواقع اللبناني بالغ التعقيد فان الجواب الثقافي هو أكثر تعقيداً بكثير .

مواجهة الهزيمة والموت تكون أولاً بالدفاع عن الحياة . والحياة غنية ومتعددة ولا يمكن تقنينها في إتجاه واحد .

المواجهة لا يصنعها العبيد الذين يعبدون الأصنام . فعند أول انتكاسة تتهاوي الأصنام ويهرب العبيد . المواجهة الحقيقية تصنعها ارادة الحياة الحرة .

لست من دعاة الصاق صفة المقاومة بالأدب . فالأدب كي يكون أدباً ، لا يستطيع أن يكون إلا ابناً لزمنه وجزءاً منه ، انه لا يعكس الواقع بل هو أحد أطرافه ، انه لغته . .

الاحتلال هو زمن فقدان اللغة بامتياز .

الآثار الأولى للهزيمة هي افراغ الكلمات من معانيها وتحويل اللغة الى حشو بلا دلالة . واذا كان الابداع هو انتاج اللغات المتعددة في اللغة الواحدة ، فهو يشكل موضوعياً دون أن يغرق في الصور الرومانسية

المبسطة ، شكلاً من أشكال المقاومة ، بل لعله شكلها الأكثر أهمية .

والابداع بهذا المعنى لا يمكن حصره في شكل واحد أو توجه واحد . انه كل ، يكون أو لا يكون .

من أجل ذلك فمعركة القدرة على الابداع هي معركة القدرة على صناعة الحرية . وكما ان الحرية لا يمكن تقنينها ، كذلك الابداع لا يمكن تقنينه أو أدلجته أو رسمه على صورة مثال سابق .

بيروت التي شكلت الاطار الأساسي للابداع الثقافي العربي لا تستطيع أن تتخلى عن دورها هذا ، فالتخلي في هذا المجال هو تخل عن كل شيء .

ان الكاتب حين يكون منغرساً في زمنه ، حين يكون الشاهد الأول والرائي الأول يتحول هو نفسه إلى جزء من النص فيتحول مع النصوص ويكشف ويكتشف انه قوي بحريته وان حريته ليست مسألة شخصية أو فردية انها مسألة اجتماعية .

الكتابة ـ الابداعية هي جزء من مناخ الحرية يصنعها وتصنعه ، وحين يكون مصير الحرية مهددا ، حين يكون القمع مسلطا فوق الرؤوس يصبح الكاتب هو المدافع الأول عن الحرية .

لذلك ربما قد يكون الذين لم يخونوا الحرية في مرحلة الهزيمة المستترة هم أكثر الناس قدرة على الدفاع عنها في زمن الاحتلال ، وقد يكون الذين برروا للاخطاء في الماضي هم أكثر الناس اندفاعاً لارتكاب الخطايا في المرحلة الراهنة .

الابداع الحقيقي هو الحرية .

اطاره الوحيد هو بحثه ومعاناته وكشوفه ، وهو في هذا يشكل المعنى الحقيقي لمسألة رفض الاحتلال .

المكان الوحيد الذي ينتزع حريته شبرا شبرا وكلمة كلمة . وفي مناخ الصراع من أجل الحرية والوجود والحياة يتأسس الابداع .

وبيروت تمتلىء بهم ، كل الأصدقاء الذين خارجها أو الذين يعتقد البعض انهم خارجها هم الآن أسرى دروبها وازقتها ومعاناتها وصراخها الذي لا يغيب .

سعدي يوسف وحيدر حيدر وفيصل دراج ومحمود درويش وميشيل كيلو وسعدالله ونوس وغالب هلسا والجميع . . الجميع هنا لأن المغامرة تبدأ ، المغامرة الكبرى التي لا تنتهي .

مغامرة بيروت انها كانت المدينة العربية الوحيدة . ومغامرتها الجديدة انها ستبقى المدينة العربية الوحيدة ، المدينة التي تمتد من المشرق الى المغرب ، المكان الوحيد الذي تعدد وتوحد في مغامرة الابداع .

والذين يشهرون السيوف الخشبية ويحاولون قتل روح المدينة ، وتحطيم دورها الابداعي عبر تحطيم دورها الثقافي العربي هم أشباح زمن الاحتلال ، الذين يريدون تحويل بيروت من عاصمة العرب الى ضاحية شرقية لتل أبيب .

غير ان الواقع الجديد الذي تعيشه المدينة شبه المحتلة يفرض علينا جميعا اعادة طرح الأسئلة على الثقافة العربية وعلى الفكر النقدي العربي .

فواقع ان بيروت شبه محتلة يعني ان جميع المدن العربية محتلة بشكل كامل ، ويعني أن فكرا ينبت في مقاومة الاحتلال يجب ان يقطع نهائياً مع الفكر الذي نما في ظلال السلطة العربية المحدثة .

النقاش الممنوع حول وضع السلطة في العالم العربي ، النقاش الممنوع حول الأقليات والثقافة والوقائع الاجتماعية والنقابات المصادرة والصحافة التي تمجد السلطات والبترول الذي يأكل الأوراق والحروب الوهمية ،

والشعارات التي لا دلالة لها والمجتمع المدني المقهور والمصادر والفكر الثوري الغائب عن هذا الازدهار المريب للشعارات الثورية الخ. . . هـذا النقاش يجب ان يفتح الآن ودون تردد . فالتردد والخوف من أن يصب التحليل في طاحونة القوى الامبريالية قادنا الى زمن يصب فيه كل شيء في هذه الطاحونة وبعد ان انقضى كل تحليل .

مهمات زمن الاحتلال تفترض تزاوجاً بين مسألتين :

فهم الواقع المستجد وتحليله واكتشاف عناصر المقاومة التي فيه ، والقيام بنقد ذاتي حقيقي للمرحلة الماضية بكل ما حملته من اخطاء وسقطات وتراجعات. والعمليتان متزامنتان احـداهما تفتـرض الأخرى . لأن القيـام باحداهما قد يقود اما الى تكرار الماضي أو الى السقوط في الكسل الفكـري والمهادنة .

غير أن الأساسي الذي يبقى هو اصرارنا على أن نكون ابنـاء تجربتنـا وزماننا . اصرارنا على ان نكون شهـوداً حقيقيين ، نـأتي الى كلماتنـا دون ادعـاء ودون كبريـاء مصطنعـة ، نحن مجـرد كتـاب ، أي لسنـا أنبياء ولا سحرة .

وفي الشهـادة نكتشف بيروت . نكتشف هـذا البحـر الـذي يمتـد الى الـلانهائي ، نرى أرواح المـوتى التي تسبح في هـذا الأزرق المالـح وتخبرنـا حكاياتها ، نذهب الى البحر ونكتشفه مرآة لمعاناتنا الطويلة ونجعله شاهداً أخيراً على ارادة الحياة التي تجتاحنا .

٨٣/١/٢٣

تحية إلى جان جنيه

جان جنيه يكتب عن المخيمين وعن بيروت .

في أيلول ١٩٨٢ جاء جنيه الى بيروت ليتفقد اصدقاءه . وبعد أيام من وصوله الى المدينة جاءها الاحتلال وحدثت المذابح . حمل هذا الكاتب الفرنسي الكبير عمره وعشرين سنة من الانقطاع عن الكتابة وجاء . وفي أزقة شاتيلا وصبرا اكتشف الكتابة من جديد . كتب شهادته بتلك الكلمات التي تتراصف كشخوص جاكومتي وعاد . وفي العدد الأخير من « مجلة الدراسات الفلسطينية » ، الصادرة باللغة الفرنسية ، نشر نصه عن بيروت .

كلمات تشبه الصمت وهو يتساقط على الأكتاف . كلمات تحرك الصمت وتكسره الى دوائر صغيرة . كلمات للشهادة ، للتفاصيل ، للموتى ، للاحياء الذين سيموتون ، لنا . كلمات لبيروت بمقابرها المهدمة ورجالها المنكسرين .

شهادة جان جنيه ليست مجرد نص جديد يضاف الى أدب هذا الكاتب الفرنسي . انها أكثر من ذلك ، انها استعادة لرعشة الخلق ، لذلك الخوف المتوحش الذي يغزو الجسد فيصير الى كلمات . كأننا أمام نص جديد ، كأن جرأة جنيه وهو يصف الأجساد المكومة والأجساد العمودية ، ثم ينتقل الى وصف كيفية اجتياح بيروت ، ثم يستعيد لحظات الأحراش ، تتجاوز البعد الأدبي لتعود فتصب فيه وتعطيه ايقاعاً جديداً .

لم يسبق لكاتب فرنسي كبير أن تماهى معنا ومع موتنا . أو جاء الينا بهذا التواضع وهذه الارادة في أن يصير واحداً منـا ، في أن يكون مثلنـا ، دون أن يشدنا بشكل خفي لكي نتخذه نموذجاً .

هذا الكاتب الذي ولد في الهامش ، وقضى قسماً كبيرا من حياتـه في السجون ، وكان دائم التلبك من كتابته وشهرته ، فاختار ان يكون خارج المجتمـع الأدبي الفرنسي ، اختـار ان يكون في المنفى الـدائم وفي السؤال الدائم . انه لا يأتي الينا بحثاً عن تعويض أو عن اعتراف ، يأتي ليعلن سره الكبير ، ليعلن دهشته وحبه . لا يكتب كي يعلم ، يكتب كي يشهد . وها هو بعد سنوات طويلة من الانقطاع عن الكتابة ، يعود اليها ، لأنه وامـام هول الذي حدث في داخله وهو ينتقل بين الجثث المكومة ، وجد ان لا مفر من الشهادة .

الأصدقاء الذين رأوه في بيروت ، خلال تلك الأيام المظلمة ، يروون عن كهل مريض يحمل قدميه والدم ينزف منهما ، يمشي بين أكوام الموتى كأنه في مـدينته ، يصـاب بالـدهشة التي تجعله يـروي القصـة نفسهـا عشـرات المرات ، يخرج الى الشوارع ، يعود ، يستعيد الماضي ، يبحث عن الأجساد ويحاور الموتى .

كان في بيروت المحتلة وكأنه يبحث عن مكانه الأخير . لذلك ، ربما ، يأتي وصفه لأجساد الضحايا في المخيمين وكأنه حوار طويل مع الذات . كأن النص يصبح مجموعة من النصوص المتداخلة ، والشخصية والحميمة .

كتابة جان جنيه عن بيروت تأخذ حجم الحدث الثقـافي . انها مؤشر هام على محاولة الكتـابة التحـرر من المسبقات ، واستعـادة قدرتهـا على أن تبحث عن ذاتها حيث يمكن أن تكون ، أي حيث تختلط الشجاعة بـالمحبة وتعطي مزيجاً كتابياً فريداً ، شهادة مختلفة تصدر عن آخر الكبار الاحياء في الثقافة الفـرنسية ، وهـو يحاول أن يتحـرر من ركاب الكتـابة الأبوية شبه

الاستعمارية ويشهد للحقيقة .

ليس سهلاً أن يتماهى كاتب غربي مع الفلسطينيين واللبنانيين ، ليس سهلاً أن يرى جمال موتانا وأفقهم ، متجاوزاً بذلك موروثاً كاملاً من الثقافة الكولونيالية ومن اللاصقات الأيديولوجية الثقافية .

ما يحاول جان جنيه أن يقوم به ، هو أن يقفز فوق هذا الموروث بأسره ، ويأتي الينا بكلماته العارية .

ـ لكن متى تأتي شهادتنا نحن ؟

الضحية لا تتكلم ، انها تموت . موتها هو شهادتها الأخيرة . وقدرنا المأساوي هو أن نكون الضحية التي تتكلم . فهذا العصر الاسرائيلي مختلف عن جميع العصور الاستعمارية التي اخضعتنا لها ، انه يريد الغاء الآخر . لا يسيطر عليه إلا في سياق الغائه .

الضحية يجب أن تتكلم .

الموتى يتكلمون ، البحر ، البيوت المبقورة ، البقايا ، كلها تتكلم وستتكلم .

ولأن كلامنا الخافت بدأ يعلو ، فان نص جان جنيه يأخذ بعداً مختلفاً . انه الأنا الآخر . انه المحاور ، المحاور الذي يرضى بأن يختار حريتنا المكبلة والمسحوقة .

في قراءتنا لجان جنيه نحاول أن نقترب من صمت الضحايا . نقرأه ونعيد اكتشافه ، ونكتشف معنى آخر للكتابة ، المعنى الذي يقع خلف الكلمات . الكتابة هي رسالة حب . وامام اختلاط الحب بالموت في زمننا وفي لحظتنا المنكسرة ، نستعيد قدرتنا على الكتابة .

تحية إلى جان جنيه .

٨٣/١/٢٨

أنصار

الاسلاك الشائكة ، الخيام المنصوبة ، الكشافات ، الابراج ، الحرس ، مدينة جديدة يسكنها آلاف الرجال ، مدينة للقهر والخوف والظمأ اسمها « معسكر انصار » ، بناها جيش الاحتلال الاسرائيلي كي يجعل منها نموذجاً للمصير الذي يريده لنا .

معسكر بعيد ، ننساه او يريدون لنا ان نتناساه ونعيش في معسكرات اعتقالنا الصغيرة ، هذا المعسكر البعيد يمتد فوقنا بظلاله ، بالاصوات التي تأتي من خلف الأسلاك ، كأننا جميعنا هناك ، او كأن هناك هنا، كأن كل شيء يدخل في كل شيء ، فنصير نحن الاسرى ونصير « الانصار » .

آلاف الرجال جاء بهم الجلاد من المدن والقرى والمخيمات المحتلة قادهم بعيونهم المعصوبة وايديهم المغلولة ، وساقهم من عذاب الى عذاب ، وكانت رحتلهم طويلة .

اعادوهم الى فلسطين عصبوا عيونهم كي لا يروا طريق العودة . ضربوهم في الباصات ، اغلقوا نوافذها كي لا يشموا رائحة الأرض ، اذلوهم كي ينسوا . لكنهم الآن يذكرون ، يذكرون ان هذه المسافة القصيرة التي يقطعها الباص بساعات معدودة هي الطريق الأطول ، لأنها مزروعة بهذا الموت الذي لا ينتهي ، وبعد عذابات فلسطين ، حيث التحقيق والاذلال والتعذيب ، حيث الجوع وهو يفترس الانسان ، والعطش وهو يشققه ، عادوا بهم ووضعوهم في معسكر جديد في قرية انصار ، وتركوهم

للبرد والجوع والظمأ .

في هـذه المدينـة ، المعسكر ، يعيش آلاف الـرجال حيـاة الانتـظار ، يحتالون على الزمن وينتظرون ، يعيشون ويحلمون ويحاولـون ان لا ينسوا ، يحفرون في ذاكرتهم ـ ذاكرتنا الجديدة حكايات الجلاد والضحية ، حكايات الأيام الثلاثـة الأولى من الاعتقال دون طعـام او ماء ، ودون مـراحيض ، حكايات مدرسة « الراهبات » حيث الدماء والموت ، حكايات « المقنعين » بعيونهم المرتجفة هلعا ، حكايات « الصلب » حيث تتـرك في الشمس نائـما على وجهك ساعات لا تنتهي ، « والتسخين » حيث توضع في زنزانة صغيرة من الاترنيت وانت معصوب العينين ، والمسامير في سقف الزنزانة وارضها ، والشمس تشويك بنارها ، و« الجلد » بالعصا او بالكربـاج ، او بالاسـلاك الكهربائية والبقاء ساعات وساعات دون كلام أو حراك في الخيمة الصغيرة . يحفرون في ذاكرتهم ـ ذاكرتنا ، كيف يرشون الرجل بالمبيدات قبل نقله الى معسكر الاعتقال ، وكيف يحاولون تحويل الانسان الى بهيمة ، يحفـرون في ذاكـرتهم ـ ذاكرتنـا ، هذه الحكـايات ليس من اجـل ان نحقد او ننتقم ، فمشهد الجندي الاسـرائيلي وهـو ينتقم كان يـدعو الى الـرثاء ، كـان اشبه بشخصيات الافلام الاميركية الخرافية ، المليئة بالرعب .

يحفرون في ذاكرتهم ـ ذاكرتنا ، من اجل ان لا ننسى ، ولن ننسى .

انصار ، هي اليوم حكاية الجنوب اليومية .

بعضهم يخرج من معسكر الاعتقال ليعود اليـه ، وبعضهم لا يخرج ، وبعضهم سيخرج ، وبعضهم سيدخل .

كأنه ، صورة مصغرة من الجنوب اللبناني ، او صورة مصغرة عن هذا العالم العربي الشاسع ، الصـامت ، الفاقـد قدراتـه على الكـلام ، او على الاحتجاج .

نظام القمع اليومي الذي يبدأ مع الجلوس المنحني الرؤوس لأكثر من ساعة ونصف كي يقولوا « بوكرتوف » التحية للضابط الذي يقوم بجولته التفقدية كل صباح ، ومع الطعام القليل ومع محاولات بث المشاحنات بين الأسرى ومع الكشافات التي تجعل من الليل نهارا دائما ، ومع التعذيب والاهانة والمرض .

ونستمع الى اصواتهم واصواتهم تروي :
انا الرجل الوحيد
انظر ولا أرى ، هم يسألون وأنا أجاوب أو لا أجاوب .
صلبوني .
قالوا اصلبوه .
صلبوني ، ولم يكن صليب ، وما كانت امرأة .
صلبوني وكانت الشمس ،
الشمس تسقط على الأرض ، وأنا أسقط ، ووجهي يلتهب .
أنا رجل من انصار
أنا الذي رأى .
الظلمة تحيط بي ، العينان غارقتان وأرى .
كنتم جميعا هناك ،

الزمن في جيوبكم ، والاغنيات على اصابعكم والموت غارق في ثيابكم ، رأيتكم ، كنا سوياً ، لم يتخلف أحد ، حتى الذين سقطوا ولم يجدوا من يدفنهم جاءوا .

عندما أوقفونا ونادوا على الرجال ، رأيتهم ينهضون ، ينفضون الغبار عن ثيابهم ، يمسحون بقع الدم بأكمامهم ، ويجيئون .

وحين اخذونا وربطوا عيوننا رأينا كل شيء .

وعندما عطشت فكرت بالعيون التي غادرتها ولم أبك .
ومن حفرة الى حفرة مشيت معكم ،
ومن محقق الى محقق لم انسَ . .
لم انسَ وجه الفدائي وهو يموت .

وجـه رجل من صـور كان غـارقـاً في ثيـابـه ثم سقط ككمشة ثيـاب مجعلكة .

وجه طفل من قانا كان مليئا بالأشواك وعيناه تائهتان في البعيد .

لم انسَ ،
لم انسَ وجوهكم ووجه البحر .
وأنا هناك ،

انا رجل من أنصار ، حيث الأيام تغرق في الأيام ، وحيث الأسـلاك تنغرس في العيون ، وحيث العيون أوسع من الأرض .

هنا نبدأ .

الرحلة ابتدأت . اصواتنا تعلو ، الأسلاك تعلو ، ورصاصهم يعلو .

فمتى تجيئون ايها الاصدقاء .

هذا المعسكر ـ المدينة ، يحاول أن يبحث عن اشكال لاستمرار الحياة .

الأهـم ، ان الاسرى يحاولون ان ينتظروا ، وينتظرون ان يكون هنـاك في نهاية نفق الانتظار الطويل ، من يقف وينتظر عودتهم .

لذلك ، لماذا نبتعد عنهم ؟
لماذا ننساهم ؟ أو نتناساهم ؟

ننساهم لأن الخوف ، دفع الناس الى العيش ضمن الحد الأدنى ، ضمن اقل

من الحد الأدنى ، الخوف هو اللحظة المسيطرة في زمن الاحتلال .

نتساهم لأن الحروب الداخلية ما تزال تأكلنا وتنهشنا .

نتساهم لأن المذابح تفرخ مذابح ، ولأننا ما نـزال نعيش تحت مبضع القاتل .

نتساهم لأن الموت الذي يجتاحنا ، الموت الكثير الذي لا يتوقف يريد تحـويلنـا الى مجـرد اشبـاح تعيش تحت ظـلام الاحتـلال او الخـوف من الاحتلال .

نتساهم لأننا نسينا انفسنا ، نسينا وجوهنا وايدينا .
ولاننا ننسى ، وعلى الرغم من اننا ننسى فهم لا ينسون .
في انصار عيون ، انه معسكر العيون الجائعة الى الحب والحرية .
في انصار ايد ما تزال مرتفعة ، وتقول حريتها وبحثها عن الحرية .
في انصار اسرى لا يعترف بهم كأسرى ، بشر لا يعترف انهم بشر .
في انصار .
كلكم . كلنا في انصار .

من يشعر انه حر في بلد محتل ؟ اين هو الذي يعيش في جلده والخوف يفترسه ؟ من يستطيع ان يشعر انه هو حين يسحقون وجهه ؟

لذلك ، كلنا هؤلاء .

كلنا ندخل معهم الخيام الصغيرة المنخفضة ونعيش الذل اليومي ، ولم يعد لنا من خيار سوى ان نجعل قمصاننا اعلاماً .

ومن أجلنا نحن .

تفاؤل الارادة

وسط تشاؤم العقل ، وسط الشلل العام الذي خلفته المذابح ومعسكرات الاعتقال واجواء الاستسلام ، وسط محاولات الاسرائيلي المحتل الاستمرار في لعبة الحرب الأهلية ، وفي تمزيق لبنان وإبادة الشعب الفلسطيني ، وسط الخوف والشعور بالوحدة وبأننا تركنا الى مصيرنا الدموي داخل عالم عربي شاسع ينام على ذراع عدوه ، وسط كل هذا يأتي تفاؤل الارادة ، وتأتي انتفاضة الجنوب.

انتفاضة الجنوب ، الاعتصامات في بيروت وضاحيتها الجنوبية ، التظاهرات الدموية ، تحرك البقاع ، والشمال ، هي بدايات الانتفاضة الوطنية العامة ضد الاحتلال الاسرائيلي . فالشعب يستعيد صوته وصورته التي حاولت حرب الإبادة محوها . وصوتنا لم يغب إلا لحظة قصيرة لم تكن كافية لنلملم قتلانا ولندفن الاحبة الذين سقطوا تحت انقاض مدننا وقرانا ومخيماتنا . يرتفع الصوت كبيراً لأن الحلم الذي بنيناه لحظة لحظة ، يأبى ان يسقط ، ولأننا حين اسرونا ، واحاطونا بالاسلاك وبالموت ، كنا امام خيار واحد ، هو ان نرفض الموت ، وان نتمسك بتفاؤل الارادة .

الانتفاضة المستمرة هي تتويج لأشهر طويلة حاولت فيها قوى المقاومة الوطنية ان تخترف ظلام الاحتلال ، حين كان الاحتلال يقدم نفسه كمؤقت. فاذا بالمؤقت يتحول الى دائم ، وإذا بالطلقات المتفرقة تتحول الى صحوة شعبية شاملة ، وإذا بالمسيرة التي اعتقد الاحتلال انه كسر عمودها

الفقري تستعيد نفسها وتستعيد قدرتها على ان تبدأ .

كان الاحتلال الاسرائيلي ، منذ البداية ، يحاول ان يلبس على وجهه قناع الغموض . دخل من ثغرتنا الداخلية ، من فساد الأنظمة التي منعت الحركة الوطنية الديمقراطية من ان تبلور خطها الجديد ، كما دخل من تردد قوى التغيير امام متطلبات التغيير وسقوطها في الشرك الايديولوجي الجاهز ، وحاول ، وما يزال يحاول ان يمحو وجوهنا ويستبدلها بوجوه شبيهة به ، ان يحولنا من شعب مضطهد الى شراذم تضطهد بعضها ، وان يسحق فينا إرادة الحياة والمقاومة .

غير ان ما جرى في لبنان ، لم يكن بالبساطة التي تصورها الكثيرون ، فلبنان ليس بوابة العبور الى اجتياح المنطقة وتفتيتها ، لبنان لا يستطيع ان يكون مطية اسرائيلية ، فالتقسيم والشرذمة والاخضاع ، وهذا ما كانت تريده اسرائيل منذ البداية ، انكشف اليوم ، وكشف معه ، عن ان الجنوب اولاً ، ثم لبنان باكثريته الساحقة ، ما زال قادرا على المقاومة ، وان هذا الجسد المليء بالجراح ما يزال يحمل في داخله ارادة الحياة .

الاعتصام في جبشيت ، ثم امتداده الى بيروت ، هو الاعلان الأول عن اننا لم ننس الالاف الذين سيقوا من مهانة الى مهانة في معسكر انصار ، وعن اننا لن نقبل بأن يتحول لبنان باسره الى معتقل كبير ، وعن اننا ما نزال نملك تفاؤ ل الارادة .

تفاؤ ل الارادة ليس تفاؤلا رومانسيا ، انطلاقا من الارادة يمكن ان نزيح تشاؤم العقل ، انطلاقا من قرار المواجهة ، يجب اعادة النظر في جميع الأولويات ، وبالتالي يمكن أن نصوغ منها جديدا وجديا لإشكالية الصراع التي نخوضها ، ويمكن أن نبني حلمنا من جديد .

الأولوية المطلقة هي اولوية مقاومة الاحتلال . كل اولوية أخرى هي

مجرد وهم وابتزاز . مقاومة الاحتلال تعني إعادة النظر في وضعيتنا وفهم الواقع الجديد دون اوهام . إن ما يريده الاحتلال هو التقسيم ، وهذا يعني إلغاء وجودنا المادي وتحويلنا الى مواطنين من الدرجة الثانية . . وتعميم الحالة الفلسطينية الاقتلاعية على الشعوب العربية الأخرى . ومواجهة التقسيم تكون بالبحث عن الوحدة اولا ، البحث في إشكالية وحدة شعبية ديمقراطية هي وحدها القادرة على المواجهة والصمود . هذا البحث يجب ان يبدأ انطلاقا من نقدنا للممارسات الطائفية على جميع المستويات ، وللطروحات شبه التقسيمية مهما اختبأت خلف شعارات الوحدة . الوحدة اولا ، تعني ان الحاجة اصبحت ماسة لتحرك عام ، وطني ، ينطلق من الاخطار التي تهددنا ليصوغ برنامجا وطنيا جديدا ، برنامجا لتحرير ارضنا المحتلة وإرادتنا المسروقة . الوحدة الطوعية التي تبدأ من وعي الخطر والتي لا بد وأن ممارسات المحتل قد كشفت لها ان الخطر يتهدد الجميع وعلى قدم المساواة ، وان الحل الطائفي ليس حلا على الاطلاق .

من هنا ، ضرورة إعطاء تحرك الجنوب وبيروت بعده الوطني غير الطائفي . فالمهدد في الجنوب ليس طائفة واحدة ، انه الجميع ، وتحرك رجال الدين يجب ان يواكبه تحرك جميع الفعاليات الوطنية ، والفعاليات الثقافية والنقابية بوجه خاص . كي يعطي التحرك بعده الحقيقي وكي نبدأ في تجاوز اشكالية الاحتلال .

وحتى الآن ، انا ما ازال عاجزا عن فهم اسباب الشلل الثقافي والنقابي في مواجهة الاحتلال . فمرحلة الضياع الأولى ، مرحلة التردد ، يجب ان تكون قد انتهت بعد ان ازال الاحتلال الوهم وأكد بالممارسة الملموسة عن قراره بسحقنا والاستيلاء على جزء من ارضنا وعلى كل ارادتنا . الاعتصام الذي يتم في المساجد والحسينيات ، يجب ان يمتد الى مراكزنا الثقافية ، والى نقاباتنا ، ويجب ان يتحول الى ندوات مفتوحة كي نناقش ونتحرك ، ونبدأ .

الوحدة تعني ان نبحث مع الضحايا الآخرين للغزو الاسرائيلي عن قواسم مشتركة . وان نتجاوز سنوات التردد والتراجع والتآكل ، التي سبقت الاحتلال وهنا يبرز دور العقل الذي يحمي تفاؤ ل الارادة ويعطيه عمقه الفعلي .

بعد تسعة اشهر على الاحتلال الاسرائيلي ، بدأنا نتلمس احتمالات بداياتنا الجديدة . وهذه البدايات ، لا بد وان تتعثر ، هذا التحرك قد يصاب ببعض التراجع . وقد يعلمنا اشكالا جديدة لم نألفها من قبل ، ولا بد وأن يدفعنا الى إعادة النظر الجذرية في المعاني العميقة لمواجهة صيف ١٩٨٢ ، يحولها من نقطة نهاية المواجهات الى منعطف جديد للمواجهات مع دولة الاحتلال ومع انفسنا ومع دول القمع العربي التي منعتنا وتمنعنا من مواجهة الاحتلال بشكل جدي .

التحرك الذي يمتد وينتشر ، هو إعلاننا الصارخ على ان الالاف الذين سقطوا ، الاصدقاء والرفاق الذين غابوا وهم يحملون الحلم في ثيابهم الملطخة بالدماء والتراب والاخطار . الأصدقاء ما يزالون معنا ونحن وإياهم سوف نكتب من جديد حكاياتنا التي لا تنتهي .

تفاؤ ل الارادة يبدأ حين نتعلم دروس الواقع المعاش ، فعلى الرغم من كل شيء ، فالذين دفعوا ضريبة الهزيمة كاملة ، هم اليوم من يحمل عبء المواجهة . منهم ، من عيونهم المفتوحة على البداية الغامضة ، من ايديهم المغلولة والتي تكسر الاغلال ، من شغفهم بالحياة وبالحرية ، نتعلم كيف نقاوم ، ونتعلم كيف نبدأ من جديد ، ونرى حلمنا القتيل ينهض من الركام ويدعونا كي نلاقيه فى الأزقة الضيقة ، والبيوت المنخفضة والمدى الواسع .

من دروس المعتقلات والمذابح نتعلم كيف ننهض ونصرخ ، وفي النهاية نكتشف نفقا طويلا يقودنا الى البدايات المحتملة .

٨٣/٤/٢

مشنقة ومقنّعان وحديقة !

جلادان مقنعان ، رجل يبلعط في البيجاما ، مشنقة منصوبة ، جثة بيضاء تتدلى .

الزمان : السادسة صباحا ، ٧ ـ نيسان ـ ١٩٨٣ .

المكان : بيروت الكبرى ـ حديقة الصنائع .

المشهد : تنفيذ حكم الاعدام شنقا بابراهيم طراف، قاتل ماتيلد ومرسيل باحوط .

انه المشهد الأخير من الحرب ، انه المشهد ـ العقدة ، انه الحل ، انه الحبل .

مشهد صنع خصيصا لرجال الصحافة ولكاميرات التلفزيون الفرنسي .

مشهد صنع خصيصا لرجال السياسة المتقاعدين ، كي يدلوا بتصريحات إجرائية .

لم يلاحظ أحد ، الجميع لاحظوا لكنهم تجاهلوا ، انه تجاهل العارف كما يقول البلاغيون ، لم يلاحظ أحد ان الجلادين كانا يلبسان الأقنعة ، العدالة المغفلة ، جلادان مقنعان يشدان بالجثة البيضاء التي تتدلى. لكن العدالة المغفلة نسيت اننا عشنا سنوات طويلة وصور القاتل المقنع تخيفنا . .

صور الاقنعة ولابسي الأقنعة كانت تملأ الصحف .. هل نسيتم ؟ !

لم يلاحظ أحد ان المشنقة نصبت في حديقة الصنائع .. الحديقة الوحيدة الباقية في « بيروت الغربية » التي يلعب فيها الأطفال ، اطفال ومشنقة . سينما .. اين السينما .. بونويل ما كان ليحلم بهكذا مشهد ، تحويل السريالية الى افلام وثائقية ..

لم يلاحظ أحد ، ان ابراهيم طراف موجود في كل زاوية .. القاتل في ثيابنا ايها السادة .. هل نسيتم مانشيتات الصحف عن الجثث والجرافات والأجساد التي قطعتها البلطات والبيوت التي جرفت .. الفرق ان ابراهيم طراف كان مجرما فقط . اما غيره فكان مجرما ويقود جرافة ، أو كان مجرما ويضع قناعا على وجهه . الفرق ان ابراهيم طراف سلم نفسه للعدالة، بعد ان هرب من السجن .. كان يعتقد أنه يريح ضميره فاذا به يجد نفسه يتهاوى امام وجهين لـ-الادين مغفلين يقفان امام مشنقة خشبية منصوبة وسط حديقة الصنائع .

ليس هدفي هو الدفاع عن جريمة ابراهيم طراف . فقد وجدت الجرائم مدافعين اكثر حذاقة وذكاء من كل ما استطيع كتابته ..

لكني اسأل .. هل إعدام ابراهيم طراف يحل المشكلة ؟

المشكلة ليست طبعا مشكلة الحرب والقتل على الهوية والخطف والخطف المضاد ..

ولا هي مشكلة الاحتلال الاسرائيلي ، والافوكاتو وجيش سعد حداد .

ولا هي مشكلة المخطوفين والمفقودين والذين هدمت بيوتهم .

فهذه مشكلات عجزت الدول الكبرى والمارينز والجيش الطلياني عن حلها .

سؤالي هل يحل إعدام ابراهيم طراف مشكلة الضمير المتصدع ؟

كانت محاكمة ابراهيم طراف تجري في موازاة مجتمع يتآكل في الحرب الاهلية ، كانت صورة ميكروسكوبية عن واقع عام ، نجلس خلف الصحيفة ونبدأ في قراءة وقائع المحاكمة ، ثم فجأة يبدأ الزجاج في التناثر . القصف العشوائي ، القتلى ، البلاجات تقصف ، السابحون يتراكضون في الشوارع عراة . . والقذائف تنثر في الفضاء . . كان هذا قبل الاجتياح الاسرائيلي . . وكان القتل على الهوية ، والرجال والاكياس السوداء تغطي رؤوسهم ، والجرافات وكل شيء !

ومع ذلك ، كانت محاكمة ابراهيم طراف ، تستفيد من كل هدنة صغيرة . المجرم يمثل جريمته الصغيرة ، القضاة والمحامون . . كل شيء يسير بانتظام .

الفرق بين التكميل وابراهيم طراف ، ان التكميل اعدم ، كما قالوا يومها ، ليكون عبرة . . اما الطراف فانه يعدم قرب مكان جريمته ، قبل ان تتوقف الحرب والحروب . .

إبراهيم طراف هو لاراحة الضمائر . . انا لا استطيع ان اصدق انه يمكن ان يخدم هذا الاعدام شيئا آخر . . فالجميع يعرفون ان الجريمة لم تبدأ بطراف ولن تنتهي به ، وان الجثث التي قطعت ، لم يقم بتقطيعها طراف وحده . . طراف كان مقلدا او صدق اللعبة ، اما الابداع الفعلي فقد قام به آخرون .

المسألة هي كيف تحاول الضمائر ان تعيد ترتيب نفسها . . الاعدام الذي تم اول امس يشير الى القاتل ، ويبرىء الآخرين . . انه فعل براءة . . انه إعلان صارخ بالحاجة الى البراءة . . .

إبراهيم طراف ليس بريئا . . في لحظاته الأخيرة قال انه بريء لانه

لم يحل المشكلة .

نحن ما نزال داخل اعصار الحرب والاحتلال .

والاعدام يضيف صورة جديدة الى صورنا الممزقة .

٨٣/٤/٩

خطف التماثيل

تمثال ينسف ، تمثال يسقط ، تمثال يخطف !

كأنها الحرب الأهلية تستعاد ضد جمال عبد الناصر . حواجز طيارة ، خطف على الهوية ، تسلل في الظلام ، ازاميل وبلطات واجساد مشوهة ، والهدف هو التمثال .

جاءوا الى التمثال وسألوه عن اوراق الاقامة ، فاكتشفوا انه لا يملك اوراقا قانونية ، لم يسألوه شيئا لكنهم اكتشفوا ان لهجته مصرية وتذكر بايام كان فيها الناس يكرهون الاستعمار ، او اكتشفوا انه لا يشتري البضائع المستوردة من جارتنا «نيوزلندة» أو اكتشفوا انه طويل القامة ، أو اكتشفوا انه يحب البحر ويكره الاساطيل الاجنبية .

سألوا التمثال الواقف في عين المريسة ، لم يجاوب . كان ينظر الى البحر كان يتكلم مع البحر ، خافوا قالوا انهم خافوا من البحر ، قالوا لم يقولوا ، فخطفوه الى جهة مجهولة .

اكتشفوا انه واحد من هؤلاء « الغرباء » .

او اكتشفوا انه يشكل خطرا على جمال المدينة ، التي سيعاد تعميرها بناطحات السحاب وبالسياح الذين لا يحبون التماثيل العالية ، او اكتشفوا انه جمال عبد الناصر ، وهذا يعني انه كان عليه ان يرحل مع الذين ركبوا السفن اليونانية وغادروا المدينة ، قبل ان يدخلها السلام الاسرائيلي مع قليل

من البلطات والقنـابل المضيئـة والمذابـح . . او اكتشفوا انـه لم يعد مـلائما للمرحلة المتعددة الجنسيات او !

قيل انهم جاءوا بالازاميل ، قيل ان الليل كان يلفهم ، بعضهم اقترح تقطيعه قبل قتله ، وبعضهم اقترح قتله وتشويه الجثة ، ثم حسموا المسألة بان قرروا خطفه الى جهة مجهولة ، والمشكلة ان الخاطفين لا يعترفون بوجود المخطوفين .

وعبد الناصـر يستحق هذا العقـاب لأنه مـا يزال واقفـا . الخاطفـون يعتقدون ان الجميع ركعوا ، على الجميع السجود ، وجاءوا الى عين المريسة فرأوا عبد الناصر واقفا ، الصيادون حوله بمراكبهم واغنياتهم وهـو يقف . فقرروا إجباره على الركوع . طلبوا منه ان « لا يرفـع رأسه » ، التمثـال لم يجـاوب ، تابـع النظر الى البحـر ، فخاف الخـاطفون من صـوت المـوج ، وبدأت الازاميل تقرع النصب .



اكتشف الخاطفون ان عبد الناصر هو « الاحتلالات » ، على عادة هذه الايام الجميلة حيث يكثر استخدام جمع المؤنث السالم خوفا من الاشارة الى الاحتلال الحقيقي الذي يهدد لبنان بالانفراط .

هو الاحتلالات . . وبدأ « التحرير » الرمزي .

إنه العصر الرمزي . .

غدا بعد الف سنة ، عندما سيحلل الأركيولوجيون طبقات الأرض ، سيكتشفون بالاضافة إلى العصور الجليدية والحجرية والبرونزية والنحـاسية والاميـركية والاسـرائيلية ، عصـرا جديـدا لا سـابق لـه ، اسمـه العصـر الرمزي . .

ميـزات هـذا العصـر انـه عصـر مختلف . . مـليء بـالانسحـابـات والاحتلالات ، كل شيء فيه رمز ، الموت رمز للحياة والحياة رمز للموت ، الاحتلال رمز للتحرير والتحرير رمز للاحتلال ، وفوق كل الرموز يأتي الرمز الثقافي الذي يتمثل بالهبة الشعبية ضد تماثيل الغرباء ، وخاصـة تمثال عبـد الناصر . فعبد الناصـر منع « رمـزيا » المـذابح لمـدة عشرين سنـة ، وعبد الناصر منع الشباب المتحمس من خلق الـظروف الملائمـة للاحتـلال حتى يقوموا بالتحرير . . وإلا كيف يحررون بلدا ليس محتـلا ؟ . وعبد النـاصر قال لأصدقائنا اشربوا البحر . . وإلى آخره . . من الأسباب الموجبة لاعتقاله وفكه قطعة قطعة .

هكذا تتم لبننة الشوارع ـ شارعا شارعا ، ويتم الاعتداء على ذاكـرة الناس فردا فردا ، ويتم التشبيح الاعـلامـي مع الـ التعريف التي لا تعترف بـوجود فـرق بين الحـروف الشمسية والحـروف القمريـة . . وننعم بالأمن والهدوء والنظام ويتصـالح الـزعماء ويقـررون احراج اميـركا ! وينصحـون الرئيس ريغان بمتابعة خطته المدروسة ؟



لقد صبرنا كثيرا ، وسنصبر اكثر . . الملفت ان الصبر لا حدود لـه . تصبر وتعتقد انك ستنفجر ثم تجد للصبر مدى جديدا فتصبر من جديد . . غدا سيحتار المؤرخون في وصف صبرنا ، وسيحتار علماء النفس في تعليل قدرتناعلى التحمل ، وسيحتار المحللون الاستراتيجيون في فهم الكيفية التي يقوم فيها بعض الشبان على إشعال المقاومة وهم محاصرون بالاحباط .

لكننا نصبر ، ونضحك ، ونخبر النكات عن البضائع الاسرائيلية وعن الحاكم العسكري وعن وعن . .

ولكن ، وهـذه ليست شرطـا ، الصبر لا شـروط له ، لكن هي فقط للتذكير . .

لكن . . هذه المدينة لا يمكن تغيير دلالات المكان فيها ، كل شارع ، كل زاوية ، كل حائط ، كان اكبر من المدن كلها ، كـل لحظة فيهـا كانت اكبر من تاريخ الذين يحاصرونها . .

لذلك فـان الخاطفـين لم يخطفـوا شيئا . . لأن رجـلا كعبد النـاصر او كعرابي لن يجد في هذا العالم العربي الشاسع مكانا يسند اليه رأسه إلا هنا .

لقد تعب الخاطفون دون جدوى . .

اضاعوا وقتهم .

اذهبوا الى عين المريسية، فستجدوا التمثال واقفا ، وإذا لم تجدوه انظروا جيدا فهو واقف في البحر . . اما الخاطفون فلن تعثروا لهم على اثر ، لأنهم يخافون من عيوننا .

٨٣/٤/١٩

الواقع الذي وقع !

اللقاء الثقافي الذي عقد في تونس حول الديمقراطية ، (الحمامات ١ - ٣ نيسان ١٩٨٣) كان نموذجا لزمن التردد والتلعثم الذي تعيشه الحياة الثقافة العربية . فلقد اكتفى البيان الختامي ، بالاشارة الى المشكلات العامة ، وتم تجاوز جميع المشكلات الملموسة ، من حصار بيروت الى الاعتقالات والسجون ، وكأن اللقاء كان مناسبة اخرى لتأكيد العجز عن تسمية الواقع وازمته .

والأزمة ماثلة وراهنة ولا تجد من يسميها ، أو لا تجد من يطرحها ، لأن طرح المشكلة كما قال الاقدمون ، يحدد اشكالية الاجابة عليها .

لقد وقع الواقع !

الواقع يقع على الرؤوس والأقلام ، والدور « القديم » الذي بدأ مع الدولة الحديثة ، حيث يكون المثقف هو السلطة او هو الناطق الجديد باسمها ، او حين يلبس هذا المثقف جزمة عسكرية ويذهب لاحتلال الاذاعة ، هذا الدور، قام العصر الاسرائيلي ، الحديث فعلا والعصري بشكل جدي ، بالغائه فبدت الأمور ملتبسة على بنية الثقافة العربية . كيف تفعل الثقافة حين تفقد تأثيرها على مراكز القرار السياسي ؟ هذا ما أشار اليه د . هشام شرابه ، أحد منظمي ملتقى « الحمامات » في حديثه الى السفير (٢٤ نيسان ١٩٨٣) حين دعا الى العمل الجدي والمؤثر ، وحين

ترك للقارىء حرية ان يفهم من كلامه ، ان المثقف العربي الحديث ، ما يزال طامحا الى لعب دور المؤثر على صناعة القرار العربي .

ولكن حين يقع الواقع على رؤوس المثقفين ، فهذا يعني ان القرار لم يعد يصنع في العواصم العربية . فهزيمة حزيران ، وما جرى بعد حرب تشرين ، ثم حرب لبنان الأهلية والحروب الأهلية المضمرة وشبه العلنية في العالم العربي ، ثم الاحتلال الاسرائيلي للبنان ، كلها وقائع في سياق واحد ، اسمه دفع المجتمعات العربية الى الاستسلام الداخلي والانهيار . وبهذا المعنى يصبح كل كلام عام ، كل كلام موجه الى السلطة او الى الرقيب ، لا معنى له ، يصبح جزءا من اللعبة القديمة التي لم تعد تثير في القارىء حتى الشفقة .

الهروب من النظر في الأشياء ، الهروب من فهم الهزيمة العميقة التي حدثت وتحدث على الأرض ، الهروب من فهم معنى التعرض لخطر الابادة ، معنى ان تكون المدن محتلة (إذا لم تحتلها اسرائيل يحتلها النظام)، هذا الهروب الدائم الى الامام ، يمنع عنا القدرة على ان نعيد فهم معنى الكتابة في الوضعية العربية الراهنة .

وفي الماضي القريب ، كانت الكتابة ممكنة في اطار التحريض . . الأهداف « واضحة » ، او هكذا قيل لنا . . في الماضي القريب لم تكن هذه الأهداف مكلفة . . نكتب ضد اسرائيل وليس عنها ، يكتبون ضد القمع وليس عن آليته ، ويمشي الحال ، تلاقي الكتابة بعض الرواج ويمتطي الشاعر منصة الخطيب .

أما الآن فلقد اختلفت المسألة ، صارت الأهداف اياها مكلفة ، لم يعد ممكنا الكتابة ضد اسرائيل دون مقاومتها ، ولم تعد مقاومتها ممكنة بالطريقة القديمة التيَ تتلخص في رثاء الشهداء ، لقد دخل الشهداء كل بيت ، صار

كل شيء يشبههم ، وصار الكاتب مطالبا بأن يبحث عن الحقيقة لا ان يخبرنا الحقيقة المتفق عليها ، صارت الكتابة عن الأهداف هي الكتابة عن الوسائل ، ولم يعد من الممكن الكتابة ضد القمع ، صار مطلوبا من الكتابة ان تمدح ، الكاتب المحظوظ هو من يقع على ممدوح مقبول او ممكن . . لكن المدح صار شرطا لازما فالقمع يدان في البلد الآخر ، كل البلاد صارت اخرى ، كل الأدانات فرغت من المعنى ، لا أحد يجرؤ ان يكتب او يقول تجربته الحقيقية ، لأن آلية القمع صارت من القوة والوقاحة بحيث انها تسحق قائل الكلام وتميت اللغة .

ثم يأتيك انعكاس كل هذا على المثقفين انفسهم ، صار المثقف يحمل في داخله ديكتاتورا صغيرا ، يلغي الآخرين ، يعبد المرآة ويعشق السلطة . لا يختلف مع الآخرين في الرأي ، يختلف معهم على الوجود ، كأن هذه الأرض العربية الشاسعة لا تتسع الا لظلاله المنحنية امام ظلال اسياده !

لم تعد هذه الكتابة ممكنة ، لقد وقع الواقع !

منذ المنعطف الانهياري الذي اتخذته الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٦ ، وكل شيء كان صامتا ، افترستنا الشعارات ، الى درجة اننا حين وصلنا الى ساعة الجد وصرخنا ، لم يستمع أحد الينا ، تركونا وحدنا نواجه الموت والشرشحة والابادة والتهجير .

والآن ، ما تزال اللعبة إياها ، وإلا كيف يجرؤ المثقفون على اللقاء ويخرجون كما فعلوا في تونس بهكذا بيان ! لماذا البيان إذا كانوا عاجزين عن الاشارة الى الاحتلال ، لماذا البيان اذا كانوا عاجزين عن القيام بنقد ذاتي لخطيئة الالتحاق بالسلطة ، لخطيئة الصمت المريب ، لخطيئة عدم الاشارة الى هزيمة كل القيم ، قبل ان تأتي اسرائيل وتذبح الناس .

ومع ذلك ، السؤال الذي يمكن طرحه لم يعد من الممكن ان يكون

عاما وغائما بالنسبة لنا في لبنان على الأقل ، فحين تكون مهددا بخطر الاستباحة اليومية ، تصبح السجون ، والمعتقلات ترفا لا معنى للكلام عنه .

السؤال المطروح هو كيف نستعيد قدرتنا على المقاومة ، او بعبارة أخرى ، كيف نؤسس لهذه القدرة .

جواب المقاومة ليس جوابا « ثقافيا » ، فعلى الأرض ، تتم المقاومة العارية ، مقاومة الموت المهيمن ، تجري هكذا وسط حصار محكم ، وسط آلة طحن القيم التي تتمثل في تفكك المجتمع الى طوائف ، كأن الطوائف صارت الى نهايات مشاريعها ، مجرد أدوات في يد الاحتلال ، ومع ذلك ، وسط ظلام شامل تضيء بعض الصرخات هذا الوادي ، فنكتشف اننا ما نزال نختزن قدرة ما ، قدرة لم يهدرها فساد الأنظمة وجبن امراء الحرب .

هذه الطاقة التي تتجمع ببطء تحتاج الى كتابة من نوع جديد ، لم يعد التبشير ممكنا ، ولم تعد الحقيقة جاهزة ، المحاولة الفعلية هي ان يتم البحث عن الحقائق وسط البحث عن البقاء . اي ان نقلب المعادلة الجاهزة وننهي هذا البحث الذي لا جدوى منه عن الفعالية الملتبسة . الكتابة تكون حيث التجربة ، لذلك تتعدد بتعدد الواقع وتتلون بالوان احتمالاته . من هنا يمكن ان ينشأ نسق كتابي جديد ، لا يستعيد شيئا ولا يقف على مراجع ثابتة ، انساق كتابية تنطلق من الغوص في التجربة المعاشة ، وتتحرر من وهم السلطة والتأثير ولعبة المهرج الذكي .

في التجربة اللبنانية ـ الفلسطينية المريرة ، تعود الأسئلة لتمتلك حريتها . والاسئلة تبدأ من إعادة النظر في التجربة ، من اعادة فهم الآلية التي دفعنا بها الى هذا النفق المظلم ، كي نفهم انطلاقا منها ، تجربة بدايات الخروج واحتمالات المقاومة التي تنمو .

فـالصدمـة الكبرى التي جـاءت مع الاحتـلال الاسرائيـلي يجب ان لا تنتهي الى الفة مبتذلة مع الواقع الجديد كما حصل في السابق خلال الحرب الأهلية . . نقاوم الألفة كي نتحاشى السقوط في رهان الموت . ومن هذه المقاومة تبرز الحاجة الى تجاوز اللعبة القديمة والمقترب الكتابي القديم .

والواقع يطرح اسئلته التي لم نضعها بعد ، والتي لن نبحث عن صياغة شكلية لها ، فالصياغة الفعلية تحتاج الى اعادة نظر ما نزال نتلمس عتبتها .

٨٣/٤/٢٦

كذاب وبطاطا !

الفورة المسرحية التي تشهدها بيروت الكبـرى ، كبرت الى درجـة ان المهتم بدأ يضيع بين « أخوت حتى النصر » ، ونصر الأخوت . بين الكذاب وغير الكذاب . . بين التحريض على اقفال احدى المسرحيـات لأنها تسيء الى الوحدة الوطنية (المقصود مسرحية « شي فاشل » لزياد الرحباني) وبين جمال الوحدة الوطنية التي حولت وكيل اعمال برتولت بريشت في لبنان الى مؤلف : « كذاب » ، وضعنا بين المؤلف والوكيل ، وبين الشطارة اللبنانية في الالتحاق بالمنتصر وبأي ثمن وبين الثمن الذي لا بد من دفعه من اجل ان يتحول برتولت بريشت الى مهرج وأحد دعاة الفولكلور !

اعترف منذ البـداية بتقصيـري الشخصي تجاه هـذه الفورة المسرحيـة العظيمة التي تجتاح بيروت الكبرى ، فأنا مأخوذ بدوامة المسرح الحي الذي يملأ البلاد ، ولا أعلم اية قوة شيطانية اغرتني بالذهاب امس لحضور جلال خوري في مسرحيته الرائعة « كذاب » ، التي عرضت أشهرا طويلة في سن الفيل ، ثم تقرر عرضها لمدة اسبوعين فقط في سينما اورلي . قلت يجب ان الحق حالي قبل ان تمر النهضة المسرحية من وراء ظهري ، هذا عدا عن أنني واحد من المعجبين الكثيرين بعبقرية جلال خوري ، كيف لا وهو متعهـد المسرح الملحمي ، ومسرحياته تعـاد ترجمتهـا الى اللغة الألمـانية ، وتمثـل في بـرلين . مسـرح ملحمي وبرلـين وحائط بـرلـين . قلت اعـظم شيء هـو الذهاب للتفرج على حائط برلين .

كما ان المؤلف ، كتب في الماضي البعيد مسرحية اسمها « وايزمانو بن غوري وشركاه » ، قلت نذهب للتفرج على المسرح المقاوم . نذهب الى المسرح الحقيقي ، خاصة وان جلال خوري الذي سبق له وأن ترجم مسرحية « شفيك » واسماها « جحا في القرى الأمامية » ، مستغلا سذاجتنا وحماستنا ، ذكي الى درجة أنه مرر حكاية كونه مؤلفا على الجميع ، انسانا المؤلف الحقيقي الذي يدعى بريشت . قلنا « شو عليه » ، اللبناني يستطيع ان يقنع بريشت نفسه انه هو المؤلف خاصة إذا كان موهوبا ومن عائلة محترمة .

قلت اذهب للتفرج على بريشت . تخيلوا بريشت لبنانيا ، وبدل حائط برلين هناك خطوط التماس ، ثم انهدم الحائط ، ونشأت برلين الكبرى .

هكذا ذهبت الى المسرح ورأيت العجائب ، فعلا انها لعبقرية ان يستطيع المؤلف ـ المخرج ان يضحك علينا لمدة ساعتين دون توقف .

المؤلف حر ، هو الذي يعيد كتابة التاريخ . وتاريخه صح لأنه عبقري . وفي تاريخه نشاهد الفلاح اللبناني الذكي الذي يبيع البطاطا والبيض وينجب كل سنة ولدا . كنت اتفرج واقول يا عيني على اللبناني كيف قاوم « الاحتلالات » ، ورفض ان يعطي الغرباء المارسيدس لكنني لم افهم سر كون الفلاح اللبناني لا يزرع سوى البطاطا . اين التفاح ؟ رمز الصحة اللبنانية . ثم تذكرت ان المؤلف من المانيا ، وانهم في المانيا يحبون البطاطا كثيرا . بطاطا وبيض برشت ، وخذوا على تأليف وحركة ملحمية ولحامين ومثقف مرتبط بأرضه وعاشق « لمرمورة » .

ثم يأتي الهجوم الاسرائيلي ويحرر الضيعة من الغرباء . هل لاحظتم كيف صور العسكر الاسرائيلي . شو هالتهذيب ، يحققون معك كأنهم يدعونك الى فنجان قهوة ، اما قصص التعذيب « وانصار » فهي دعاية يسارية .

ولا بد من ان يؤكد المؤلف على انتمائه الألماني عبر شرشحة اليساري اللبناني وعبر جلب واحد من جماعة بادر ـ ماينهوف الالمانية المتطرفة الى المسرح ! .

ثم تنكشف الحقيقة ، وينكشف المقنع عن كونه فلسطينيا ! اللبناني يتابع نضاله عبر البطاطا والبراءة ، اما الميليشيات فلا وجود لها .

هذا هو التاريخ ، ويقولون ان في لبنان ازمة لكتابة التاريخ ، جلال خوري وجد الحل : الحل الالماني ، لكن اين هتلر ؟ كنت كل الوقت انتظر هتلر ، لكن المؤلف حجبه لأن اولاد عمنا ينزعجون من ذكريات الأفران ، وهذا كرم اخلاق من المؤلف وحسن ضيافة ، ولأنه لا يريد تعقيد المسألة ، فرؤوسنا لا تحتمل اكثر من كيسي بطاطا .

يا عيني على الأخلاق .

خرجت من المسرحية مقتنعا . لقد اقنعني الكذاب بأنك تستطيع ان تكذب الى ما شاء الله ، وتستطيع ان تصنع مسرحا دون اي جهد فني ، وتستطيع ان تشنق بريشت وكل الفكر المستورد دون ان يرف لك جفن .

هذا الذكاء اللبناني الأصيل يستطيع ان يرتفع بك الى السماء السابعة ، ويبرهن على اننا شعب مسرحي اصيل وان المسرح أو المرسح (كما يقول سعيد عقل) وكل هذه الأشياء الجميلة هي جزء اصيل من تراثنا اللبناني العريق . لكني الوم المؤلف قليلا لأنه لم يبهرها ببعض الزجل والفولكلور وقليل من الدبكة .

أما الاخراج والحركة على المسرح فكلها خزعبلات مثقفين مستوردين قررنا التخلي عنها نهائياً ، فإذا كان مؤلف مسرحيات بريشت يتخلى عنها فلماذا ما يزالون في المانيا يتمسكون بها ؟ لا شك ان كذاب جلال خوري سيحل هذه المشكلة لاحقا .

لقد اقنعني هذا المؤلف المدهش باشياء لم تكن تخطر على بالي .

اقنعني بأن شركة « وايزمانو بن غوري » كبيرة وربيحة ، وان الذكي هو من يلتحق بها على بكير ، ومن يشقلب « تاريخه » بسرعة ويغير رأيه قبل ان يخسر رأسه أو شباك التذاكر . وان الكذب ملح الرجال .

كما اقنعني ، خاصة في تلك الذروة الدرامية الهائلة ، حين يتم الهجوم على المقنع ويكشف وجهه . اقنعني وأنا أرى المقنع ينكشف ، أن المقنع يستطيع ان يكون « مناضلا » سابقا على كل الجبهات كما انه يستطيع ان يكون مؤلفا ومخرجا وكذابا .

حين انكشف الوجه شعرت بخوف حقيقي ، وخفت ان يشير الكذاب بيده الي ، فهرولت خارجا من المسرح وأنا امدح البطاطا وعصر البطاطا .

٨٣/٥/٣

« تهويد » الفلسطينيين

حالة الرعب التي تجتاح المدنيين الفلسطينيين ، في المخيمات والمدن ، في الجنوب أساساً وفي الانفجارات الدائمة في بيروت ، تطرح على الجميع سؤالا سياسياً وأخلاقياً ...

لماذا هذا القتل ؟

لماذا هذا الانتقام الذي لا ينتهي !

لماذا ، يخرج الرجل من معسكر الاعتقال في « انصار » ليجد نفسه بعد يومين من خروجه مرمياً والرصاص يثقب جسده .

لماذا كل هذا الموت . .

والذين يسكتون اليوم يفقدون كل شرعية للكتابة والكلام . فالنقد الصاخب الذي علا بعد خروج المقاومة ، يخفت اليوم أو يغيب ، أمام مأساة قهر شعب كامل واذلاله حتى القتل .

في الجنوب ، مخيمات لا رجال فيها . . الرجال في المعتقلات أو قتلى .

في المدن ، بيوت يغادرها اصحابها ، في العمل عمال لا يستطيعون العمل لأنهم لا يملكون اجازة عمل . .

والقتل . . القتل يخيم بشبحه على كل شيء ، وفي كل مكان . .

كأن الموت لم يعد يعني أحدا . كأن الموت يستمر ويكبر ويبتلع الناس ،

ونحن نقف ونتفرج ونقول أن هناك أموراً اكثر خطورة تجري . .نكتب عن الاتفـاق وعن حـرب الجبـل وعن الأدب والثقـافـة ، ونجتمـع في اتحــاد الكتاب ، وننسى .

ننسى عيوننا . . نرى ، نشاهد الصور في الصحف ، وننسى فوراً . لا نترك للزمن ان يساعد على النسيان ، ننسى فورا ، ونكتب .

لكن لا الكتابة ممكنة ولا الحياة ممكنة حين نصبح شهوداً على هذا الموت المجاني والجنوني ، حين يدفع بنا الى صمت مريب ، حين ننسى أو نتناسى كل المبادىء ونغرق في سواد ليل الخوف أو الجبن أو الحزن، لا فرق .

أمامنا جميعاً تتم مأساة مرعبة ، نقرأ في الصحف اعلانات لاصحـاب محلات تجارية تريد أن تقول ان المالكين ليسوا فلسطينيين . . نشاهد صور القتلى ، نقرأ بيانات التهديد التي تنشر مجتزأة في الصحف ، ولا نجـد غير صمتنا .

المأساة التي تتم فصولها في لبنان اليوم ، هي اكثر هولا من مأساة عام ١٩٤٨ . . انها محاولة ابادة وسحق . عام ١٩٤٨ خرج الفلسطينيون طردا من بلادهم ليعيشوا في مخيمات العالم العربي بوصفهم جزءا من هذا العالم ، اما اليوم فـإنهم يعاملون كيهـود أوروبا في فتـرة الاضطهـادات الكبرى . الفلسطيني اليوم يصير كيهودي الأمس . يتحمل كل الأخطاء والخطايا . يهاجم كشعب كامل، يشعر انه لا يملك أي مكان يلجأ اليه . الفلسطيني اليوم لا يضطهد من اسرائيل وحدها، بل يضطهد من الجميع . . كأن العالم العربي يستحيل الى صورة مصغرة ومقلوبة ومضحكة عن أوروبا الثلاثينات . .

« تهويد » الفلسطينيين هو محاولة ابادتهم .

وما يجري اليوم في لبنان ، وفي الجنوب ، هو استكمال منظم ومدروس لمذبحة المخيمين . . كأن شهوة القتل لا تنتهي . . وكأن هذا العالم العربي

يريد تبرئة نفسه من الكارثة عبر القضاء على آخر الشهود وتحطيم ارادة الحياة فيهم .

كأن المعركة ضد المدنيين هي استكمال لمعركة اكبر من معركة بيروت ، معركة الابادة المنظمة والانتقام اللامحدود .

غير أن ما يجري يهدد بتحويل الفلسطيني الى ضمير كل واحد منا .

فليس من السهل ان تباد ذاكرتنا وحياتنا ، وأن نغمض عيوننا هكذا ، كما يريدون لنا أن نغمضها، وأن تستباح ضمائرنا . .

الفلسطيني اليوم ، هو مسؤوليتنا الأخلاقية والانسانية والسياسية والفكرية .

وفي جو الفلتان الذي يخلقه الاحتلال الاسرائيلي في المناطق التي يسيطر عليها جيشه المتحضر ، تجري اكبر عملية ابادة ، بلؤم « الخواجات » الذين استفادوا من درس المخيمين ، فحولوا المذبحة الى ممارسة يومية ، بدل أن تتم دفعة واحدة .

ثم هناك سؤال كبير ، علمتنا اياه الحرب الأهلية ، ويعلمنا اياه التاريخ اذا عرفنا كيف نقرأ : هل يمكن ابادة شعب ؟

ما يجري سوف يخلق مرارات لا تمحوها السنوات ، سوف يخلق حالة بدائية من الثأر الذي لا حدود له . ما يجري هو اعلان عن نهايتنا كشعوب وتحولنا الى قبائل همجية .

لذلك نسأل . .

لذلك يجب ان يرتفع صوت الجميع .

لذلك يجب أن نملك جرأة الرؤية وعدم اغماض العيون .

« التعريب » والترهيب

المفارقة المحزنة في هذا العصر الرمزي ، هي ان الأمور تختلط والرموز تتداخل والجمهور يضيع . فالكلمات تفقد معانيها والمعاني تفتقد الى الكلمات ، والمواقع تنزاح والطوائف تتصالح وتتقاتل في الآن نفسه ، والجميع ضد الاحتلال ، والاحتلال مع الجميع وضدهم . . . والى آخره من العجائب التي نشهدها في نهاية هذا القرن ، وكان أجدادنا قد شهدوا مثيلها في أواسط القرن الماضي . لكن التاريخ لا يعيد نفسه ، نحن نعيده . وهنا يكمن سر العبقرية اللبنانية ، وسر الأعجوبة التي بدأت مع اجدادنا الفينيقيين عندما صنعوا أساطيل الفرس ، ولم تنته فصولها بعد مع احفادهم الذين بدل ان يصنعوا الأساطيل صاروا يستدعونها بمجرد ان تتحرك اصابعهم .

ويقال انها تؤلف ولا تؤلفان ، والله أعلم .

لكن ليست هذه هي المسألة .

المسألة التي لا بد وأن تكون قد لفتت انظار الجميع ، وتجاهلها الجميع ، هي السرعة التي تتم بها عملية « تعريب » لبنان .

يكفي أن نتفرج على التلفزيون ، وخاصة على نشرة الأخبار ، لنعتقد ان الأرض قد انزاحت ، واننا انتقلنا من بيروت الى العواصم العربية « الشقيقة » . اللهجة نفسها ، التعابير نفسها ، وجه المذيع وقلقه وخوفه

من أن لا يكون قد مدح بما فيه الكفاية . المقدمة الضرورية للخبر ، طريقة صياغة الخبر . و« التعريب » لا يتم على مستوى الأخبار أو في التلفزيون فقط ، فهو يطال جميع أوجه حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية . انظروا مثلا الى سنة جبران ، والى الاهتمام الرسمي بالثقافة الجبرانية . جبران نفسه ما كان يحلم بهذا المجد . فالسنة الماضية كانت سنته ، وهذه السنة هي سنته ويقال انه يجري اعداد لمشروع خطة سنوات خمسية خاصة بجبران . . كي يتعلم الأدباء الدرس البليغ ، وهو أن التمرد والصراخ والكتابة لا تؤثر على أحد ، وان الدولة قادرة على ان تحول التمرد ضدها الى مناسبات اجتماعية .

وجبران ليس نموذجاً فريداً ،انه مجرد نموذج . فغداً أو بعده سوف تنشأ وزارة للثقافة وتقليد انشاء وزارة الثقافة ، هو كما تعلمون تقليد « عربي » عريق . ومهمتها لا بد وأن تكون مشابهة لمهماتها في الأقطار الشقيقة : مصادرة الثقافة وتحويل المثقفين الى موظفين شبه متقاعدين يمارسون هواية الهتاف .

والى جانب وزارة الثقافة ، هناك العديد من المشروعات ، كتطهير الجامعة اللبنانية من الأساتذة الذين يحملون الأفكار المستوردة « فنحن » على قدرانفتاحنا التجاري واستعداداتنا لاستيراد البضائع حتى من «نيوزلندة» تمهيداً لاعادة تصديرها الى الدول الشقيقة ، لسنا على استعداد للقبول بالافكار الغربية المستوردة ، فالأفكار يجب أن تكون صناعة محلية مئة بالمئة ، ولا بأس من العودة الى تراثنا القديم ، ونبش الزجل والقراديات وتمجيد الضيعة واعلان الكراهية للباطون .

والمشاريع تكاد لا تنتهي فلقد بدأ فرض الرقابة على الكتب . وهي رقابة ما تزال دون مستواها في الأقطار « الشقيقة » ، لكن علينا أن ننتظر قليلاً ، فآمالنا لن تخيب ، خاصة اذا علمنا ان فرض الرقابة على بعض

الروايات والدراسات لن تؤثر على صناعة الكتاب المزدهرة . فالكتاب الصالح للتصدير الى الأقطار الشقيقة هو كتاب التراث . الكتاب المجلد الذي يكتب عنوانه باللون الأصفر ، كتقليد على الطريقة اللبنانية لماء الذهب التي كانت تخط به المعلقات السبع . نعود الى التراث أو التراثات والحضارات وتعتز جميع الطوائف وتفرض الرقابة في الآن نفسه . . . وهنا يكمن الفرق بين « التعريب » اللبناني وغيره من « التعريبات » العربية ، ففي لبنان رقابة وعز ، اما في غيره فلا عز ولا يعتزون أو يعزون .

و« التعريب » المتسارع يتم على مختلف الأصعدة في بيروت الكبرى ، من تعليق اليافطات الى تعليق المشانق .

لنأخذ مثلا قضية الفلسطينيين المدنيين ، الشكوى كانت تقول انهم يعاملون في لبنان بطريقة افضل من معاملتهم في الأقطار الشقيقة : الحل طبعاً هو « التعريب » . هكذا مثلاً لم يعد أحد يجرؤ على القول ان لبنان مقصر ، فبعد أيلول اللبناني ، صار لبنان ، كعادته ، طليعة العالم العربي. اما على مستوى الحياة اليومية ، فلبنان يستطيع ان يفتخر بان القانون يطبق بحذافيره وزيادة ، وعلى اللاجئين ان يرتعدوا قبل التفكير بالقيام بأية حركة .

هناك أيضاً مسألة الهيبة ، السلطة هي أولا وأخيراً هيبة . ألم ندرس في المدارس ان لحية المير بشير الشهابي ، كانت سببا في استقرار الأوضاع نتيجة الهيبة التي كانت تفرضها ، الهيبة بدأت تعود اليوم ، وهي هيبة لا تختلف كثيراً عن الهيبات الشقيقة ، انها اختها .



هذا الترهيب المتسارع يأخذ أبعاده الحقيقية من انشباك الحرب الأهلية المستمرة في ظل الاحتلال الاسرائيلي مع الاتفاق ودعوات الانفتاح على العالم

الى اعادة صياغة لغته ومنطلقاته كي يؤسس للمعارضة ، ويتكون كمعارضة حقيقية لهذا العصر الاسرائيلي الذي يقدم لنا على طبق عربي ، معارضة للترهيب والانحطاط .

٨٣/٥/٢٧

من أجل أن لا ننسى

الذكرى السنوية الأولى للاجتياح الاسرائيلي للبنان ، التي احتفل بها الجنوب اللبناني المحتل برفع الأعلام السوداء واعلان الاضراب العام ، ليست كغيرها من « أيام » العرب في العصر الحديث ، أي انها ليست ذكرى هزيمة مرت في يوم واحد أو في عدد قليل من الأيام ، انها ذكرى حدث دام أشهرا وحصار طويل لبيروت، ومذابح . وهي لذلك ، ليست كصفحة الذكريات التي يمكن أن تطوى كورقة وترمى جانباً . واذا أردنا الدقة ، فان الحدث الذي بلغ ذروته خلال اجتياح الصيف الماضي ، هو محصلة سنوات طويلة من الحروب ومن الأفق العربي المسدود .

ولأنها ليست ذكرى يوم واحد ، ولأن الحرب الاسرائيلية على لبنان والعرب ، تبدو منذ فترة طويلة وكأنها تخاض من طرف واحد ، حيث يقوم الطرف الاسرائيلي باعداد الشروط الملائمة لحربه دون أن تقوم ضحاياه ببناء خطة للمواجهة . فان هذا الصيف يدعونا كي يكون مناسبة لمواجهة التجربة الدموية التي خضناها ، ويدعونا الى أن لا نعامله كما عوملت الهزائم السابقة ، أي كمناسبة للبكاء والقاء جميع التبعات على الأعداء ، الى درجة ان تقاليدنا البكائية هذه اصبحت عائقاً حقيقياً أمام كل تفكير .

ومن أجل ان تكون المراجعة حقيقية ، من أجل ان لا نسقط في اللغة السائدة التي تريد شطب تاريخنا ، من اجل ان تكون مراجعة تستفيد من الدروس ولا تتعلق بخيوط الوهام ، من أجل كل ذلك يجب أن لا ننسى .

يجب أن لا ننسى ان اسرائيل قامت بالقوة وعلى انقاض شعب كامل ، وانها لا تستطيع الا ان تكون اداة للقوة وسيفا مسلطاً على المنطقة في سبيل قهر شعوبها واستعمارها . دولة قامت على انقاض شعب كامل ، لا تستطيع ان تعطي الآخرين دروساً في العدالة والسلام ! واللؤم هو ان منطق القوة المنتصرة بدأ يفرض لغته ، الى درجة بتنا معها نخشى أن يتم الاستيلاء على لغة الضحايا بعد ان تم الاستيلاء على بلادهم .

يجب ان لا ننسى ان الحرب الاسرائيلية على لبنان بدأت قبل أن تبدأ . . وانهم لجأوا الى استخدام جميع الثغرات الناجمة عن فوضى القيادة والمجتمع خلال الحرب الأهلية ، من اجل احداث هذا الاختراق الهائل في الجسم اللبناني .

يجب ان لا ننسى ، انه خلال ايام الصيف الماضية ، حولوا لبنان وعاصمته ومدنه وقراه الى محرقة كبرى، وانهم جرفوا البيوت بالجرافات وهدموا البنايات على رؤوس ساكنيها ، انهم عطشوا المدنيين واجاعوهم وقتلوهم ، واقتادوا الآلاف معصوبي العيون الى معسكرات الاعتقال . . . وانهم لا يزالون يحتلون أرضنا ويعتقلون .

يجب ان لا ننسى ، ان خلف لغة الضحية تكمن لغة فعلية اخرى ، لغة تبرر كل احتلال وكل قتل ، باسم عقدة الخوف وعقدة الاضطهاد . وان هذه اللغة الثانية هي اللغة الأكثر خطرا ، لأنها تعطي قدرة لا حدود لها على ارتكاب الجرائم دون الشعور بأي عقدة ذنب . ولغة الخوف الصهيونية هذه بدأت تجتاح مجتمعنا من الداخل ، فالكل خائف والكل يبرر لخوفه ارتكاب أي شيء !

يجب أن لا ننسى أن انتصاراً عسكرياً، مهما كبر، لا يستطيع ان يحيل الخطأ صواباً أو ان يجعل التاريخ ممسحة فالمسألة اللبنانية هي في جوهرها

مسألة فشل طبقة اجتماعية في قيادة المجتمع الى الوحدة . وقاد هذا الفشل في مراحل لاحقة الى تعريض الوجود الوطني للخطر حين هددت مصالح هذه الطبقة . . الانتصار العسكري الذي يقوم اليوم بقلب ميزان القوى ، لن يكون في مستواه اللبناني اكثر من دليل جديد على العجز الداخلي المزمن عن فهم درس الواقع . . ولم يقد الا الى اشعال حرب أهلية جديدة . فبعد سنة من الاحتلال ما نزال في جحيم الحرب الأهلية الداخلية التي صارت عبئاً حقيقياً على الوجود الوطني .

يجب أن لا ننسى ان الشعب الفلسطيني هو الضحية . . لذلك يجب ان نكون قساة على أنفسنا اذ كيف سمحت الضحية لنفسها ان تساق الى المذبحة وهي محاطة بكل هذا التردد السياسي والأخطاء .

ويجب ان لا ننسى ان ارواح القتلى تحوم فوق هذا البحر الأبيض الشاسع ، وان اصواتهم التي يمتلىء بها الليل هي اصوات الضحايا الذين دفعوا وحدهم ضريبة الهزيمة بعد ان كانوا وقوداً للهزيمة الكامنة في الهزيمة .



حين نتذكر ولا ننسى ، نستطيع في ذكرى الاجتياح الاسرائيلي ان نرفع صوتنا الغائب والمغيب ونطرح أسئلتنا .

السؤال ليس لماذا ، بل ماذا حصل ؟

اذا عدنا سنة الى ما قبل الاجتياح . . تلك السنة المرهقة من الانهيار الداخلي ، اذا عدنا الى تلك السنة الغامضة ، وقرأنا الصحف ، نصاب بالدهشة والحزن كيف سمحنا للذي جرى بأن يجري كيف تركنا الهزيمة تضربنا من الداخل . . . ماذا جرى ولماذا سمح له بأن يجري . . .

ليست المسألة رفع اصبع الاتهام ، فالمتهمون ، في هذا الزمن العربي ،

هم المتهمون ، وأصواتهم تتشابه ، الى الحد الذي ضاع فيه الاتهام عن أهدافه . .

نعود بالذاكرة لنكتشف ، حروباً داخلية لا معنى لها . . وسكوتاً اجتماعيا سياسياً عن كل ما جرى وما كان يجري . . احياء تتقاتل . . قرى تتقاتل وتقصف ، مدن شبه مستباحة ، سياسة لا علاقة لها بالسياسة. كانت سنة التردد القصوى حيث تم سلب الارادة الوطنية كل قدرة على التعبير عن نفسها ، أو على الاحتجاج .

نسأل ماذا جرى ونكتشف ان القتل والخطف ما عاد لهما من مبرر سوى افقاد السياسة كل مبرر ، والانتماء الوطني كل معنى . . وان سياسة الأنظمة التي اجتاحت لبنان كانت تؤسس لتسليمه لاسرائيل ولتحويله في الوقت نفسه ، الى نظام عربي شبيه كأن ملوك الطوائف لم ينجحوا الا في تحويل مجتمعنا الى طوائف للملوك ، وجاءت اسرائيل على انقاض كل شيء .

حين نتذكر كل ما جرى ،نعجب بالإرادة الشعبية التي استطاعت بعد أقل من سنتين أن تتماسك وتعلن اضراباً عاماً في الجنوب بأسره ، نعجب بصيدا التي رفعت الأعلام السوداء بعد كل ما جرى ، ونزداد ايماناً بـانـنا لم نهزم بل قادونا الى الهزيمة بسلاسل الأخطاء وغياب الارادة الوطنية .



وبعد سنة من الاجتياح نسأل ، لماذا ما تزال الأمور تتراوح بين الكلام الذي فقد كل معنى والعقل المغير الغائب ؟

لماذا تجري اضاعة الدروس التي تعلمناها باجسادنا ؟ لماذا ما نزال في اللغة القديمة لا نخرج عليها ، ولا نبحث عن فعل جديد وكلمة هي الفعل حين تكون جديدة ؟

بعد سنة من الاجتياح ، لم نعد نملك سوى غريزة الحياة فينا . لم نعد

نملك سوى ان نتمسك باجسادنا المهددة بـالتفكك ، سـوى ان نبحث عن بداية جديدة ، لن نأتي قبل ان نعلن نهايـة حاسمـة للخطأ الـذي افترسنـا ويفترسنا .

واعلان النهاية ليس مسألة ذاتية، انه محصلة تراكم التجربة الجديدة التي تنمو ، والتي لا نخاف عليها الا من السقوط في شرك التفاؤ ل الجاهز ، وفي منقلب التوازن اللامبدئي الذي يسرقها صوتها ويحاول ان يستولي عـلى احتمالاته .



بعد سنة من الاجتياح ، هل الكتابة ما تزال ممكنة ؟

لم يعد الصراخ ممكناً ، لم تعد اللغة القديمة ممكنة . . ولكن ، كيف ، لماذا ، لقد صمتنا كثيراً عن انتهاك حريات الآخرين حين كان وهم حريتنا مصانا .

هل نستطيع ان نكتب قبل ان نعيد اكتشاف الحرية وكونها اساس كل مقاومة وكل فعل ؟

وهل ما نزال قادرين على اكتشاف نقطة الضوء هذه واضاءتها قبل ان يبتلعنا ظلام الاحتلال والانحطاط ؟

هل كلماتنا ستعود الينا ونحن نعيد اكتشافها وسط القمع القادم ؟

بعد سنة من الاجتياح نسأل ونعلم ان الجواب لا تصوغـه سوى ارادة من يقاوم الاحتلال ، فيرسم بذلك أفقاً جديدا .

٨٣/٦/٩

موت الرّمز

خليل حاوي ينتحر .

شارون يصل الى محيط قصر الرئاسة في بعبدا .

وقف إطلاق النار ، والجيش الاسرائيلي لا يتوقف عن إطلاق النار على بيروت .

التلفزيون الاميركي يعلن نهاية الحرب في لبنان واقتراب ساعة استسلام الفدائيين .

صور الاسرى الفلسطينيين واللبنانيين تملأ شاشات التلفزيون في العالم. طوابير الرجال المعصوبي الأعين . ارقام الاسرى ترتفع الى الآلاف . الجندي الاسرائيلي يقدم الخبز لمجموعة من الاسرى المعصوبي الأعين والجالسين على الأرض . الجندي الاسرائيلي ينحني ، الاسير لا يرى ، لكنه يشير برأسه الى انه لن يأخذ كسرة الخبز ، الجندي الاسرائيلي يرتبك امام الكاميرا ، ثم يتابع سيره .

بيروت تحاصر .

دورة المونديال تكتسح اهتمام الناس من المحيط الى الخليج .

العثور على طفلة في الخامسة من عمرها وإعادتها الى ذويها بعد ان كانت قد خطفت منذ ثلاثة اعوام وبيعت الى عائلة في كاليفورنيا . إحصاءات

مرعبة عن إعداد الأطفال المفقودين بغرض البيع في الولايات المتحدة .

« أي تي » ، الرجل القادم من الفضاء ، يدخل الى جميع البيوت ، ويتحول الى دمى من كل الأحجام والألوان .

ناطحات سحاب مكيفة مركزيا سوف تبني في الجزيرة العربية كمرائب للسيارات .

إلى آخره . . . .

ليس هناك من علاقة بين الخبر الأول والخبر الأخير ، او بين الخبر الثاني والخبر السابع ، او بين وقف اطلاق النار والطفلة التي عثر عليها في كاليفورنيا ، لكن خليل حاوي انتحر وشارون وصل الى محيط القصر الجمهوري ، ومجلس النواب اللبناني يصادق على اتفاقية شولتس باكثرية كبيرة وإلى آخره . . .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينتحر فيها خليل حاوي ، لكنها كانت الأخيرة . اما لماذا . . فان السؤال يستدعي اجوبة لها علاقة بجميع التفاصيل التي تندرج تحت اسم واحد : موت الرمز .

كان خليل حاوي مع مجموعة شعراء جيله يحاول ان يعلن قيامة الرمز . من « الجسر » التي بشرتنا بالشرق الجديد الى العازر الذي أراد له قيامة اخرى مختلفة . كأن الشعر في الخمسينات وما تلاها حاول ان يمثل حيز الثقافة العربية عبر استعادة القصيدة « الكاملة » المتعددة الاغراض ، ليعلن من خلالها « الانبعاث الحضاري » .

لكن الرمز يموت .

« كسيح وما من مسيح » ، يصرخ السيّاب على فراش المرض ، بعد ان غادرت عشتار شرفتها ودخلت الى الصمت .

« هذه سجادة السلاطين عكازة النبي » ، يقول ادونيس مع مهيار ، وتموز يموت قبل ان يرى عدوه .

الرمز يموت .

من أم كلثوم الى ام كلثوم ، غابت الاصوات ، والشاعر المغربي يشتم ام كلثوم ، وام كلثوم تموت .

لكن شارون يركب سيارة الجيب العسكرية ويصل الى بعبدا ويحاول ان يمثل دورا بطوليا على موظف البلدية في البلدة . والطائرات تنتشر فوق سماء بيروت . . . والمفرقعات القاتلة يراها آلاف المشاهدين وهم يأكلون الهمبرغر دون ان يصابوا بأذى .

وخليل حاوي يذهب بصمت وسط ضجيج الطائرات . لماذا اختار ان ينتحر ؟ . . ربما من أجل ان لا يعطي للخنزير فرصة قتل تموز ، ربما كي لا يسمح لأحد بالبكاء . . ربما لأنه سئم اللعبة التي لا تعطينا سوى الهزائم . .

لكنهم في اسرائيل يعلنون عن موت ٥٠٠ جندي اسرائيلي منذ بدء اجتياح لبنان ويبكون ، يستكثرون ٥٠٠ قتيل في سبيل احتلال بلد كامل . يريدون احتلالنا دون خسائر ، كأن الحرب لعبة مفرقعات . .

فضيلة شارون انه يقتل الرمز الآخر . حاول ان يتحول الى ملك وان يصير هو الرمز ، فشرشحنا وشرشح الرموز . ففي عصر الحروب الحقيقية لا مكان للرموز . . . « ملك لبنان » كما اسماه بيغن ، سقط قبل ان يضع تاج مخيمي شاتيلا وصبرا على رأسه .

ومع ذلك ، يصادق النواب على اتفاقية شولتس .

ومع ذلك ، يتحدثون في الاذاعات المحلية عن « الاعتداءات » على الجيش الاسرائيلي في لبنان .

ومع ذلك ، ما يزال الشعراء يكتبون في اغراض المدح والهجاء والرثاء والفخر ، ولا ينسون الغزل .

قيل لنا ، ان بعضهم رشق الجيش الاسرائيلي بالرز ، وان الجنود المتعبين كانوا يعرفون ان هذا الرز صودر وهو في طريقه الى بيروت المحاصرة . لكن لا مكان لعواطف الشفقة في الحرب . في الحرب عاطفة واحدة ، النصر وكبرياء المنتصر .

لماذا اذن طال عليهم الزمن في لبنان .

« سلام الجليل » يمتد ويحول بيروت الى انقاض ويقود الى موت الجنود الاسرائيليين .

الرز توقف عن التساقط فوق خوذات الجنود . الدبابات لا تتوقف عن اطلاق النار على الأشجار والحيطان والسيارات . والجنود يذوقون طعم تراب الجنوب اللبناني .

ونحن لا نبكي على الرمز .

ما نزال نحلم بالشرق الجديد ولكن دون اوهام جديدة .

نقرأ عن سنة مضت ، عن حزيرانات تشبه هذا الحزيران ، عن قتلى في معسكر « انصار » ، عن اعتقالات جماعية في الجنوب .

نقرأ ونتعلم كيف نهرب من معسكر « انصار » وكيف نتهجى ابجدية مقاومة الاحتلال .

١٤/٦/٨٣

عن مركز الابحاث

في الوقت الذي تتصاعد فيه الاشتباكات في البقاع ، وتتم أخر فصول ابتلاع منظمة التحرير ، تقوم السلطة في بيروت باغلاق مركز الابحاث الفلسطيني واعتقال مديره ، صبري جريس .

لعل حدث بيروت هو الأكثر اهمية ودلالة . فاشتباكات البقاع كانت متوقعة منذ عام ١٩٧٦ ، حين لم ينحسم الواقع السياسي والايديولوجي إلا على شكل تسويات مؤقتة ، وحين بدأت الهزيمة تلوح في الأفق العربي . اما اغلاق مركز الابحاث ، فكان مطلباً اسرائيلياً منذ بداية السبعينات مع موجة التفجيرات والقصف بالصواريخ والسيارات المفخخة التي تعرض لها هذا المركز وللتذكير فقط ، فان مركز الابحاث اصدر مئات الكتب والكتيبات التحليلية حول اوضاع اسرائيل ،مما دفع بكبيرالمستعربين الاسرائيليين حركابي ، الى القول ، في معرض تعليقه على مستوى مجلة « شؤون فلسطينية » ، ان اسرائيل لا تملك دقتها وعلميتها في متابعتها لأوضاع الفلسطينيين .

ومع ذلك يقفل مركز الابحاث بشكل رمزي ، بعد ان تم تدميره على ايدي واضعي المتفجرات الحقيقيين حين احرقوا مبناه منذ ثلاثة اشهر ، واحدثوا مذبحة جديدة تضاف الى مآثر ابطال سلام الجليل التي لا تعد ، خاصة ان الابطال إياهم قاموا خلال احتلال بيروت بنهب مكتبة المركز وسرقة ارشيفه .

التوقف امام اغلاق المركز، هو توقف امام مسألتين :

المسألة الأولى وترتبط بالوضع الفلسطيني ، فعندما يتم اغلاق اكبر انجاز علمي - ثقافي فلسطيني بمثل هذه البساطة ، ووسط هذا الصمت المريب ، فان هذا يعني ان التواطؤ الكبير من اجل الاجهاز على ما تبقى من الشخصية الثقافية الفلسطينية قد وصل ذروته . كأن تهويد الأرض وابتلاعها لم يكونا كافيين ، إذ المطلوب اليوم مصادرة العقل وإبادة التفكير .

ألا يثير اغلاق المركز اسئلة كبرى على الذين يتقاتلون في البقاع ؟

ألا يخيفهم شبح الابادة المرتسم في السماء العربية ؟

المسألة الثانية ، وتتعلق بمصير الحريات الديمقراطية في لبنان ، ومصير الحياة الثقافية في بيروت تحديدا . فبيروت لا يمكن تلخيصها باعتبارها متجرا وبنكا ووجود مراكز كمركز الابحاث فيها ، وكونها مكانا وزمانا يلجأ اليه المفكرون العرب المضطهدون هو الذي يعطيها المعنى ، لأنها بذلك وبفضل عمل مثقفيها تحولت الى مختبر للثقافة العربية . لهذا قاومت حين احتلت ، ولهذا نهضت بعد كارثة الصيف الماضي . اقفال مركز الابحاث يعطي لبيروت صورة مختلفة ويجردها من احد اهم عناوينها ، وينذر بتحويل مثقفيها الى شهود لتصفية الثقافة .

إقفال مركز الابحاث ليس حدثا عابرا .

غير ان هذا الزمن الذي يحولنا الى ضحايا يومية للقتل المجنون ، هذا الزمن الذي يدفعنا فيه العقل وغريزة الحياة الى التوجه جنوبا من اجل مواجهة الاحتلال ، فاذا بنا نجد انفسنا شمالا وسط حمى القتل والحروب والدمار ، هذا الزمن يريد ان يحول اهم الاشياء الى مجرد إحداث عابرة وتفصيلية ، يريد اخراج الناس من مناقشة مصائرهم ، كي يتم التلاعب بهذه المصائر .

ولاننا اخر الشهود ،

لاننا الضحية التي لم تقبل الموت ، فاننا نصرخ ، وننتظر من وادي الموت العربي صدى ولو صغيرا لصراخنا .

٨٣/٦/٢٤

المرأة والصورة

كانت وحيدة وسط جموع النساء ، حوالي عشرين امرأة وعشرين صورة ، ورجال اخذوا ولم يعودوا والصور من مختلف الأحجام والألوان : صورة كبيرة داخل برواز خشبي ، صورة صغيرة ، رجل بربطة عنق وشاربين ، رجل يبتسم ، رجل ينظر جانبيا ، رجل بالألوان ، رجل داخل إطار بني . رجال يجلسون او يقفون داخل صورهم ، والصور امامنا ، ونحن نرى وكأننا لا نرى .

لكن الصورة التي رأيتها كانت مختلفة ، المرأة بلباس اسود طويل ، على رأسها طرحة سوداء ، وتمشي صامتة خلف كل النساء . البعض يهتفن ، البعض ينظرن الى البعيد . . امرأة تقف امام الحاجز وهي تحتضن الصورة الكبيرة ، وهم يرون ولا يقولون شيئا . . منذ اشهر طويلة ، والنساء يحاولن ان يجدن أحدا يصغي الى صوت الحزن الذي يرشح من الصور . يتجمهرن امام سيارات المسؤولين ، يجتمعن ، يكتبن العرائض ، لكن لا احد يسمع ، او هم يسمعون ولا يجاوبون ، او هم نسوا ان المخطوف هو انسان ، وليس مجرد اسم نشر في احدى الصحف ، او صورة تحملها امرأة وتتظاهر في كل مناسبة ممكنة .

المرأة التي تلبس الرداء الأسود وتمشي خلف كل النساء ، لا تختلف عن الأخريات إلا في صمتها الدائم وفي الصورة التي تحملها . صورة صغيرة ، صورة باسبور معلقة على خشبة رفيعة ، المرأة تحمل الخشبة وتمشي ، لا

تلوح بالصورة امام أحد ، لا تتوقف ، تمشي كأنها لا تتوقف ، كأنها لا تريد من احد ان يرى الصورة . اقتربت من الصورة كي انظر الى عيني الرجل ، كانت عيناه مغمضتان ، لا لم تكونا مغمضتين ، كانتا مجرد عينين مفتوحتين على البياض ، لكن الوجه كان شبه ممحو ، ثم لم أعد ارى ، المرأة تقدمت وتجاوزتني . . لحقت بها وسألتها . . لا اذكر شيئا من اجوبتها . . الحقيقة انها لم تجاوب ، كانت ترد على اسئلتي بكلمات غامضة كأنها تمتمات صغيرة ، او كأنها الصورة المعلقة على الخشبة .

سألتها لماذا لا تحمل صورة كبيرة مثل الأخريات ،

قالت او افترض انها قالت انها لا تملك غير هذه الصورة ، قالت انها هربت من بيتها بعد ان اتت الجرافة ، حملت الأولاد ، حملت تذاكر الهوية ونسيت صورة زوجها الكبيرة المعلقة على الحائط ، ليست صورته بل صورة له معي ومع افراد عائلتي عندما تزوجنا ، وعندما رجعت لتأخذ الصورة كان كل شيء قد تهدم .

لم يبق عندي سوى هذه، وأشارت الى الخشبة والصورة الصغيرة . .

لكنها تخاف ، قالت المرأة انها تخاف على الصورة . . قالت انهم قد يكسروها ، او قد يسرقوها ، وماذا أفعل بزوجي ، اصبح بلا صورة ، ماذا تفعل امرأة بدون صورة . .

لكن الصورة بدأت تصبح قديمة قلت لها ،

لا يهم اعتقد انها قالت لا يهم ، إذا رجع سأمزق الصورة ،

وإذا لم يرجع ؟

إذا لم يرجع قالت انها لا تعرف ، قالت انها تحاول ان تجمع بعض المال ، لكن المصور يريد الكثير ، قال لها ان الصورة الصغيرة لا تنفع ،

تحتاج من اجل ان يتم اعدادها من جديد الى الكثير ، وانا ما معي مصاري ، انا افتش ، لكن معك حق ، يجب ان لا انساه او انسى صورته .

قالت انهم أخذوه ، هي لا تعرف اين ولا كيف ، فتشت في كل مكان ، تصور اني فتشت وذهبت الى كل المطارح ، ورأيت ، لكن لا احد يعرف ، الكل لا يعرفون شيئا عنه ، وانا لا اعرف ، يا ليته سافر ، كان يهددني بأنه سيسافر ويتزوج ، يا ليته تزوج ، على الأقل كنت مزقت الصورة . .

اسندت المرأة الصورة بالخشبة الى الحائط وحاولت ان تشرح لي . قالت انها تقبل ، تقبل ولن تنتقم ، يرجعوه كيف ما كان ، وأنا أقبله كما هو ولن نفعل شيئا ، تعبنا ، اريده ، وسأجلب احسن مصور وآخذ له صورة كبيرة . . قالت وحاولت ان تفهمني انه لا لزوم لكل هذه الأشياء لماذا اخفوه وحده هو ومجموعة من الرجال ، لقد أخفوا كل شيء ، كل شيء الآن صار مغطى ، البيت انهدم واختفى ، المدينة تقريبا اختفت ، لماذا اذن هو وحده يختفي من هذه المدينة ، لماذا يضعونه في الأقبية المعتمة ، اكيد تعب وجاع اكيد .

هي لم تقل شيئا ، كانت تقف مرهقة وتسند الصورة الصغيرة الى الحائط ، ثم رأيت الصورة وكأنها تنزل عن الخشبة ، كان الرجل محاطا بمجموعة من المسلحين ، عيناه تغطيهما فوطة بيضاء . الرأس يتدلى الى الأمام . قادوه الى مكان معتم ولم ينزعوا العصبة عن عينه ، ولم يسأله أحد سؤالا ، أخذوه الى الظلام ، حاول ان يقول لهم انه لا يريد شيئا ، يريد فقط أن يرجع الى البيت ، حاول ان يقول لهم ان القصف افضل ، ان الرجل لا يستطيع ان يسبح في بحر اسود ، حاول لكن لم يكن هناك احد كي يسمع صوته .

وهو ينزلق من الصورة ، وهو يقول للمرأة ان تتركه ينزل الى الأرض ، وهو يقول انه تعب من الخشبة التي سمروه عليها . . وهو . . لكنه لم يقل ، شيئا ، كان داخل صورته ، يبحث عن مرآة كي يرى وجهه ويرى عينين مفتوحتين ، قال لي انهم اغمضوا عينيه كي لا يروه ، وانه يستحق ان ننظر الى صورته ، لأنها تكاد ان تتحول الى مرآة تعكس صورة الجميع .

أخذت المرأة الخشبة ومشت مع النسوة ولم تتوقف كي تستمع الى اسئلتي ، لم تتوقف كي اقول لها شيئا ، فهي لم تعد قادرة على ان تسمع الوعود ، وانا لا احمل وعودا ، الوعد الوحيد الذي حاولنا ان نمسك به يكاد ان ينزلق في مستنقع الطوائف والتسلط والجنون . .

قلت للمرأة ، حاولت ان أقول لها ، وكانت بيروت تمتد على شاطىء أسود ، تحاول ان تنام تغمض عينيها وتدخل في صور الرجال ، تنخطف اليهم وتمسح الدم والماء الذي يتساقط من جنبهم ، وتنحني كي تلملم الحزن وتصرخ مع آلاف النساء وهن يحملن الصور ويدرن في شوارع المدينة ، وتمتلىء الطرقات بأصوات الضحايا .

كانوا حوالي عشرين امرأة ، كانت الصور في ايديهن المرفوعة . . وكانت هي ، تمشي وحيدة وتغمض عينيها على التماعة الحزن الذي يقفز من العينين ويحول الصورة الصغيرة الى مرآة نرى فيها وجوهنا .

٨٣/٧/٢٠

أمراء الحرب وفرسان الطوائف

المنعطف الذي ادخلنا الاحتلال الاسرائيلي للبنان فيه، اعاد المسألة اللبنانية الى جذرها التاريخي، اي الى اجواء أواسط القرن الماضي حيث اشتعلت حرب أهلية طائفية لمدة ١٩ سنة وانتهت الى ما إنتهت اليه من إنشاء نظام المتصرفية. ١٩ سنة من الحرب المستمرة والمتقطعة.. وها نحن بعد حوالي مئة سنة على ذلك التاريخ، ندخل في حربنا الأهلية المستمرة والمتقطعة عامنا التاسع، ولا مؤشرات حقيقية على إمكانية الخروج من المأزق.. بل على العكس ربما، فالجنوب مهدد بإحتلال دائم، ولبنان بحدوده الدولية التي ارسيت عام ١٩٢٠ مهدد بالزوال، لمصلحة سلخ اطرافه وترك وسطه لمصير دموي دائم..

كل المؤشرات تعزز هذا الاحتمال المخيف، لأن اية قراءة دقيقة للخطة الاسرائيلية وللمشروع الاستعماري الاسرائيلي تشير إلى أن إسرايل بحاجة إلى زمن لهضم إحتلالها للجنوب، وهذا لا يتوفر إلا عبر تأمين منطقة عازلة عن الجيش السوري من جهة، وبالاطمئنان الى ان المصير الفلسطيني يتعرض لخطر الانهيار الكلي.. المنطقة العازلة يجب ان تكون منطقة عدم إستقرار دائم، اي منطقة حرب اهلية مستمرة تكون اطرافها عاجزة عن تسوية حروبها وعاجزة في الآن نفسه عن إعلان التقسيم. وهذا يخلق لها منطقة خاضعة لنفوذها دون ان يكلفها ذلك شيئا.

هذه الاستراتيجية الاسرائيلية تواجه لبنانياً ، بشكل يدعو الى الحزن والأسى . هذا دون ان نتحدث عن المواجهة العربية الغائبة كي لا نقول المتواطئة ، ودون ان نتحدث عن مأساوية المصير الفلسطيني !

لبنانياً ، وباستثناء عمليات المقاومة الوطنية ، وباستثناء محاولات سكان المناطق المحتلة الدفاع عن وجودهم ، كل شيء يشير الى ان الاطراف اللبنانية سقطت او هي على وشك السقوط في فخ الحرب الأهلية . .

من أجل فهم هذا السقوط ، لا بد من ان نشير الى مسألة جوهرية ، هي اليوم غائبة كلياً عن النقاش السياسي ، هذه المسألة تتعلق بالتركيبة الطائفية وبمشاريع إعادة تركيب لبنان على أساس طائفي . عبر تغليب طائفة على الطوائف الأخرى .

التركيبة الطائفية قائمة على الطوائف كمؤسسات سياسية . لكن ، ما يغيب عن بال الجميع هو ان الطائفية السياسية لم تتكون تاريخياً إلابالتحالف أو الالتحاق بالمشاريع الاجنبية . اي إن الطائفة كإحدى الاشكال الاجتماعية القائمة على علاقات القرابة والنعرة الدينية ، لم تتحول الى جزء من المستوى السياسي إلا عبر الالتحاق بمشروعات سياسية اجنبية ، اي انها ذاتياً ، لا تستطيع ان تتحول الى قوة سياسية ، لأنها في الأساس لم تكن بقادرة على ان تشكل مشروعاً سياسياً كونها ليست شعباً مستقلاً . هذا الالتحاق بالغرب الاستعماري ، هو الذي سمح بتحول الطائفة او الملة الى كيان سياسي او شبه سياسي عشية حرب ١٨٦٠ الأهلية ، وصولا الى انشاء دولة لبنان الكبير .

هذا التركيب يجعل من الطوائف المختلفة عاجزة كليا على ان تشكل مشروعاتها السياسية المستقلة ، او عاجزة عن تحقيق طموحات تشكيل هذه المشروعات ، هكذا اندحر مشروع اعادة الامارة الشهابية واندحر مشروع يوسف بك كرم . وعوض المشروع المستقل ، انتهت حرب ١٨٦٠

عاجز عن ان يكون قوة هيمنة كبرى ، على الرغم من كبر حجم أداته العسكرية ، لذلك فهو يسعى الى الهيمنة عبر تفتيت الآخر . . وللأسف ، فقد قدم تراجع الحركة الوطنية العربية وتهافتها كل الأسباب والذرائع ، والامكانيات لمثل هذا الدور الاسرائيلي القائم على تسعير المذابح الطائفية .

إذا كانت مقدماتنا صحيحة، وهي ان الطوائف غير قادرة على التوصل الى تسوية عقلانية في ما بينها ، هذا دون ان نتكلم عن قدراتها على تحرير الوطن من الاحتلال ، فهذا يعني ان لبنان قد دخل نفقاً طويلاً من الظلام ، لأن الدول الكبرى ، التي ركبته خدمة لمصالحها ، لم يعد لها مصالح مباشرة في ذلك ، ولأن الولايات المتحدة ، هذا إذا افترضنا ان اميركا تريد وحدة لبنان لا تقسيمه وفقاً للافتراض الكيسنجري الشهير ، ليست في وارد الدخول في صراع مع اسرائيل ، حليفها الاستراتيجي الحقيقي الوحيد ، من اجل إعادة انشاء وطن للطوائف اللبنانية . . .

هل هذا يفسر لنا قليلاً هذه اللغة السياسية السائدة القائمة على التشبيح الوطني . . والتي لا تخفي سوى نعرة طائفية رهيبة تريد اقتناص الطوائف الأخرى وإخضاعها والسيطرة عليها ؟ .

هل هذا يفسر لنا ، كيف ان سياسة السيطرة الطائفية والحزبية والتصعيد الكلامي والقتالي ، هي التعبير المباشر عن بنى سياسية منحطة وعاجزة عن بناء الأوطان وتحريرها ؟

لكن الذي لا يخفى على امراء هذه الحرب وفرسان طوائفها ، هو ان هامش المناورة بات ضيقا الى ابعد الحدود ، وان القتال والاقتتال ، لن يصب بعد اليوم إلا في النهر الاسرائيلي الجارف . اي ان لعبة تسعير الحرب الاهلية التي اعادت سياسة الهيمنة فرضها على لبنان المحتل والمجزأ ليست في نهاية المطاف ، وعلى الرغم من كل الادعاءات ، سوى تفصيل اسرائيلي

يهدف الى تحويل لبنان الى ارض المذبحة الدائمة بعد ان تكون اطرافه قد سلخت عنه .

من هنا هذه الهوبرة السياسية التي يصاحبها انسداد الافق السياسي امام الجميع ، ومن هنا يأتي تحول الجميع الى اسرى ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، للعبة ليسوا هم إلا مجرد طرف هامشي فيها .

العودة الى تأكيد الطائفية لا تبني وطناً ، والادعاء ان « تعريب » لبنان على طريقة الحزب الواحد العربية الشهيرة يمكن ان يبني وطناً هو ادعاء وهمي ، لأنه لن يقود إلا إلى تفتيت ما تبقى ، وسوف يكون عتبة تفتيت العرب الآخرين .

المأزق الفعلي ، هو مأزق الخط الطوائفي الذي يثبت بعد مئة سنة من تجربته الدموية الأولى انه يقود الى لا شيء . . طبعاً قد نجد التبريرات او الأسباب لارتباط الطوائف بالأجنبي وللتهديد الدائم بأن «الكيان هو النظام» . لكن لا شيء يبرر ذبح شعب كامل من اجل اوهام الطوائف التي ليست في نهاية المطاف ، سوى التعبير عن انحطاطنا وخضوعنا للمستعمرين الاجانب ، ودوراننا في فلك المحتل الاسرائيلي .

ما يبشرنا به زعماء الطوائف وامراء هذه الحرب ، هو استمرار الحرب الأهلية الى ما لا نهاية ، والدفع الى مزيد من الارتهان لاسرائيل والقوى الاستعمارية الغربية .

بعد مئة سنة نعود الى اكتشاف الحقيقة نفسها ، وهي ان الأفق الشعبي الديمقراطي ، افق المساواة ورفض الامتيازات والاضطهاد ، هو وحده القادر على ان يعدنا بأمل الخروج من عصور القبائل الطوائفية . لكننا نكتشف هذه الحقيقة داخل دوامة خطر التفتت امام الاحتلال الاسرائيلي والانحلال العربي . كأن قدر لبنان ان يكون الضحية الأولى لهذا الزمن

العربي المتهاوي . .

اكتشاف الحقيقة يفترض اعلانها على الأقل . فنحن حين نرضى او نسكت عن سوقنا الى الاقتتال الطائفي الذي لا افق له ، نكون قد اسلمنا مقاديرنا لاسرائيل ، وقبلنا ان ندخل لعبة القتال الأهلي ونحن غارقون في المستنقع الصهيوني ، وقبلنا ان نتحول الى ضحايا تذبح دون هدف .

غير ان المأساوي ، هو ان فرسان الطوائف لا يستطيعون فهم اللغة العقلانية ، فهم اسرى طوائفهم ، وطوائفهم أسيرة الارتباط بالخارج ، والخارج يلعب لعبة الحرب الدائمة والتقسيم . . من هنا تأتي الطبيعة المأساوية والمدهشة للمقاومة الوطنية اللبنانية ، انها تقاتل عن الجميع وباسم الجميع . . لأن الجميع عجزوا عن القتال وصاروا كسحاء طوائفيتهم . . وهي الأمل ، إذا كنا ما نزال نجرؤ على ان نحلم بأمل ما .

وتحت نار القذائف ، ووسط الخطف والذبح والقمع والصراخ ، فاننا نريد ان يفهم امراء الحرب إننا إنفلقنا . . إنفلقنا من عجزكم ايها السادة ، إنفلقنا من الكذب . . . إنفلقنا ولم نعد نرى ، ازيحوا قليلا كي نرى عدونا . . إنفلقنا . .

هل مانزال نستطيع ان نحلم بأن تحيد الكتلة الشعبية الرئيسية في لبنان عن لعبة المذبحة الطائفية ؟

هل ما نزّال قادرين على مقاومة الاحتلال ، ومقاومة البنى التي سمحت للاحتلال بان يحتلنا من جديد ؟

٨٣/٧/٣٠

اميركا . . اميركا !

من يعرف اميركا . .

الجميع يعرفون اميركا . . كلهم يبحث عن اميركـا . . وأميركـا تحب الجميع . . من اكياس القمح والطحين الى النقطة الـرابعة الى المـارينز الى فيتنام . . وأميركا هي أميركـا . . انها الحلم بأرض بعيـدة ، الحلم بجبال ومستنقعات وهنود . . . وحين لا يستطيع الحالم ان يـذهب اليها تـأتي هي اليه ، وتدهشه . طائرات ودبابات وحرائق وسلام ومبعوثين من دين براون الى مـاكفرلـين مرورا بـاللبناني فيليب حبيب . . . والسـلام الاميركي هـو السلام الجميل ، هو السلام الذي يدخلك في الهـدوء الكامـل . . السلام الذي يشبه النوم والنوم الذي يشبه الموت . . . .

وأميركا التي نذهب اليها لا نجدها . . في أميركا لا وجود لاميركا . . هذا هو انطباع شخصي ولكنـه قد يكـون انطبـاعاً عـاماً . . لانـك داخل اميركا لا تراها ، فهي كبيرة جداً ومتنوعة جداً ومسلية جداً . . في اميركـا تنسى أميركا . . أمـا هنا . . فـأنت لا تستطيـع ان تنساهـا . . انت تحت ظلهـا ، أنت تحت علمها الجميـل ، تأكـل من خيراتها وتموت من خيـراتها وتتسلى بالنظر الى اسطولها الذي حول البحر الأبيض المتوسط الى بحر جميل مليء بالتكنولوجيا القادمة لادخالنا الى نور الحضارة . . .

وأميركا معها حق . .

هل تستطيع أميركا ان تترك لبنان يموت ويتفتت على يد قبائله . . كلا . . أميركا هي زعيمة العالم الحر ، والعالم الحر هو حر في أن يفعل ما يشاء ، يشعل الحرب الأهلية ويدعو الجيوش المحاربة كي تحارب ثم يأتينا بالسلام . . انه حر . . فالشعوب لا تتعلم إلا من كيسها ، وكيسنا من شدة ما تعلمنا صار مفخوتا . . . فجاءت أميركا . . علمتنا الدرس من كيسنا ، بحوالى مئة ألف قتيل ، وجاءت بالسلام . . والآن ، هكذا تفكر أميركا ، وهي حرة ولا لزوم للتذكير بأنها زعيمة العالم الحر، جاءت لتعطينا السلام ، ونحن قبلنا بالسلام لكنها لم تعطنا اياه ، ربما ارتأت ، وهي معها كل الحق ان ترى، اننا ما نزال بحاجة الى درس الجغرافيا ، فقررت تقسيم لبنان مؤقتاً ، كي نتعلم تطبيقياً معنى الجغرافيا واهمية الانهار من الليطاني الى الزهراني الى الحاصباني الى آخره . . . ثم تأتينا بمبادرة جديدة وبحرب جديدة ، ونكون قد ختمنا الدرس ونستحق الشهادة . .

ومع ذلك هناك من يعتقد ان أميركا لا تحبنا أو لا تسعى الى السلام . .

غير ان الموضوع ، ليس أميركا ، لكنه حكاية العنزة . . وبما ان الشيء بالشيء يذكر ، كما يقول صديقنا محمد برادة ، فقد انتقلنا بشكل عشوائي من حكاية بسيطة الى حكاية معقدة . . والقارىء سيسامحنا ولا شك ، لأنه تعود على القصف العشوائي الذي ينقل الناس من ارض الى ارض ويحيي ويميت . . المهم ، الحكاية التي استلفتت نظر المواطن الاميركي الذي يتفرج على التلفزيون ، وبالمناسبة ، ولأن الشيء بالشيء يذكر ، فالتلفزيون في أميركا لا يشغل مذيعين يبكون او تتهدج اصواتهم كما يحصل عندنا على الرغم من اننا نحاول تقليد اميركا ، لكن طبيعتنا الشرقية الموروثة ، تدفع بنا الى البكاء . . المهم ، المواطن الاميركي تفرج في التلفزيون وبكى على قصة العنزة اللبنانية . .

وتفاصيل القصة، ان رجال المارينز في خلدة قرب مطار بيروت

الدولي ، شاهدوا عنزة صغيرة تهرب مذعورة باتجاههم ، فكمشوها واحسنوا معاملاتها ، واعطوها السلام لأنهم شخصوا انها هاربة من حرب الجبل ، وصاروا يرضعونها بالرضاعات ، ويهتمون بضيافتها . . فرح الجنود لأنهم ادخلوا الطمأنينة الى قلب هذا الحيوان الجميل . . واعطوا العنزة اسما ، سموها « بيلي » . بدأت المشكلة حين اصدر قائد الوحدة الاميركية قرارا بمنع تواجد الحيوانات داخل القواعد العسكرية . . . وهنا بدأت المأساة . . ماذا سيكون مصير « بيلي » . . هل تترك لمصيرها وتعاد الى نار الجبل ام ماذا . . . وبعد اجتماعات لا تحصى ومفاوضات معقدة ، تقرر نقل العنزة الى حديقة الحيوانات في كاليفورنيا . . لا شك ان القارىء متأثر مثلي بانسانية القرار . . بالشهامة التي تفرض كلفة نقل تكفي لان تشتري مئة عنزة . . هكذا انتقلت العنزة مبجلة مكرمة الى قبرص ومنها بالطائرة الى مدينة لوس انجلوس . وفي المطار حدثت المأساة . . . سلطات المطار رفضت إدخال العنزة خوفا من التلوث ، ثم احيلت العنزة الى لجنة طبية ، ومنها أخذت الى المسلخ الآلي وذبحت واحرقت جثتها . . . اما السبب كما اشارت اليه اللجنة الطبية ، فهو ان العنزة قادمة من منطقة ملوثة ، ومن الأفضل عدم السماح لها بدخول الأراضي الاميركية ، وإحراقها ، حتى لا تنقل التلوث اللبناني الى اميركا . . . التلفزيون الاميركي اجرى مقابلات مع المارينز في لبنان الذين ابدوا حزنهم العميق ، كما قابل الطبيب وإلى آخره . .

مسكينة « بيلي » ، لا بد وانها نسيت اسمها العربي منذ فترة طويلة ، لا بد وانها فكرت للحظة وهي تحت السكين ان حرب الجبل اخف وطأة من هذه السكين التي لا ترحم ، وان حجارة الراعي اللبناني اكثر رحمة من رضاعات المارينز . . . لكن « بيلي » ذهبت ضحية سذاجتها وحبها للسلام . .

أنا لا اريد ان استنتج من حكاية « بيلي » أي مغزى سياسي . . اعوذ بالله من السياسة فهي لم تدخل شيئاً إلا افسدته ، كما قال الأقدمون . . لكني رويت حكاية « بيلي » لانني فعلاً عندما علمت بقصتها حزنت على حزن الجنود الذين ربوها ، فالجندي الاميركي مظلوم تخيلوا كم يعاني ، يربي العنزة ويتعلق بها ثم يضطر لاسباب عقلانية الى ذبحها . . . مسكين هذا الجندي الذي يأتي وفي رأسه انه جاء ليخلص فيضطر من اجل تخليص المريض الى قتله لأن قتله هو أهون الشرور . . .

وعلى الرغم من حكاية العنزة اللبنانية الأصل . . فكاليفورنيا جميلة ، وشاطىء سان فرنسيسكو الذهبي ساحر . . واكياس الطحين ضرورية . . . والتكنولوجيا ضرورية . . وأميركا هي أميركا .

٨٣/٨/٣

تاريخ الانحطاط العربي الذي يحاصرنا ، وتختصر محاولاتنا للصراخ والاحتجاج والمقاومة ، سنة واحدة حشرتنا في « انصار » ، وذبحتنا على طرقات المدن المحتلة ، ودفشتنا الى حروب الطوائف ، ووضعتنا في ظل خطر الفاشية القادم على حراب المحتلين .

ذكرى الخروج يجب ان تسمح لنا بتجاوز الذاكرة الرومانسية ، ذاكرة التفجع والبكاء ، لنقف أمام هذا الخراب ، ننظر ونعيد النظر في الأشياء ، ونفكر ، في زمن يحشرنا فيه المحتل ويدفشنا الى حالة الضحية التي فقدت كل مبادرة .

السؤال الأول ، الذي يرتفع ، هو هل كان الخروج من بيروت حتمياً . . هل كان البحر هو الاحتمال الأخير ؟ . هل نستحق هذا العذاب وهذا النفق المظلم الذي ادخلنا اليه وهذا الموت الذي لا ينتهي ؟

قد لا يكون الجواب سهلا ، وقد يأتي من يفسر كارثة بيروت بالعوامل الاقليمية والدولية ، وعلى الرغم من بعض الصحة في هذه التفسيرات ، فانها لا تعفينا من تحمل مسؤولياتنا عن هذه الكارثة . . فالانهيار الوطني الذي سبق الغزو ، وافتقاد اي مبادرة سياسية حقيقية ، وتكدس الاخطاء ، وهيمنة النزعة الاقليمية ، وسيطرة الأجهزة الامنية ، وفقدان العلاقة مع الناس ، وغياب الفكر النقدي وتغييبه ، كلها عوامل ساهمت في عزل بيروت ، وفي جعل ضربها ومحاولة قتلها مسألة ممكنة ، فاسرائيل ليست كلية القدرة ، قدراتها تأتي اساسا من ضعفنا واستهتارنا وسيطرة الفكر السياسي الغيبي علينا . . .

وللأسف ، لم يكن الخروج الفلسطيني من بيروت مناسبة لمراجعة صارمة ، بل على العكس ربما ، فالوضع الفلسطيني ما يزال يعيش آثار هذا الخروج ، عبر الانقسام والتشرذم ، وعبر خفوت الصوت النقدي .

أما على المستوى اللبناني ، فـان المراجعـة ما تـزال خافتـة . . . وعلى الرغم من أن ولادة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتـلال يجب ان تكون علامة على بدء منعطف جديد يحتاج الى فكر جديد ، فاننا ما نزال نعاني من آثار الحرب الأهلية المتجددة ، التي تدفع الى المزيد من التقوقع الطائفي وإلى الانجرار في لعبة الاحتلال .

السؤال الثاني ، ويتعلق بمسار الحرب الأهلية الذي يعاود التجدد وفي ظل الاحتلال . . ويبـدو ان هذا المسـار شبه حتمي ، لأنـه وليد مـزاوجة مرعبة بين الاحتلال والدعوة الفـاشية الـطائفية ، التي لم تتعلم من دروس هذه الحرب الأهلية الطويلة سوى العناد والاصرار على مقـولات عنصريـة وعلى الارتباط بالخارج . . .

الحرب الأهلية في ظل الاحتلال ، تعني ان التقسيم والاقتسام قد تصبح مسألة حتمية، وان العجز اللبناني ، عن مواجهة مرحلة الاحتلال الاسرائيلي هو العجز المدمر الأخير .

التعامل مع هذه الحرب الأهلية الجديدة ، يتم باهمال كـامل لـدروس حرب السنوات الماضية ، كأن النخبة السياسية اللبنانية هي نخبة لا ذاكرة لها ، او كانها احترفت الحرب واحترفت السلطة الصغيرة واعلنت خروجها من المسألة الوطنية . . . .

الحرب الطائفية في ظل الاحتلال ، تعني موت كل شيء . . وايقافها ومنعها والعمل في سبيل عدم السماح لها بـان تأكـل ما تبقى ، هـو مهمتنا المباشرة حتى لا يخرج كل شيء من بيروت وتخرج بيروت من نفسها .

مسألة رفض الحرب الأهلية في ظل الاحتلال ، تبقى مسـألة اخـلاقية محضة ، إذا لم ترتبط بـاعادة نـظر جذريـة في الواقـع اللبناني ، وبـاكتشاف وسائل تغيير جديدة مرتبطة بالمرحلة الجديدة التي نعيش .

هنا ، يطرح السؤال الثالث ، كيف نقاوم الاحتلال ؟

من الواضح ، ان وعينا يتعرض لضغوطات مرعبة كي لا يسمح له بالتفكير الجدي بمقاومة الاحتلال . . . ضغط الحرب الاهلية ، ضغط العجز العربي المصحوب بتصعيد كلامي ، ضغط الهيمنة ، الشلل الفكري العام ، انبعاث الطوائفية . . كلها عوامل تحاول ان تقلل من اهمية مقاومة الاحتلال ، وتصب في المجهود الاسرائيلي الذي يسعى لتصفية هذه المقاومة .

المسألة المركزية البديهية ، هي ان مقاومة الاحتلال هي الشرط الأولي للوجود ، وكل كلام آخر مدمر ، وهذه المقاومة هي التي تعيد ترتيب جميع الأولويات على الساحة الوطنية .

وعلى الرغم من اتفاقية شولتس التي لم تكن تهدف إلا الى ايصالنا الى حافة الحرب الاهلية ، وإعطاء غطاء شرعي للاحتلال ، على الرغم من كل الاحباط ، فانّ نمت بذور المقاومة الوطنية اللبنانية ، واستطاعت ان تخلق حالة متقدمة من الجنوب ، لكن هذه الحالة ما تزال عاجزة عن التحول الى حالة وطنية عامة ، وذلك بفعل الدور الاسرائيلي ودور القوى المرتبطة التي اشعلت حرب الجبل ، وتستعد اليوم ، مع الانسحاب الاسرائيلي الجزئي ، لإحداث مذابح طائفية مرعبة تنهي الوجود اللبناني وتدخل المنطقة بأسرها في خطر التفتيت .

مواجهة اسرائيل لاتكون على ارض الحرب الأهلية ، بل على ارض مقاومة الاحتلال ، وهذا يعني ان مزاوجة بين الدفاع عن النفس في وجه خطر الفاشية ومقاومة الاحتلال يجب أن تنشأ ، وإلا فاننا مهددون كافراد وكجماعات بالانقراض .

عام كامل .

لم تخرج بيروت لتودع في الفدّائيين مقاومتها .

خرجت ، وهي مجرحة بالدمار والاخطاء والخوف ، لتعلن انها ، كانت وستكون ، الضوء الأخير في هذا الليل العربي الطويل .

واليوم ، ونحن نستعيد الذكرى ، لا نغرق في الذاكرة ، نتأمل دروس الماضي ، نستعيد زمن الحصار ، كي نتعلم منه دروس مقاومة الاحتلال وامراء الحرب والعصر الاسرائيلي الأسود ، عصر المذابح والقتل ، وعلى الاسرائيليين ان يعلموا انهم ليسوا سلاطين بني عثمان ، وان من يعرض شعبا آخر للهجرة ويرميه للبحر يعرض نفسه للاخطار إياها ، وإن المعركة طويلة طويلة .

١٩٨٣/٨/٢١

الحرب الكبيرة والحروب الأخرى

سنة على الاجتياح الاسرائيلي ، وزمن يضيع ، كأن الحرب الكبيرة حملت في احشائها حروبا لا تنتهي ، وبتنا كلنا اسرى هذه الحروب ، واجبرنا على ان ننسى جذرها المزروع في ذلك الصيف الذي احرق لبنان .

سنة على الاجتياح ، وحرب اخرى تشتعل في الجبل هي تتويج لسلسلة من الحروب التي نظمها الاحتلال الاسرائيلي ثم تركنا في وسطها ، وذهب الى ضفاف نهر الأولي ليتفرج على الحرائق اللبنانية .

حرب الجبل التي حبلنا بها منذ سنة ، منذ ان دخل جيش شارون وادخل معه اوهام الانتصارات على اشلاء لبنان ومقولة الغالب والمغلوب ، تمتد اليوم وتهددنا كشعب وكأفراد ، تمتد وتحرق القرى والغابات ، ونحن عاجزون عن ايقافها وعاجزون عن النظر اليها بعيون حقيقية .

- ١ -

منذ سنة ، وفي مثل هذا اليوم ، نظم الاحتلال الاسرائيلي لعملائه مذبحة المخيمين في شاتيلا وصبرا .

منذ سنة ، وفي مثل هذا اليوم ، سيق شعب كامل الى المذبحة ، وعبر المذبحة دخلنا الى اتون النار ، دخلنا في الخطيئة الكبرى ، وصرنا الى اشلاء شعب .

مذبحة المخيمين . التي اثارت هلع العالم بأسره، لم يكن لها على

المستوى اللبناني ، أي اثر يذكر ، كأنها استمرار لتقاليدنا العريقة ، كأنها لا شيء .

ذكرى المخيمين الحزينة تأتينا اليوم وسط تراكم المآسي والحروب . كأن ارواح القتلى التي يمتلىء بها هذا البحر المتوسط صارت اليوم هي عنواننا الوحيد .

مذبحة المخيمين تكشف لنا عن المعنى الحقيقي للعصر الاسرائيلي الذي ادخلتنا الهزيمة اليه ، فالذي جرى ويجري ليس مجرد ابادة منهجية للشعب الفلسطيني وحده ، بل هو مدخل لتحويل كل شعوب المنطقة الى فلسطينيين ، يبدأ هذاالتحويل بالتفتيت الطائفي الذي جرتنا اليه مؤسسات الهزيمة العربية ، ثم تبدأ الحروب الطائفية وتنتشر ، وتتوسع معها المذابح الى اللانهاية .

هذه اللعبة الجهنمية التي جرفت الجميع تقريبا ، هي التي تقودنا الى هذا الخراب الروحي الذي لا مثيل له ، وتعيدنا الى وصاية الدول الكبرى ، وتلغينا نهائيا .

ذكرى مذبحة المخيمين في هذه الأيام الصعبة التي نمر بها ، يجب ان تكون مناسبة للنظر في الأشياء واعادة النظر في الكثير من الافكار والممارسات .

فالآف الضحايا الذين سقطوا ، الليل الطويل الذي ابتلع المخيمين ، الاشلاء التي جرفت ، الجنرالات الذين كانوا يتفرجون ، الصراخ . . هذه الصورة المرعبة التي لا يستطيع العقل ان ينساها تعود في كل يوم لتذكرنا الى اية هاوية اوصلتنا الفاشية ، والى اي مصير يقودنا العصر الاسرائيلي ورجاله الصغار وهم ينتقمون بتلك الشراسة والسادية .

في شاتيلا وصبرا ، رسمت اسرائيل تصورها عن المصير العربي . .

وبعد سنة على المذبحة ، ما يزال المصير إياه ينتظر الجميع .

وبعد سنة ، ننظر في مرآة الموت ونحاول ان ننهض من الفتات فنصطدم بالجثث الملقاة على عيوننا ، ولا نبكي .

- ٢ -

المفارقة المحزنة ، ان ذكرى المخيمين تأتي وسط نار حرب الجبل ، كأن الذكرى تتكدس فوق الذكرى ، والذاكرة تصبح مستودعا للاحزان . والمفارقة ايضا ، هي ان اندغام الذكرى بالواقع الجديد ليس مصادفة . . فالمذبحة لا تستدعي غير المذابح ، حين لا يكون هناك فهم عميق وحقيقي للهاوية التي سقطنا فيها .

حرب الجبل تشتعل ، وهي مليئة بالخطوط الحمراء وبالدم . والدول الكبرى التي جاءتنا عام ١٨٦٠ تأتينا اليوم ، والقرى التي شهدت مذابح منذ قرن ، تشهد المآسي اليوم ، كأننا ما نزال في الحفرة نفسها ، وكأن الزمن لا وجود له بالنسبة للذين يقودوننا الى هذه الكارثة .

وفي نار الجبل المشتعلة نكتشف او نعيد اكتشاف مجموعة من الحقائق .

فلقد احرقت هذه النار اوهام الذين راهنوا ويراهنون على اسرائيل ، ولأن الرهانات كانت كبيرة ، فان ما نخشاه هو ان تتحطم الحقيقة مع الوهم ، وينهار الانسان من الداخل .

لقد أثبتت اسرائيل انها ليست طرفا استعماريا بالمعنى التقليدي . فهي لم تحتل من اجل نصرة فريق على فريق ، وليست بقادرة على استيعاب المناطق المحيطة بها ، لذلك فهي تسعى الى تفتيت الجميع ، كي يصبح الجميع بحاجة اليها .

اسرائيل هي الحرب الدائمة ، تضعف الجميع كي تنقذ الجميع ؟

عن الحرب الكبيرة التي اجتاحتنا في الصيف الماضي .

فالمعركة على لبنان وفي لبنان ، هي معركة السيطرة على المنطقة . ولقد كان الاجتياح الاسرائيلي في الصيف الماضي هو ذروة المعركة . . اما اليوم ، فنحن نعيش ونموت في سفوح الحروب الأخرى الصغيرة .

هذا السفح الداخلي اللبناني بدأ بوهم قاتل : الغالب والمغلوب .

الغالب هو الذي تحالف مع اسرائيل ، والمغلوب هو الجميع . والغلبة هي هيمنة مطلقة ليس على جهاز الدولة فقط، بل على المجتمع المدني ايضا .

وهم الغالب ، قاد الى مجموعة من الممارسات التي اوصلت المجتمع الى ما يشبه التفكك النهائي ، وعوض مشكلة « الخوف » عند طائفة واحدة ، تعمم الخوف . الخائف يخاف من الخائف . . حرب الخائفين المعلنة او المضمرة كانت تشتعل على نار الاحتلال الاسرائيلي البطيئة وعلى الموقف الاميركي الذي قاد الى ولادة اتفاقية ١٧ أيار .

الخوف المنتشر اسقط مقولة الغالب والمغلوب واستبدلها بمقولة القاتل والمقتول ، والقاتل الخائف يجد كل المبررات للقتل وينفي مبررات خوف القتيل ،حتى دخل الخطاب السياسي اللبناني في مفارقة المهزلة: ادانة المذابح حين تمس احدى الطوائف وتبريرها حين تمس فئات اخرى . . . .وانهار كل سلم القيم ، حتى القيم التقليدية انهارت ولم يبق سوى مقترب همجي يبرر نفسه بالكذب والخداع وبنفي علاقة تراثنا وتقاليدنا بما يجري . كأن تراثنا يحمل اشياء غير التبعية والقتل ونفي الآخر . .

حرب الخائفين التي انتجها العصر الاسرائيلي ، وجدت تربتها الخصبة في هذا العجز العربي القاتل ، الذي ترك لبنان والفلسطينيين لمصيرهم الأسود . فمنذ ان اخرجت مصر من ساحة المشرق العربي ودخلت في نعمة

التحالف مع اميركا ، تحولت مصر من قوة اقليمية الى ركام من الجائعين ، وبتحولها هذا ، ترك المشرق لاسرائيل من جهة وللاعقلانية امراء الطوائف من جهة أخرى .

نظرة سريعة الى الذي جرى في الصيف الماضي ، الى فضيحة العرب امام حصار بيروت الطويل ، والى رحلات السيد فيليب حبيب من اجل استجداء الاماكن للمقاتلين الفلسطينيين ، والى السفن التي حرسها الأسطول السادس ، والى المذبحة ، ترينا كيف قتلنا هذا العجز العربي المخجل . . وكيف قام زعماء هذه الأيام باعادة الاعتبار لهزيمة ١٩٤٨ . . أذ تبدو هزيمة ٤٨ مبررة امام البهدلة التي حصلت العام الماضي ، هذا على الرغم من المقاومة الاسطورية التي اوقفت الجيش الاسرائيلي ثلاثة اشهر امام جدران بيروت .

اما لبنانيا ، فلقد تم ، وعلى الرغم من كل ما جرى ، او بسبب منه ، القفز في المجهول الاسرائيلي ـ الاميركي على قاعدة الغالب والمغلوب .

الغالب ، يريد كل شيء . يريد ان يقوم بانقلاب جذري يميني في بنية السلطة ، ويقيم نظاما شبيها بالانظمة الديكتاتورية الشهيرة في اميركا اللاتينية او في الجوار العربي . هذا الانقلاب كان مقدرا له ان يحدث خللا عميقا في علاقات لبنان الاقليمية ، وان يحيل ميثاق الطوائف الى هيمنة مكشوفة ودائمة .

لكن الرهان كان دائما رهانا كليا ، من الرهان الاسرائيلي الى الرهان الاميركي الى اخره . . الرهان هو ان الدول الأخرى سوف تعيد تركيب البلد وتفرض ، انطلاقا من نتائج اجتياح ١٩٨٢ ، نظاما معينا .

هذا الرهان ، بالممارسات التي ولد منها ، افرز الهاوية التي نقف اليوم على مشارفها ، فلا اميركا كلية القدرة ، ولا اسرائيل مستعدة ان تقدم

الهبات للآخرين ، ولا الطوائف مستعدة ان تخضع بمثل هذه السهولة .

هكذا تم ادخالنا ، عبر رفض الوفاق ، الى دوامة حرب اهلية جديدة ، كل شيء يبشر انها قد تكون طويلة ، وانها تحمل اخطار القضاء على لبنان وتأبيد الاحتلال الاسرائيلي لاجزاء منه .

لقد قادنا الرهان على القوى الخارجية ، الى المأزق .

وقادتنا المؤسسات الطائفية الى الهاوية .

والحرب التي نعيشها اليوم ، ونحترق بنارها ، ليست سوى النتيجة المباشرة لهذا الوهم الذي زرعه الاحتلال الاسرائيلي ، وهم الغالب بعدوه .

- ٤ -

المؤسسات الطائفية ، والطائفية السياسية ليست سوى الشكل المحلي للاحتلال الخارجي . فالطائفية السياسية لم تلعب في تاريخ هذه الحرب الطويلة سوى دور « الدالول » للقوى الأجنبية . الطائفية السياسية ليست فقط عاجزة عن بناء وطن ، بل هي عاجزة عن المحافظة على وطن اعطي لها عن غير استحقاق .

واليوم ، وشبح الاحتلال يخيم فوق الأرض تنفجر حرب الجبل ، كنتيجة حتمية لعجز الطائفية السياسية عن حل مشكلات الوطن .. فامراء الطوائف وفرسانها ، عاجزون عن اكتشاف لغة جديدة وممارسة جديدة لمواجهة الكارثة الوطنية التي نعيش بل هم يواجهون الكارثة باستدعاء كارثة اكبر . . واليوم يريدون منا ان ننتظر من ابطال تقسيم كوريا وفيتنام ان يوحدوا لبنان !

الطائفية ، كمؤسسة ، هي الابن غير الشرعي للقوى الأجنبية ، وهي

اليوم ، في زمن الانحطاط العربي الذي نعيش ، تستعيد وبدون خجل تاريخا سحيقا وتعيدنا الى اجواء التذابح الطائفي ، وتستدعي الدول وتنتظر المساعدات وتشبّح بقوى لا تملكها .

هذا هو المأزق .

فالعقل الكانتوني الذي نجح عام ١٩٧٨ عبر توسيع الخط الأحمر الاسرائيلي ، يكاد ان يعم المجتمع بأسره . . ومن خلال فعل الطوائف وردود فعلها ، يكاد كل شيء يضيع .

- ٥ -

الحرب الأهلية المتجددة التي تضع اسرائيل بين هلالين، وتنسى او تتناسى ان مشكلتنا الرئيسية مع الاحتلال الاسرائيلي ، تضع المجتمع اللبناني بين هلاكين ، وتدخلنا في لعبة العودة الى الحماية الاجنبية والانهيار الاخلاقي والسياسي الكاملين .

من هنا ، ووسط النار المشتعلة . ووسط الحروب المفروضة علينا ، لا بديل عن اعادة اكتشاف البديهيات التي تقول ان وحدة لبنان وان رفض منطق المذبحة الدائمة ، يبدأ من رفض سببها ، يبدأ من رفض الاحتلال الاسرائيلي ومشاريع الهيمنة الغربية على المنطقة .

العودة الى البداية الحقيقية .

إذ لا شيء ينقذنا من التدهور والانحلال سوى اكتشاف عدونا الحقيقي وقتاله عوض ان نتقاتل . . وهذا الاكتشاف يعني ان المشكلة الداخلية هي في جوهرها مشكلة وطن محتل ،وإن هلوسات الطوائف ليست سوى الشكل الداخلي للاحتلال هذا .

من الجنوب ، حيث المواجهة الحقيقية .

ومن استعادة الوعي ، عبر خلق مناخ الحوار الديمقراطي ورفض المذبحة .

ومن إرادتنا ودفاعنا عن حقنا في ان نموت كراما وليس كما نموت الآن .

يبزع ضوء صغير ، يرفض هذا الانحدار وهذا الموت ، يدين الفاشية وكل ممارساتها ، ويضع نفسه في مواجهة بناء . حقيقة وطنية جديدة في لبنان .

هل كانت حرب الجبل هذه درسا نتعلم منه .

ام انها ذكرى جديدة تضاف الى ذاكرة صارت مستودعا للخيبات والأحزان .

٨٣/٩/١٦

الكتابة والصمت

- ١ -

الأسئلة التي تطرح اليوم على الكتابة ، هي الأسئلة نفسها تقريباً التي طرحت منذ بداية الحرب الأهلية ، وهي أسئلة تتمحور حول سؤال مركزي : ما هي علاقة الكتابة بالفعل ؟ والأجوبة المقدمة كانت تتراوح بين السلب المطلق الأحباطي والايجاب المطلق التعبوي الدعائي . وبين قطبي الاجابة هذين بقي السؤال نفسه دون محاكمة حقيقية ، وصار الموقف الواحد يحمل في داخله القطبين المتناقضين تبعا للظروف والتطورات المرتبطة بمسار الحرب .

والملفت ان السؤال طرح في مكان واحد تقريباً ، هو الصحافة اليومية . وقام السؤال بالقفز من فوق ظروف المكان الذي طرح فيه ، كأن الصحافة هي مجرد اداة لنشر الكتابة ونشر اسئلتها الابداعية ، ولم يجرؤ احد على طرح الموضوع في اطاره الفعلي : أين هي الكتابة من الصحافة ، وما هو دور الكتابة والصحافة خلال الحرب ؟

وكما جرى القفز فوق السؤال الأول نحو جواب استقطابي ، جرى القفز فوق السؤال الثاني نحو ممارسة عصبوية تتجاوز وتمحو دور الصحافة بوصفها اداة نقل الأخبار والوقائع قبل ان تكون اداة للتعليق عليها أو للتحريض . فصار الخبر في الكتابة موقفاً ضمنياً ، وصارت معرفة الوقائع عملية شبه مستحيلة .

قد نعيد سبب هذا الشكل الكتابي الى مجموعة من العوامل : تركيب الصحافة اللبنانية نفسها وعلاقاتها التمويلية ، الرقابة الذاتية وغير الذاتية ، الخوف من القوى المقاتلة الى آخره . . لكن هذه الأسباب وان كانت صحيحة في مجملها لا تعفينا من مهمة النظر في الأسباب العميقة التي تشل الكتابة وتمنعها من أن تلعب دورها الأول ، قبل الفعل والتغيير والاحباط والتشبيح والى آخره . وهو تقويم الوقائع ووصف الأشياء ، حتى يكون من الممكن معرفتها وتغييرها وتجاوزها .

- ٢ -

تجربة الكتابة اللبنانية خلال الحرب ، لا تناقش جديا من منطلق دورها الفعلي الغائب بشكل كبير ، وقد تكون حرب الجبل الأخيرة هي النموذج الفاضح على هذا الغياب .

لن نتوقف عند تجربة الغزو الاسرائيلي للبنان في الصيف الماضي ، فظروف الغزو الذي قامت به قوة عدوة تريد تدمير كل شيء ، منع الصحافة والكتابة من أن تسجل الوقائع ، فقامت بتسجيل ما استطاعته ، وكانت شهادتها الكبرى ، انها استطاعت ان تصمد تحت القذائف والنار . لذلك فان المصادر الفعلية لمعرفة ما جرى خلال الغزو الاسرائيلي هي مصادر الصحافة الأجنبية، التي كانت تتمتع بحرية نسبية في الحركة .

أما حرب الجبل الأخيرة ، فان مسألة تعاطينا معها ، تثير الحيرة والتساؤ ل .

التحقيقات الفعلية في جميع مواقع القتال ، باستثناءات محدودة ، قام بها مراسلون أجانب ، دير القمر وكفرمتى لم يدخلهما سوى الأجانب ، مناطق الشوف وعاليه التي شهدت المعارك والتهجير لم يقم بزيارتها والكتابة عنها سوى المراسلين الأجانب . . الى درجة ان أي تأريخ فعلي ، لا يتوقف

عند التصريحات السياسية وحدها ، لحرب الجبل ، يجب ان يمر عبر الصحافة الأجنبية .

هذا العجز شبه المطلق هو ما يجب التوقف عنده ومحاولة فهمه وتحليل ابعاده ؟ كيف نتكلم عن الكتابة ونكتب دون ان يكون باستطاعتنا الذهاب الى الأماكن التي يجري فيها الحدث ، والكتابة عن مشاهداتنا ؟ لماذا نكتب اذا كنا لا نعرف ، أو اذا كنا ممنوعين من المعرفة ؟ وكيف تريدون كتابة وشهادة عن الواقع الذي لا نعرفه ؟

قد يكون التقصير ذاتياً بشكل جزئي ، أي قد نكون كمؤسسات ثقافية اعلامية عاجزين عن تطوير الوسائل الملائمة للمرحلة التي نعيشها أو نموت فيها . . لكن التقصير الذاتي لن يقدم جواباً ، لأن هناك العديد من المحاولات الذاتية التي نعرفها ، جوبهت بالاستحالة وبرفض السماح لها بالوصول الى الأماكن التي يصل اليها الأجانب . . كأن أطراف الحرب يعلمون ان كلمة الرأي العام تعني الرأي العام في البلدان الغربية ، على اعتبار ان الحرب وتحويل الناس الى ما يشبه الأشلاء قد تكفلت بأنهاء وجود رأي عام لبناني ، ناهيك عن القمع والتعمية التي أنهت الرأي العام العربي منذ زمن طويل .

- ٣ -

الصحافة ، حرية النشر ووسائل الاعلام السمعية البصرية ، هي أدوات معرفة وأدوات ضبط اجتماعي ، بالمعنى الاصطلاحي لمفهوم ودور الأيديولوجيا في المساهمة بالضبط الاجتماعي. اما في العالم العربي وبقية بلدان العالم الثالث ، فلقد تحولت هذه الوسائل الى ادوات قمع مباشرة ، مثل البوليس تماما . فوسائل الاعلام ، تستخدم اليوم تقنيات بالغة التعقيد لتلعب الدور نفسه الذي تلعبه الدبابة . فهي تقصف الأيديولوجيا

على رؤوس القراء والمشاهدين ، وهدفها الرئيسي هو اخراج الناس من السياسة ومن لعبة تكوين رأي عام ، والخضوع المطلق للرأي الواحد الذي يعبر عنه رجل واحد .

الصحافة اللبنانية ، بسبب ظروف التوازن قبل الحرب ، وظروف التوازنات المسلحة خلالها ، استطاعت ان تنجو من هذا الكابوس القمعي ، وان تحافظ على حدود معينة لحريتها وقدرتها على التعبير .

لكن هذه الحدود ، تصطدم بآلية الحرب الأهلية نفسها .

ففي حرب تستخدم فيها جميع انواع الأسلحة منذ اكتشاف البرونز ، من البلطة والسكين الى الأقمار الصناعية ، وفي حرب تتغير فيها التحالفات والتوازنات بشكل دراماتيكي ، وفي حرب تستنفر فيها جميع الغرائز الطائفية والعنصرية ، وجيمع العقد : من الخوف الى التفوق ، ويتم فيها تهجير السكان من مناطقهم ، والمذابح الجماعية ، والخطف ، وقتل الأسرى ، في هذا النوع من الحروب ، كيف يمكن ان تكون الكتابة اقتراباً من المعرفة وتسجيلا لوقائعها .

الصحافة هي الموقع الأخير ، الحديث والديمقراطي نسبياً ، بعد ان حل ما حل بالتلفزيون من انتقال العدوى اليه . . وهذه الأداة هي اليوم ، الشكل الوحيد نسبياً الذي يستطيع الكاتب في لبنان أن يعبر من خلاله ويشهد . .

ولكن كيف يمكن ان يتم التعبير ؟

الحرب أهلية ، وبالتالي فالكاتب هو جزء من الأهالي الذين يتقاتلون . وحتى حين يحاول ان يبحث عن الوقائع فانه مرفوض سلفا لأنه عليه ان يكون منحازا . أنا لست ضد الانحياز ، بل ربما لا يستطيع الكاتب سوى ان ينحاز الى المشروع الديمقراطي حتى في هذه الأيام الحالكة ، لكن المسألة

تتجاوز الانحياز السياسي الى الايحاء . الانحياز في مفهوم القتال الذي يدور هو ان يتم محو الكاتب واندغامه في قبيلته أو طائفته . حتى عندما يرفض ذلك ، ويكون في موقع لا طائفي ، فان الآخرين هم الذين يعيدونه أو يذكرونه على الأقل ، بانتمائه الأصلي الى درجة الاحراج !

هذا الالتزام الايحائي المفروض بقوة الايحاء . أو بتوقعات الآخرين وتصرفاتهم ، هو الذي يلغي امكانية الكتابة وتسجيل الوقائع لأنه يقوم بتجريد الكتابة من مرجعها المباشر ، ويجعل الكاتب معلقاً ، في أفضل الأحوال ، مانعاً عنه القدرة على المشاهدة التي يسمح بها للصحافي أو المحقق الأجنبي .

هل يمكننا أن نتخيل صحافياً يعمل في جريدة « السفير » يستطيع اليوم ان يذهب الى المناطق التي تسيطر عليها « القوات اللبنانية » ، لكي يصف أو يكتب تحقيقاً . أو هل نستطيع أن نتخيل صحافياً يعمل في « النهار » أو « العمل » ويسمح له بكتابة تحقيق عن مناطق أخرى ؟ منع الكاتب من الكتابة قد يكون غير مباشر ، فهو قد يخطف ليس بوصفه كاتباً أو صحافياً بل بوصفه ينتمي الى احدى الطوائف أو المناطق . . . وهو قد يمنع أيضاً ، لأنه يضرب الجبهة الداخلية أو يكشف ما ليس من الضروري الكشف عنه ، أو يتناسى العدو الرئيسي أو الى آخره . .

في المقابل يستطيع الصحافي الأجنبي ان يذهب الى كل المناطق ويشاهد ثم يكتب . هكذا تصبح مصادرنا الوحيدة عن الشوف أو ثكنة المشرف هي الصحف الأجنبية ، وهكذا أيضاً ستكون مراجعنا عن حرب لبنان الطويلة مراجع اجنبية في معظمها .

المسألة التي احاول طرحها هنا ، هي الغياب شبه الموضوعي لقدرة الكاتب اللبناني على أن يكتب عن الوضع الذي يعيش فيه ، على أن يرى

ويكون قادراً على الاكتشاف ، كي يستطيع ان يسجل ويشهد .

- ٤ -

ربما كان هذا النوع من الحروب لا يسمح لمن يشارك فيها أو لمن تتم الحروب على أرضه وبيته وجسده ان يرى ما يجري ، فهو جزء من كل ، والجزء لا يرى الا موضعياً . فالحرب الأهلية كانت تدخل تدريجياً الى كل منطقة وحي وبيت ، وكانت مع تصاعدها وتحولاتها وعجز اطرافها عن الحسم ، تقود الى احداث خلل عميق في الأفراد والجماعات .

من هنا ، كانت الكتابة ، التي هي تجسيد تحويلي للحدث عاجزة عن النظر الى الحدث ، لأنها تريد أن تهرب من الموت الى الحياة . وهذا ما يفسر ، ربما ، هذا القدر الضئيل من الكتابات الجدية التي قدمت صورة الحرب بكل عناصرها واستطاعت ان تخترق التعابير الجاهزة واسطوانات حراس الطوائف .

غير أن العجز والمنع قادا الى حقيقتين محزنتين :

الحقيقة الأولى ، هي أولوية الكلام على الكتابة ، وأولوية الصمت على الكلام .الكلام يقول ما لا تستطيعه الكتابة ، أو ما لا تجرؤ عليه ، يقول المشاعر الفجة والرغبات والعنف الكامن ، والصمت يقول اللغة الداخلية ، لغة الخوف والرهبة ومحاولة الهرب من هذا الموت المقيم في كل مكان.

في أولوية الكلام ، نعود الى ما قبل الكتابة ، وفي أولولية الصمت نعود الى ما قبل الحياة .

هذه الحقيقة المرعبة تدفعنا الى طرح السؤال العميق عن دورنا ومسؤوليتنا ، كمثقفين وكديمقراطيين في المآل الذي وصلنا اليه . فبالكلام

الذي يبتلع الكتابة ، لا تتهمش الكتابة فقط بل تفقد معناها وتدخل في اللغو والتبرير والأدلجة والسكوت عن الأخطاء وتبرير الجريمة وتقديس الوسائل على حساب الغايات . وفي الصمت الذي يبتلع الكلام ، لا يتهمش الكلام فقط ، بل ويموت الانسان في داخلنا ، وندخل في السبات .

الحقيقة الثانية ، هي أننا نكرر ، أو تتكرر معنا ، ولو بشكل مختلف ، التجربة اياها في العلاقة بالفكر الاستشراقي والأنتروبولوجي . اذ نكتشف اليوم ، اننا ما نزال عاجزين عن كتابة تجربتنا ، وان هذه التجربة تكتب مرة أخرى على يد المستشرقين أو أشباههم ، وهي نوع من الكتابة التي تشوه تجربتنا ، وتفرض علينا ذاكرة مأخوذة من اطر مرجعية خارجية ، تحمل كل الرواسب العنصرية . قد تكون حجتنا اليوم ضعيفة امام هذا الفكر ، خاصة بعد ان عجزنا نحن عن أن نمنع امراء الطوائف من جرنا الى حرب لا نهاية لها وتحت شعارات وممارسات طائفية بالدرجة الأولى . لكن ضعف حجتنا لا تبرر هذا الفكر ولا تعطيه مصداقية افتقدها منذ زمن طويل .

هل الحقيقة الثانية هي النتيجة المباشرة للأولى ام ان هاتين الحقيقتين هما وجهان لعملة واحدة هي عملة التراجع العربي وتراجع الحركة الديمقراطية في لبنان .

الكتابة اذن هي في حالة العجز الأولية عن ممارسة دورها كشاهدة وكناقدة لما يجري . فالادانة لا تأتي من موقع محاولة بلورة قيم اجتماعية وسياسية عامة ، بل تأتي متخندقة في مواقع ادانة الآخر وايجاد كل المبررات للذات . هكذا تفقد الادانة كل معنى ، فمن المأساوي ان يدان حصار دير القمر بينما يجري السكوت عن مخطوفي المشرف ، أو يدان تهجير سكان النبعة بينما يجري السكوت عن بحمدون إلى آخره . .

هذه الكتابة التي لا تنتج قيما هي الترجمة الفورية لعجز الكتابة عن ان تكون ، ولعجز قوى التغيير عن أن تبلور خطها وموقعها المستقل .

ـ ٥ ـ

أمام هذا المأزق لن نجد الحل في الكتابة أو في الصحافة . قد نجد حلولا فردية ، وقد نكتب شهادتنا بصدق، وقد يكون هذا أقصى ما نستطيع فعله ، وأقصى ما تستطيع الجرأة ان تقودنا اليه . لكن المسألة وحلها يكمنان في مكان آخر .

هذا المكان هو في اعادة الاعتبار للمعركة التي فرضت علينا ، وعدم التفريط بوجودنا نتيجة الهزيمة التي أوصلتنا الى هذا المنزلق الطائفي .

اعادة الاعتبار للمعركة تكون عبر التركيز على أولوياتها ، والأولوية الأولى هي طرد الاحتلال الاسرائيلي ورفض الوصاية الاستعمارية الغربية . وهذا يعني رفض كل تقسيم طائفي أو مناطقي والاصرار على بناء وطن ديمقراطي جديد .

هذه المعركة الطويلة ، اذا استطاعت ان تتعلم من دروس الهزائم ، وهي دروس كثيرة ، واذا استطاعت ان تخترق الحجاب الطائفي ، ولوجزئياً ، تسمح ببلورة حد أدنى من الشهادة الجديدة والكتابة الفعلية ، وهي كتابة لن تؤدلج لأخطاء احد ، بل شرط وجودها هو تقديم الوقائع واعادة الاعتبار للحقيقة ، ورفض مصادرة الحرية تحت أي شعار أو سبب ، لأن الحرية هي أصل كل قيمة وهدف كل نضال .

٨٣/٩/٣٠

لذلك ، فان مسألة مواجهة الاحتلال لا تستطيع ان تنتظر حل المشكلة الداخلية ، أليست هذه المشكلة في احد وجوهها انعكاساً للمناخ الذي فرضه الغزو الاسرائيلي . . ولذلك أيضاً ، فان توظيف مواجهات الجنوب في الصراع على السلطة المركزية يبدو مبكراً وقد يكون اجهاضياً . ولذلك اخيراً ، فان مواجهات الجنوب قد تكون المدخل الوحيد ، المتاح ، من اجل تجاوز العقدة الطائفية ، حتى وان قادت هذه المواجهة الى محاولات ارتماء فاشية في احضان اسرائيل . . لأن الحل للمشكلة اللبنانية لا يمكن ان يتم قبل فرض التراجع على العامل الاسرائيلي (الذي يصبح داخلياً) ، والا فان أي وفاق وطني لن يكون اكثر من هدنة مؤقتة ، أو سيكون املاء للشروط الاسرائيلية .

قد تكون المواجهة العارية في الجنوب المحتل ، المؤشر الصحي في الوضعية اللبنانية . فهي على خلاف جميع المواجهات في لبنان ، ليست مواجهة بين طرفين داخليين . . ليست مواجهة بين أمل والقوات اللبنانية ، بل هي مواجهة عارية ومباشرة مع الاحتلال الاسرائيلي . ولأنها كذلك ، فقد استطاعت ان تعطب التوجه الاسرائيلي في اظهار جيش الاحتلال بوصفه حكماً بين فرقاء صراع محلي ، وان تمنع ، على الرغم من التحرشات ، امتداد الصراع الطوائفي المدمر الى الجنوب . .

ولأنها كذلك ، ولأنها تملك هذه الخصوصية الفريدة ، فان المواجهة في الجنوب ، يجب ان يجري التعامل معها بجدية كبيرة ، ويجب استخلاص دروسها جنوبياً ولبنانياً .

النقطة الأولى ، التي يجب التوقف عندها ، هي ان مواجهة الجنوب ، مرشحة لأن تكون مواجهة طويلة . اي أنها لن تعطي ثمارها بسرعة ، كثمار المواجهات الأخرى ، من هنا يجب التركيز على ضرورة تحريرها ، ولو جزئياً ، من وهم الانتصارات السريعة ، وضرورة تركيزها على أسس ثابتة

تبني جبهة وطنية حقيقية في المناطق المحتلة .

النقطة الثانية ، هي ضرورة استخلاص الدروس من مزج العملين المسلح والسلمي . فالقتال ليس بديلا عن التحرك الشعبي ، كما ان التحرك الشعبي لا يغني عن القتال . مزاوجة هذين العاملين ، تعني الوصول الى بناء استراتيجية مقاومة حقيقية ، لا تخضع لظروف طارئة خارجة عنها ، بل تفرض هي شروط مواجهتها على المواجهات الأخرى .

النقطة الثالثة ، هي ان مواجهة الجنوب كي تتحول الى بؤرة جميع المواجهات ، يجب ان تستطيع فرض منطقها على المستوى السياسي اللبناني . . وهذا لا يتم من دون خلق جبهة على المستوى الوطني ، تنطلق من ضرورة تحرير لبنان ، كشرط اساسي من أجل الوصول الى بناء سياسي ديمقراطي متحرر من القبضة الفاشية أو من النفوذ الأجنبي ، أو من اللعبة الطوائفية القديمة .

النقطة الرابعة ، هي أن المواجهات في الجنوب ، وهي تنطلق من الواقع الجنوبي ، ومن المناخ العام الذي أفرزته الحرب الأهلية الطويلة ، سوف تقود الى بروز قوى اجتماعية وسياسية ديمقراطية هي وحدها القادرة على مواجهة الاحتلال في معركة طويلة النفس . تشكل نقطة استقطاب للوضع اللبناني .

ليس هدف هذا التحليل القاء تبعات الوضع اللبناني بأسره على الجنوب ، أو الخلوص الى حلم طوباوي جديد يقول بأن المواجهة مع اسرائيل تكفي كي يتحول كل شيء بشكل سحري . لأن القاء التبعات على الجنوب أو الايمان بالحلول السحرية ، لن يقودنا الا الى وهم جديد والى خسارات جديدة ، لكن الانتفاضة الجنوبية ، في نموها المتسارع ، وفي هذا الالتفاف الشعبي المدهش على ضرورة مواجهة الاحتلال ، تطرح أسئلتها

في وسط سياسي غير قادر على تقديم الأجوبة . من هنا يأتي التخوف من أن لا تكتشف القنوات التي يجب أن ينصب هذا التحرك فيها ، مما يعني ضياعاً جديداً ، واحباطات جديدة .

بعد أكثر من سنة على الاحتلال ، وبعد أن قام الجيش الاسرائيلي بسحق المخيمات الفلسطينية ، وسوق آلاف الشبان الى معسكرات « انصار » ، وبعد محاولات بناء الميليشيات المحلية العميلة ، وادخال القوات الفاشية الى الجنوب ، استطاع الجنوب ان يصحو ، وانتفاضته هذه هي اعلان الصحو من صدمة الاحتلال ، واعلان الاستعداد للمقاومة. فتحميل ما يجري اكثر مما يحتمل سوف يقود الى اجهاضه . وعدم فهم دلالته العميقة والتقليل من اهميته ، يقود الى اغراقه في مستنقع الاستسلام أو التراجع . فهمه بوصفه لحظة صحو والتعامل مع هذه اللحظة بقرار مقاوم ، وتطوير المواجهات الجزئية ، وبناء اطر المقاومة الشعبية المدنية والمقاتلة ، وفتح النقاش الفكري حول التجربة الماضية والنقد والنقد الذاتي ، والتأكيد على الطبيعة الديمقراطية للمقاومة ، واعطاء كلمة الديمقراطية مدلولاتها الملموسة وتطوير عمل جبهة المقاومة الوطنية ، ليتحول الى اطار واسع يضم جميع القوى والاتجاهات الوطنية . هو الذي يعطي لهذه الصحوة زخمها ، ولا يغرقها في طروحات وممارسات ارادوية أو تراجعية .

المواجهة العارية في الجنوب ، تطرح على الجميع ضرورة البحث عن المعنى ، في زمن الاحتلال والانحلال الذي نعيشه في لبنان والمنطقة .

فبعد اجتياح بيروت ، وبعد سنوات التردد والضياع التي عاشها الوضع اللبناني ـ الفلسطيني قبل الاجتياح وبعده ، صار من المحتم على الجميع ، مراجعة صارمة للتجربة ، مراجعة منطلقاتها الفكرية واشكالية فهمها لمعنى الصدام التاريخي مع اسرائيل وانتكاساته الداخلية ، ومراجعة ممارساتها وتفتتها ووصولها الى حافة الانهيار في البنى الطائفية .

ان تجربة اكثر من سنة على الاحتلال ، تعلمنا ان الطوائفية السياسية عاجزة عن المقاومة ، وان المقاومة اذا ارادت ان تنمو عليها ان تتحرر من وصاية البنى الطائفية ، وان تبني ببطء وجدية اطرا جديدة ورؤى جديدة وان تقدم مشروع الخلاص الوحيد ، توحيد لبنان وتحريره ضمن بناء ديمقراطي غير طائفي بل معاد للمؤسسات الطائفية .

ومسيرة الوصول الى هذا الهدف طويلة جداً .

٨٣/١٠/٢٧

.. وتكتمل الذبيحة

- ١ -

الاضراب العام ، سلسلة الانتفاضات في الجنوب ضد الاحتلال ، العمليات ضد مقر الحاكم العسكري في صور وصيدا وفي مناطق مختلفة من الجنوب ، المقاومة الشعبية التي انفجرت في ذكرى عاشوراء . . كلها مؤشرات على الاتجاه العام الذي تقودنا وجهة الصراع اليه : المواجهة مع العدو الحقيقي ، مع اسرائيل واحتلالها ، بدل التآكل الداخلي والتعفن الطوائفي والتقسيمي .

الجنوب اليوم ارض الاختبارات ، أرض التجربة التي لم يسمح لها بان تتبلور خلال سنوات الحرب الطويلة ، أرض المقاومة الشعبية التي حاول امراء الطوائف واسياد عصر ملوك الطوائف في القارة العربية ابتلاعها وتحويلها الى مجرد هامش في زمن الانحدار والسقوط الى هاوية الانحلال .

السؤال الحقيقي يطرح هنا ،وليس في أي مكان آخر. والتسويات، على غرار تسوية جنيف ، هي مجرد تسويات مؤقتة . فامراء الطوائف ليسوا قادة المقاومة ضد الاحتلال ، واتفاقهم أو اختلافهم ليس مقياساً لشيء ، انه مجرد تعبير عن ميزان قوى اقليمي ما يزال بالغ الهشاشة ، وما تزال معالمه غير واضحة في ظل التردد العربي والكساح العام .

الاضراب العام والمواجهات في الجنوب هو معنى العروبة التي أفقدت

كل معنى قبل ان يجري تبنيها في جنيف . فعروبة النفط وعروبة الاستبداد وعروبة العجز عن مواجهة اسرائيل لن تفيدنا في شيء ، ونحن نواجه هذه المروحة من القوى التي تريد ابتلاع ما تبقى لنا من ارادة مقاومة . فحين تحشد الأساطيل في المتوسط ، وحين تقطع اسرائيل طريق الجنوب ، تصبح العروبة هي وحدة لبنان وتحرره من الاحتلال ، وتصبح معركة التحرير هي طريق اكتشاف الذات ، وهي المعنى الذي يبحث عنه مجتمعنا ، بعد تعرضه للتفكك ، وفي بحثه عن ما يتجاوز الطائفية المجنونة والانحدار الغرائزي الذي قادنا اليه انحطاطنا السياسي والفكري ، وهزائمنا امام انفسنا .

المقاومة في الجنوب تجري دون غطاء . تجري كأنها التعبير الجسدي المباشر لرفض ما يفرض عليه بقوة السلاح ، تجري بالاجساد وحدها ، وكل شيء من حولها ما يزال دون مستوى دلالاتها العميقة ، كل شيء ما يزال يهددها بالغرق في مستنقع الطوائف أو في وحل الأنظمة .

ـ ٢ ـ

والذبيحة تكتمل .

منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، ونحن نعيش هذا البحث المضني عن وجودنا الضائع بين الشعارات الخادعة والممارسات الخاطئة .

والآن ، تحت الاحتلال ، وبعد سنة طويلة من المقاومة اليومية لاخطار الفاشية وأوهام القمع المستند الى « هيغلية » الاحتلال ، وبعد حرب الجبل المدمرة ، والهجرات المستمرة ، نحتاج الى وقفة نقد وتقييم ، نحتاج الى البحث عن الحقيقة الضائعة في أروقة المفاوضات وتحت طاولة المفاوضات السرية .

ونكتشف البديهي الغائب والمغيب ، فالأوطان لا تصنعها التسويات

المؤقتة ، والدولة لا تبنيها قوى كانت هي المسؤولة عن دمارها المزري ، والطوائف ـ المؤسسات ، ليست هي الاطار الذي يبني ارادة مقاومة وطنية ، وارادة حرية .

والآن ، بعد آلاف الضحايا الذين ما يزالون يتساقطون ، من أحراش جرش وعجلون الى مخيمات الشمال اللبناني ، ومن مذبحة عمان الى مذبحة المخيمين ، ومن تل الزعتر الى تلال المدن والقرى المهدمة .

نسأل ولا نجد جوابا .

لذلك ، ربما ، اختار الجنوبيون اجسادهم سفنا وهاجروا بها الى موتهم وموت اعدائهم ، ومع ذلك نجد بعض الأصدقاء الغربيين يصفون عملية صور بالوحشية ، كأن المقاومة تنتظر اذنهم « الحضاري » ، كأننا ما نزال ننتظر البركة من عالم بقي مكتوفاً ونحن نذبح بالأيدي المتحضرة منذ عشرات السنين وكأن موتنا ليس كافياً كي يعلن وجودنا الذي يبحث وينتفض .

الجسد الذي ينحصد على الأرض المحترقة بالاحتلال والضحايا ، هو الاسم العربي الغائب في وعينا وعن وعينا . وهذا الجسد ، اذا لم يطور قدرته على المقاومة السلبية والايجابية ، اذا لم يقم هو بصياغة الاحتمال اللبناني الجديد ، فان الاحتمال الأخير لن يكون سوى التفتت والموت .

نصغي الى أيديهم المرتفعة في « أنصار » .

نصغي الى دمهم المنفجر في صور .

نصغي الى عيونهم الملتمعة بالموت .

ونسأل ، متى نسأل ؟

- ٣ -

ولا تكتمل الذبيحة الا في الشمال .

كنا نريد ، بعد حصار بيروت ومقاومتها الطويلة ، ان تبدأ مراجعة جذرية للتجربة ، ان يبدأ بعد كل هذا الموت نقد ذاتي حقيقي ، وان يتم الاختيار النهائي لحرية بيروت المحاصرة .

ان نختار حرية الحصار ، أي ان نختار تجربتنا ونتعلم من دروسها وأخطائها .

لكن الذبيحة تستكمل في الشمال ، قبل ان نطرح اسئلتنا .

لا نقد بل سلاح ، لا مراجعة بل الحرب . والحرب الحقيقية تجري في مكان آخر . بدل ان يكون الجميع على أرض الجنوب ، يسيل الدم في الشمال ، وبدل ان تراجع التجربة تنشب الحرب ، وبدل ان نسأل نسمع جواب المدافع .

ربما كنا آخر الشهود والضحايا .

ربما تكون طرابلس هي الباب الأخير ، قبل ان يستكمل الموت الذي عجزنا عن رده عن بيروت .

ومع ذلك ، ألا يحق لنا ان نصرخ بهذه الحرب أن تقف .

- ٤ -

الاضراب العام اليوم ، يجب ان لا يكون اضراب الجنوب وحده .

كل لبنان ، من طرابلس الى صور ، مدعو لأن يقول كلمته الأولى .

كل لبنان ، من فلسطين الى المغرب الأقصى ، سوف يطرح سؤاله .

ان نقول كلمتنا ، أي أن نبدأ باكتشاف لغتنا ، هـو ردنا الغـائب منذ سنوات طويلة ، هـو اعلاننـا باننـا جزء من هـذا المدى المزروع بـآلاف القتلى ، وفي الاعلان نستمع الى اسئلة الضحايا ونقف امام لحظة الحقيقة ، ونكتشف ان المقـاومة ، وسط هـذا العفن الـذي يحيط بنـا ، هي قـرارنـا الوحيد ، اذا كنا ما نزال نؤمن بان كل هذا الموت يعطينا الحق في أن نعيش وان نسأل ، وان نكتشف وجوهنا الضائعة .

٨٣/١١/٨

عادوا وقاماتهم لم تنحن وعيونهم لم تنكسر . عادوا وهم يرسمون على هذا الأفق العربي النحاسي ، علاماتهم .

أعراس الفرح التي تقام اليوم في الجنوب من اجل العائدين من رحلة الأسر الطويلة ، لا تقام لأن الرحلة انتهت . فالرحلة ما تزال في بداياتها .

أعراس الجنوب في أعراس المقاومة .

العائدون لا يعودون ، فالأسلاك تسور الجنوب كله ، والاحتلال يمسك بالأرض ، والانحلال العربي يفترس آخر ما تبقى .

لكننا نفرح معهم . نفرح للحرية التي ننتزعها معهم وبهم شبرا شبرا .

نفرح للأيدي التي حولت المعسكر الى مشاغل ومكتبات ومنتديات ثقافية وسياسية .

نفرح للعيون التي لم تنس ، نفرح للارادة التي احرقت الخيام اكثر من مرة ، ونتذكر الانفاق ، والذين دفنوا فيها احياء ، ونتذكر الدم الذي سال على اسلاك انصار ، نتذكر ولا ننسى . .

وعندما أطلت قاماتهم على الجنوب ، كبر الجنوب .

وعندما سألونا ، اكتشفنا كم نجهل الأجوبة ، واخبرناهم ان علينا ان نبحث عنها سويا .

اخبرناهم كل شيء ، وكانوا يعرفون .

اخبرناهم عن حروبنا الداخلية ، عن الموت الذي يكاد يفترسنا وسط جنون الطوائف ، عن امراء الحرب واسياد القتل .

اخبرناهم عن الذين منعونا من أن نرى عدونا ، وفتحوا في خاصرتنا الجراح التي تنزف .

اخبرناهم عن الجنوب ، عن المقاومة الوطنية ، عن الاضرابات والاعتصامات ،عن العمليات العسكرية ،عن احتمالات نمو المقاومة وتحولها الى حالة شعبية عامة .

اخبرناهم عن مؤتمر جنيف ، وعن كيف قرر السادة « عروبة لبنان » بالطريقة اياها ، وكيف انشغل العالم بامراء لبنان القادمين بهذه العقليات من أرض محتلة .

اخبرناهم عن المخطوفين والمحتجزين عن نساء دار الفتوى وحكايات الأبناء التي لا تنتهي .

اخبرناهم عن طرابلس ، عن الجرح الذي يحاول قتل آخر نبض فينا .

عن الشمال في مواجهاته واحزانه ، عن ارادة المقاومة التي لن تنحني .

اخبرناهم وكانوا يعرفون .

امامهم ، امام اعينهم المفتوحة لاستقبال الأشياء نقف على أطلال المدن المهدمة ، نقف ونرفض عصر الأجوبة .

نعلم كم كانت الهزيمة كبيرة ، وكم كانت المأساة بحجم التضحيات التي لا نهاية لها . لكننا نعلم أيضاً ان الهزيمة لم تستكمل نهائياً بعد ، وان داخل الانحطاط يحاول افتراس آخر ما تبقى ونعلم أيضاً ان المقاومة في داخل معسكر الاعتقال وفي خارجه كانت كبيرة ، وكانت هي الحلم بعد ان تمزقت الأحلام .

العائدون من أنصار وهم يحملون اشغالهم اليدوية وكتاباتهم وذكرياتهم ، سوف يكتشفون في كل مكان يذهبون اليه ، كم كانت مقاومتهم كبيرة ، وكم كانوا شهوداً وشهداء على اننا رغم كل شيء ، ما نزال نختزن القدرة على مقاومة الموت .

العائدون من انصار سوف يكتشفون ان عليهم ان يشهدوا للحقيقة . والحقيقة تكاد ان تضيع بين أرهاب العدو وسكين ملوك الطوائف . والحقيقة بسيطة وبالغة التعقيد . بسيطة لأنها تقول ان العدو الحقيقي هو المحتل الاسرائيلي وحليفه الأميركي ، وان مقاومة المحتل هي الطريق الوحيد لبناء وطن حقيقي . ومعقدة ، لأنها يجب ان تقال ضد الجميع . ضد اسياد النفط واسياد القمع واسياد الطوائف . ضد الزعبرة والخنوع والانحدار ، ضد الموت والقهر ، ضد القمع الذي يكاد يفترس المجتمعات العربية ويحيلها الى اشلاء .

الحقيقة التي يعرفها المعتقلون هي ان فلسطين تستحق كل هذا العذاب ، وان لبنان لن ينهض ويصير الى وطن قبل ان ينصهر في المقاومة ويعيد بناء نفسه بعد ان اكتشف هشاشة البناء الذي صنعه السماسرة وتجار السلاح .

ولأنهم الأكثر قرباً من تجربة المواجهة ،

لأنهم حين كانوا في الأسر ، كنا نحن جميعاً في اسر ،

لأنهم اليوم يخرجون من الأسر الى الأسر ، وندخل نحن معهم من الأسر الى الأسر .

هم يحملون في عيونهم التماعة المقاومة ، ونحن بعد سنة ونصف من الانتظار ومن محاولة النهوض نكتشف اننا ما نزال نقاوم .

نقول لهم ونستمع اليهم .

وحكايات انصار لا تنتهي . .

والرحلة تبدأ كل يوم .

٨٣/١١/٢٦

مدينة الرائحة

كان الرجل يقف وحيداً على الشاطىء ، والشاطىء يمتد وينحني . والرجل الوحيد لا يجد كلمات يقولها . اكتشف فجأة انه نسي الكلمات . اكتشف ان هذا الشاطىء مليء بالثقوب التي تتسرب منها روائح لم يعد يستطيع تحملها . سأل، حاول ان يسأل عن مصدر هذه الروائح ، فاكتشف بأن الناس لا تشم الرائحة . قالوا له انهم يتفرجون على التلفزيون، وميزة التلفزيون هي انه ينقل الصوت والصورة ولا ينقل الرائحة .

الرائحة تجتاح المدينة والمدينة نائمة . المدينة النائمة كانت لا تبالي . والرجل توقف عن الكلام . غرق في صمت الرائحة التي ملأت ثيابه وشعر رأسه. الرائحة تأكل كل شيء ، والرجل يدخل الى الحمام مرات لا تحصى ، يفتح الدوش ويترك الصابون ينساب ، والرائحة لا تذهب . بل صار للصابون رائحة تشبه رائحة المدينة . حاول الرجل ان يسمي الرائحة أو ان يصفها فاكتشف ان اللغة مقصرة في كل شيء . لا توجد اسماء للروائح . اللغة بقيت في الخارج ، لا تصف سوى الخارج ، اما الرائحة فلا يمكن تسميتها ، يمكن وصفها عبر تشبيهها ، كأن يقول ان رائحة المدينة تشبه رائحة المزبلة ، أو انها تشبه رائحة تراب مخلوط بالخرا ، أو انها كرائحة الجثث الممزوجة بقليل من الكولونيا . لكن هذه الرائحة التي تنتشر في ثيابه وعلى الأرصفة ، على الرغم من أنها تشبه جميع هذه الروائح لكنها مختلفة . انها اكثر حموضة ، أو أكثر قربا من الرائحة الحامضة . لكن الحموضة

ليست رائحة ، انها طعم يوحي برائحة لا اسم لها . عندما اكتشف الرجل عجز اللغة ، اكتشف عجزه وقرر ان يصمت ، لكن الصمت بدأ يمتلىء بالرائحة ، الفم يتآكل والاسنان وكأنها معرضة للسقوط دفعة واحدة .

وقف الرجل على الشاطىء ، ثم وجد نفسه في غرفة مقفلة. جاء جنود وامروه بمغادرة الشاطىء . لاحظ الرجل ان الجنود لا يتكلمون لغته ، فحاول ان يسألهم اذا كان للروائح اسماء في لغتهم ، لكنه خاف من الكلاب .

خطرت له افكار كثيرة .

فكر في الجثث التي لم تدفن ، أو التي بقيت تحت الأنقاض .

فكر في القنابل المضيئة التي تشعل الجبل كل مساء .

فكر في الحرائق ورجال المطافىء والركام والجرافات .

فكر في كل شيء تقريباً ، لكن الفكرة الرئيسية التي استولت عليه هي فكرة الكلاب .

فالكلاب الشاردة تكاثرت بشكل لا مثيل له في هذه المدينة . كلاب من جميع الأنواع والألوان . اسنانها بارزة والسنتها مدلاة كأنها تتساقط من أفواهها . كلاب مليئة بآثار العض والخدوش . هل توجد علاقة بين الكلاب وهذه الرائحة ؟ لم يستطع الرجل العثور على جواب ، لان جميع الذين سألهم كانوا غير مقتنعين بوجود الرائحة أصلا ، فكيف يفسرون أسبابها .

لكن رجلاً كهلا يبيع أوراق اليانصيب ويتثاءب دون توقف ولا يتزحزح عن الرصيف ، قال له انه يذكر انه عندما جاء الباذنجان الى لبنان ، امتلأت المدينة بالكلاب الشاردة . وعندما سأله الرجل عن الباذنجان ،

يتصدى لها ، لأن البـوارج التي يمتلىء بهـا البحر لا تخـافها ، فهي بوارج ضخمة ، كما ان المارينز منعوا من السباحة في مياه لبنان الاقليمية بسبب من تلوث البحر المتوسط ، فتجد المارينزي وسط الماء الشاسع ، لكنه يسبح في برميل أو في بركة صغيرة داخل سفينته الضخمة . . من هنا فالمارينزي غير مهتم بمطاردة كلاب البحر . هكذا نشأ هذا الواقع ، فنحن نريد ان نسبح ونصطاد ولكننا نخاف كلاب البحر ، وهم يرمون بقايـا الهمبرغـر والهوت دوغ في الماء ، فتأتي كلاب البحر وتقتلنا .

لكن الصيـاد الذي يـروي لا يعرف رائحـة كـلاب البحـر . عنـدمـا رأيتها ، قال ، لم أعد استطيع ان أتنفس فكيف أشم .

والصياد ليس مقتنعاً بمسألة الرائحة هذه ، فهو يقول ان بيروت كانت دائما هكذا ، وان الرجل الذي يشم رائحة غريبة لا بد وانه مصاب بمرض ما . اذ لا يعقل ان نشم الرائحة اذا كنا نعيش في وسطها . في البحر لا نشم رائحة البحر ، وفي المستشفى لا نشم رائحة المستشفى ، وفي المرحاض لا نشم رائحة الأشياء .

هكـذا وصل الـرجل الى الفشـل الكامـل . لم يقتنع بـأن المسألـة غير هامة ، وان الانسان يستطيع ان يتعود على كل شيء . تعـودنا عـلى الموت وعلى الحرب وعلى الهزائم وعلى الباذنجان وعلى الأميركان ، لكننا لا نستطيع ان نتعود على كلاب البحر ، فهي تقتل .

وكل شيء يقتل ، فكر الرجل ان كل شيء يقتل . وهو يتأمل صورة الطفل القتيل محمولا وسط ركام بناية الطريق الجديدة المهدمة .

لماذا لا يجدلونا تحت المحادل ونخلص ؟

لكن نيوجرسي لا تحمل محادل ، والمدافع والطائرات لا تحل المشكلة ، والرائحة تملأ المدينة .

٨٣/١٢/١٠

حرية القمع !

ليست مسألة حرية الصحافة والكتابة والنشر ، في ظل ظروف الاحتلال والحرب التي نعيش ، مسألة كمالية ، أو مسألة يمكن اخضاعها للنقاش الكمي أو ضربها أو « تعريبها » ، انها ، في ظرفنا اللبناني الراهن ، مرتبطة بمسألة الدفاع عن آخر ما تبقى ، عن حقنا في الحياة ، بعد ان جاءت القنابل وامراء الحرب وجيوش الاحتلال ، لتدخلنا في ظلام اليأس ومقبرة الانحلال .

لم يبق شيء ندافع عنه سوى حقنا في الدفاع .

حقنا في ان نميز ونبحث عن الحقيقة . حقنا في الاختلاف . حقنا في ان لا نصدق هذا السيل الاعلامي الذي يمطرنا بالأكاذيب ، حقنا في ان نقفل التلفزيون والراديو .، حقنا في أن نتنفس .

عندما يكون كل شيء مهدداً ، عندما تصبح الحياة نفسها مهددة ، فمن أي شيء نخاف ؟

عندما نرى التقسيم هاجماً علينا ، ونرى ونقرأ عن مشاريع اقتسام لبنان وتفتيته ، وعندما نرى هذا الانهيار الداخلي عبر عجز الطبقة المسيطرة وافلاسها ، ونرى الطوائف تنمو كالوحش ، والوحش الاسرائيلي يرعاها ويبشرنا بحروب لا تنتهي . .

عندما نرى كل هذا ، ونرى البيوت المقصوفة والأرض المحروقة من

الضاحية الى كل الضواحي ، فكيف نخاف ؟

ولأننا نرى فلا يحق لنا ان نسكت ، لا يحق لنا ان نكتب كأننا لا نكتب ، لا يحق لنا ان نهدر تاريخ حرية الكلمة في لبنان امام الخوف من زمن الاحتلال .

الكتابة اليوم قد لا تغير شيئاً ، قد لا تقول الكثير ، قد تعلن انها لا ترى الأشياء متكاملة ، لكنها أفضل من الرضوخ لهذا التهريج والكذب الذي ارهق آذاننا ، وعيوننا ، لهذا الانحطاط الذي ينمو كالفطر على جراح الهزيمة :

ونسأل :

لماذا تكون مقاومة الاحتلال الاسرائيلي بالسلاح ممكنة . وتكون قدرتنا على التعبير عن واقعنا بمثل هذا الضمور ؟

لماذا لا يستطيعون منع الذي يحدث ، فيمنعون الكتابة عنه ؟

لا أرى سوى تفسير واحد ، فبعد ان انهار كل شيء لمصلحة المؤسسات الطوائفية ، على الكتابة ان تنهار وعلى الحرية أو آخر ما تبقى منها ، وهو قليل قليل ، ان يندثر نهائياً . .

ان ما بقي لنا في زمن الاحتلال والانحلال هذا ، هو ان نكتب وان نقاوم : نقاوم ، فتسمى مقاومتنا « اعتداءات على القوات الاسرائيلية » . نقاوم ، فتصادر مقاومتنا لمصلحة حروب الطوائف التي هي الوجه الآخر للاحتلال . نقاوم ، فنقتل الف مرة قبل ان نصل الى عدونا .

نكتب ، فنصادر او نمنع أو نتلفز أو تأكلنا الاغراءات والقيود .

وعندما تصادر الكتابة فهذا يعني دفعها الى « الحصن » الذي لا يمكن المس به ، الى اعتاب الطوائف ، حيث تفقد الكتابة معناها لكنها تحمي

نفسها من القمع .

هل هذا هو الهدف ، فرض الانقسام والتقسيم والشرذمة . اهـذا هو معنى وحدة لبنان كما تفهمه السلطة ؟

حرية القمـع ، الحريـة للذين يستطيعـون قمع الآخـرين ، اما نحن الذين لا نملك سوى كلماتنا ، فعلينا ان نخضع أو ان نسكت او ان ننتظم في جوقة مديح السلطة أو جوقة الالتحاق باحدى الطوائف .

لكنهم يسيئون تقديـر قدرة الكتـابة عـلى الدفـاع عن نفسها ، وقـدرة المقاومة على صياغـة مستقبل لبنـان ، لذلـك فاننـا سنمسك بحـريتنا حتى النهاية . فحريتنا ليست منة من احد . انها المعنى الـذي بنيناه عبـر تاريـخ طـويل ، وحجب هـذا المعنى أو خنقه يعني الغـاء بيروت . فبيـروت التي قاومت الحصار الطويل ولم تنحن لكل جيوش الأرض، هي بيروت الحرية ، التي لا يستطيع احد ان يصادرها مهما بدا قويا .

لن نسأل لماذا هـذا الأعجـاب بـالنموذج السلطوي العـربي في وقت يقترح فيه لجنة خبراء لتقرير هوية لبنان ؟

هم احرار في اعجابهم ، لكنهم لن يجدوا الطريق سهلا لتحويـل هذا الاعجاب الى سياسة تطبق .

هم احرار وفي ولعهم بهذا النمط من الكتبة الذين لا يقولون شيئـاً ، ويحجبون الحقيقة .

هم احرار في ان يحاولوا تطبيق « عروبتهم » ضد مقاومتنا وكتابتنا .

لكننـا ونحن نرى الى قمعهم ، ونحن نـرى طبقـة كـاملة تنحـدر الى مشارف الانحلال ، وتريد دفع الوطن بأسره الى الهاوية معها ، نقول بكل هدوء ، كلا أيها السادة .

إذا كنتم تريدون تدمير لبنان لأنكم في مأزق فنحن لا نريد تـدميره ، نريد استعادته وتوحيده ، انتم تـراهنون عـلى الاحتلال ونحن نـراهن على مقاومته .

لذلك من الصعب ان نلتقي .

لذلك نحن نكتب وانتم تصادرون الكلمات .

لكن الكلمات أقوى .

٨٣/١٢/٢٩

١٩٨٤ : الأوهام والنبوءات الكاذبة

مع اطلالة عام ١٩٨٤ ، امتلأت الأجواء باخبار المنجمين وتوقعاتهم ، من نوسترا داموس الى ياجوج وماجوج . وكان هناك ما يشبه الاجماع على ان هذا العام سيكون فاصلا في مسيرة نهاية العالم !

هكذا وضعنا العالم ومنذ اللحظات الأخيرة لعام حافل بالأحداث والمآسي امام توقعات اكثر سوءا . كأن التنجيم والخزعبلات والأنبياء الكذبة صارت هي المرجع الوحيد الذي يجب العودة اليه كي يتقرر مصيرنا على ضوء قراءتهم لحركات النجوم وعلاقات الكواكب . وبدلا من ان ننظر الى الحصاد الدموي لعام ١٩٨٣ ، صار علينا ان نرتجف خوفا من انقضاء العام الماضي ، لأن العام الحالي يبشرنا بكوارث كونية !

وشيوع التنجيم في لبنان ليس مجرد استيراد للموضة الشائعة في اميركا حيث تزدهر العلوم « الروحانية » جنبا الى جنب مع ازدهار التكنولوجيا والعلوم النووية والفضائية . وكأن الأولى هي الوجه الآخر لهذا الوحش التكنولوجي اللاعقلاني الذي يضع الاعلام مع ادارة الرئيس ريغان المتعشقة للقوة على شفير الحرب . اما عندنا فالمأساة مختلفة . فبعد شيوع الخطف والقتل ازدهرت صناعة السحر والشعوذة لأن لا شيء يستطيع تفسير جنون الخطف والذبح سوى السحر الذي يعطي طمأنينة وهمية أو معلومات أو يدعونا الى الصبر .

اما مع نهاية العام الماضي ، فلقد حدث انتقال نوعي ، اذ حلت

النبوءات بالكوارث مكان كل شيء آخر . وبدلاً أن نتساءل عن حصاد حرب الجبل مثلا صرنا نتساءل عن موعد نهاية العالم . وبدلا من أن نسأل الى اين وصلنا في تحقيق « الانسحابات » الموعودة صار التساؤل المفروض علينا هو متى ينتهي العالم وتحترق الكرة الأرضية ونخلص من مشكلتنا مع خلاص العالم من وجوده !

هذه السيادة للفكر « الروحاني » وللنبوءات الوهمية ، هي النتيجة الطبيعية التي أوصلتنا اليها طبقة سياسية فشلت في بناء الوطن عام ١٩٤٣ ، وتحاول الآن ان تعيد الحكاية نفسها . ففي عام ١٩٤٣ استقالت ولزّمت قيام الوطن للتوازنات الدولية والاقليمية ، وها هي اليوم تكرر الحكاية نفسها دون ان تجد ملتزماً جدياً ! « فنيوجرسي » تقضي عطلتها في ميناء حيفا وريغان يتحدث عن انسحاب المارينز الذي صار وشيكاً بعد ان قدم لبنان البهدلة الأخيرة للتكنولوجيا المتقدمة ، والطبقة الحاكمة في حيص بيص ، لا تعلم كيف يمكنها انقاذ نفسها .

منذ اتفاق ١٧ أيار الذي أخرجه الوزير الأميركي شولتس كما يخرج الساحر من جيبه زوج حمام ، والطبقة الحاكمة تعيش في الوعود المخادعة . نعود بالذاكرة قليلا الى الموجة الاعلامية التي اعقبت الاتفاق والوعود التي انهالت والانتصارات الوهمية التي سجلت ، كلها تدلنا على مدى توغل العقل الخرافي النابع من العجز الشامل لدى طبقة سياسية لا هم لها سوى تأمين مصالحها الضيقة والمباشرة .

وبدلاً من التساؤل الى اين أوصلونا ، تأتي التباشير الخرافية لتحدثنا عن النبؤات وعن العوالم اللامرئية وعن نهاية العالم المنتظرة .

فعلا هناك عالم انتهى . هناك جثة نحملها على ظهورنا ورائحة تفسخها تنتشر في كل مكان ، ونحن نبحث عن مصدر الرائحة وننسى اننا

نحمل الجثة على ظهورنا فمتى نرميهـا الى الأرض ونحفر لهـا قبراً يليق بهـا ونبحث عن شيء آخر ؟



ولأن الشيء بالشيء يذكر ، فلقد استوقف الجميع هذا الحديث الجامع الذي نشرته جريدة « العمل » للسيد سمير جعجع في اليوم الأول من عام ١٩٨٤ . والسيد جعجع كما هو معروف كان قائداً للقوات اللبنانيـة خلال حرب الجبل التي انتهت بكارثة على القوات وعلى سكان الجبل وعلى النظام اللبناني .

وبدلا من أن يقيم نتائج هزيمته ويعيد النظر في تحالفه مع قوات الاحتلال الاسـرائيلي التي لا تـريد سـوى تفتيت لبنان ، حـدثنا السيـد جعجـع عن الفلسفة والميتافيزيق وعن المسيرة الكونية التي يطمح الى قيادتها . تكلم كما يتكلم المنجمون أو كما يتكلم استاذه في الفلسفة شارك مالك ، تكلم كأحد الأنبياء دون ان يعير اي اهتمام للتفاصيل . فالسيد جعجع يكره السياسـة والسياسيين ولا يحب ان يضيع وقته وله تفسير ميتافيزيقي للتاريخ وهو نبي لم تكتمل دعوته بعد . الى آخره . .

لعل مأساة جعجع تكمن في كونه الابن الشرعي للنظام الـذي يدعي الثورة عليه . فتسويات ١٩٤٣ و ١٩٥٨ لم تعد ممكنة ، فجـاءت الفاشيـة لتشكل بطروحـاتها مخـرجاً لفسـاد النظام وانقـلاباً عليـه من داخله . لكن انقلابها كان قاصراً منذ البداية ، لأنه كان انقلاباً مرتبطاً بالطبقة التي تدعي الثورة عليها من جهة ، ومتواطئاً مع العسكرية الاسرائيلية التي لا تريد منه سوى ان يكون ضحية تقدمها من اجل احتلال الجسم العربي .

لذلك وامام الفشل المزدوج لا يجد السيد جعجع مخرجاً سوى اللجوء الى النبـوءات وادعـاء الحكمـة . . ويفقـد كـل كـلام سيـاسي منـطقي

ومتماسك ، لأنه قام « بثورته » ضد الثورة فاجهض جيلا وصار مجرد اداة في يد الآخرين .

من نوسترا داموس الى المسيرة الكونية . كأن هناك اكثر من خيط يربط الأشياء ببعضها . . أو كأن المأساة اللبنانية تستمر أساساً بفعل هذا الجيل من القادة الذي انجبه الجيل الذي سبقه ليشكل استمراراً للفشل واستمراراً للانحدار حتى القعر النهائي .



لكن اسرائيل ، على الرغم من التهاء بعض حاخاماتها بقصص ياجوج وماجوج، وعلى الرغم من ازمتها الناجمة اساساً عن غزوها للبنان وعن خسائرها التي تجبرها على دفعها مقاومة وطنية لبنانية تنهض من الركام ، اسرائيل على الرغم من كل ذلك ، تدفع بطائراتها لشن الغارات الوحشية على بعلبك . تنتقم من اطفال المدارس ، معتقدة انها بذلك تستطيع ان تستعيد البريق الذي فقدته مع تعفن احتلالها .

ما يجب ان نبحث عنه في بداية عام ١٩٨٤ ، هو كيف نقاوم الغارات ونطرد الاحتلال ونبني بلدا ، بدلا من التلهي بالنبوءات وبمطالب امراء الحرب وأوهام زعماء الطوائف المنحطة .

فالمواجهة التي يسعى الفكر الخرافي لتأجيلها أو لافراغها ، لا يمكن أن تتأجل، لأنها تجري في كل لحظة وفي كل مكان من لبنان. طبعا يستطيع الزعماء التعليق على الغارات الاسرائيلية بكلمات لا معنى لها او يستطيعون الصمت . . لكننا لم نعد نستطيع ان نحتمل هذا الموقف السائب ، هذه الحرب التي تدور ضدنا كل يوم ونحن لا يحق لنا ان نقاوم آلات الدمار التي تقتلنا .

قد يستطيع ادعياء النبوة ان يطمئنوا انفسهم وان يدعوا ان مشاريعهم

ما تزال قابلة للحياة ، اما الناس الذين يقتلون كل يوم بالغارات أو بالمذابح الجماعية فانهم اذا صدقوا هؤلاء الأنبياء الكذبة يكونون كمن يفلسف موته ويدعو الى نهايته .

اخبار الجنوب تقول عكس ذلك . ونحن على الرغم من كـل الجراح التي نجح الانحطاط الطوائفي في احداثها ، ما نزال بقادرين على النظر الى زمن الخزعبلات بوصفه زمن بـداية انحـدار الفاشيـة ، وزمن قدرتنـا على النهوض من ركام الموت لنواجه الموت القادم .

٨٤/١/٦

أفق للمقاومة

الجنون الاسرائيلي في صيدا ، الهجمات على مواقع المارينز في بيروت ، العمليات العسكرية والانتفاضة الشعبية الدائمة في الجنوب . . كلها مؤشرات على ان الأفق الوحيد المتاح في الوضعية اللبنانية هو أفق مقاومة الاحتلال الاسرائيلي .

شعار مقاومة الاحتلال ، الذي بدأ منذ سنة وكأنه مجرد تمنيات ، وسط حملة التهريج التي بشرتنا بالانسحابات وبقيام الدولة القوية .

وهذا الشعار يأخذ اليوم شكله الملموس والحقيقي ، بوصفه الطريق الوحيد لاجبار المحتل على الانسحاب ، ولبناء أفق وطني وديمقراطي للوضع اللبناني المهترىء بالصراعات الطائفية .

غير ان المقاومة ما تزال في بداياتها ، وفي البداية لا تنكشف الصعوبات الحقيقية ، وفي البداية أيضاً ، يجب ان نعيد النظر في الهزيمة كي نستطيع ان نبني من خلال المقاومة افقا وطنيا جديدا . فالمؤشر الايجابي الرئيسي ، وسط حالة الاحباط والتراجع ، هو قدرتنا على ان نقاوم الاحتلال وان نرفض الأمر الواقع المفروض بقوة السلاح . . لكن المقاومة اذا لم تتحول الى مدخل لاعادة فهم الواقع اللبناني بأسره ، فانها مهددة بأن تصبح جزءا من اللعبة الداخلية التقسيمية ، وهكذا تفقد معناها لتسقط في مستنقع الطوائف .

المقاومة الوطنية تواجه عقبات كبيرة واكثر من أن تحصى :

فهي لا تقوم داخل شعب موحد ، بل تقوم وسط حرب أهلية بـدأت تأخذ من هزيمة الحركة الوطنية اللبنانية عام ١٩٧٦ ، طابعاً طائفياً ، إلى أن جاء الاحتلال واعادنا عبر حرب الجبل الى اجواء التناحر الماروني الدرزي في القرن التاسع عشر .

ان تنهض المقاومة وسط هذا الوضع الداخلي الممزق ، فـان هذا يعني ضرورة وعي صعوبـات الولادة داخـل رحم الحرب الأهليـة وفي مواجهـة الاحتلال المستند هو الآخر الى الحـرب الأهلية نفسهـا . الاحتلال حـاول ويحاول ان يجعل من الحرب الأهلية جزءا منه ، والمقاومة تحاول ان تجعل من الحرب نفسها جـزءا منها . وفي هـذا الصراع بـين هاتـين الوجهتـين تدور الصراعات كلها . الاحتلال يـراهن ، بعد ان فشـل الحلم الامبراطـوري الاسـرائيلي ، عـلى التفسخ الـطوائفي الذي قـادتنا اليـه محـاولات الهيمنـة الفاشية ، فعبر هذا التفسخ يطمح الاحتلال الى عقد صفقات منفـردة مع امراء الحرب وزعماء الطوائف تضمن سلامة حدود اسرائيل من جهة ، كـما تضمن تمزيق لبنان الى وحدات طائفيـة شبه منفصلة ، ممـا يعني تحويله الى قنبلة موقوتة جاهزة للتفجير في أية لحظة . اما المقاومة فهي تسعى الى تغليب هم مواجهة الاحتلال على كل هم آخر ، بمعنى انها وحدها ، من يستـطيع ان يحمـل مشروعـاً توحيـدياً ، لأنها بـرفضهـا عقـد الصفقـات مـع دولـة الاحتلال ، تلغي كل الصفقات الأخرى ، وتفرض منطقاً جديداً على تطور الوضع اللبناني .

وعلى الرغم مما يبدو من غلبـة لاتجاهـات التقسيم والانقسام ، وعـلى الرغم من الهستيريا الطائفية التي وصلت الى أعلى درجات التعبئة الممكنة ، فان المقاومة تنمو . تنمو دون مشروع سيـاسي وطني يحتضنها ، تنمـو ضد جميع المشاريع المطروحة ، وكأنها بعـد كل شيء ، هي التعبـير الأخير عن طاقة الحياة في مجتمعنا المفكك .

نمو المقاومة الوطنية وآفاقها . . هذا هو السؤال الكبير .

فحتى الآن ، لم تستطع المقاومة اختراق سقف التسويات الطوائفية التي وعدنا بها مؤتمر جنيف الأول ، والتي يعد بها جنيف الثاني . فكل « الجنيفات » ، لاهم لها سوى في استيعاب هذا التحول الذي نشهده في الجنوب أساساً ، فعهد التسويات التي من هذا النوع انتهى مع دخول اسرائيل طرفاً في المنطقة . هنا يجب تقديم خيار نهائي : اما الخضوع لمنطق الاحتلال الاسرائيلي الأميركي او مقاومته . الخضوع يعني الحرب والمقاومة تعني الحرب .

لكنها تفاجأ بأن هذا المنطق التسووي الذي قامت عليه التجربة اللبنانية « الفذة » قد تساقط الى الأبد . وهي تفاجأ وتحزن لأن الطبقات الحاكمة العربية لا تتفهم وضعيتها ، وهذا صحيح الى حد كبير ، لأن الطبقات الحاكمة العربية لن تتفهم وضعية الطبقة الحاكمة اللبنانية إلا عندما تصير في وضع مشابه ، وعندها يكون قد فات الأوان على الجميع .

المقاومة الوطنية تواجه سقف الانقسامات اللبنانية بقرار شبه موحد يقضي بتحجيمها وبتحويلها الى مجرد اداة صغيرة في حرب أهلية صغيرة لم تعد تملك اهدافاً كبيرة . فالكانتونات او ما يشبهها ليست اهدافاً تستحق الحرب ، لكن الحرب تريد من اهدافها الصغيرة ابتلاع امكانية ان ينمو الجديد وان يكبر .

المقاومة الوطنية تكبر في مواجهة الاحتلال . لكن آلية المواجهة وانعكاساتها على الوضع السياسي اللبناني الراهن ، لم تسمح لهذه المقاومة بأن تكسر البنى التقسيمية التي تزداد رسوخاً .

ماذا تريد البنى التقسيمية ؟

الطائفية لن تكون قابلة للحياة ، ولأن الحياة قادرة على ان تشق طريقها وسط ركام الموت الذي يحيط بنا .

٨٤/١/١١

دولة الشعر « الفصيح » !

بعد أن انتهت الحفلة التنكرية التي اقيمت على شرف جبران خليل جبران ، وتوجت بجناز اقيم على راحة نفسه ! ، يبدو اننا دخلنا في مرحلة حفلات جديدة بدأت بتكريم الياس ابو شبكة ، ولا نعلم الى اين يمكن ان تصل .

ففي الحفلة التي اقامتها مجلة « الاوديسية » للياس ابو شبكة ، صباح الأحد ٨٤/١/٢٩ ، في ذوق مكايل ، بدأنا نستمع الى الايقاع نفسه الذي اسمعونا اياه على ايام حفلات جبران ، لكن ايقاع حفلة ابو شبكة اكثر خفوتا ، ربما لأنه لم يكتب باللغة الانكليزية ، وهذا يقلل من قيمته بنظر اصدقائنا الاميركيين من مبعوثين ومارينزيين وبوارج وطائرات .

أنا لا أريد أن اناقش حرية الجميع في قراءة النتاج الادبي كما يريدون فالنص الأدبي هو ملك الجميع ، والجميع يملكون الحرية المطلقة في أن يفهموا الشعر كما يريدون . لكن ما استلفتني في حفلة ذوق مكايل هو الخطاب الذي القاه وزير الدفاع والتربية عصام خوري . حيث تبين ان صاحب المعالي يملك مجموعة من الآراء في تطور الشعر الحديث ، وان مواهبه تتعدى عمله الوزاري ، الى الحقل الأدبي الذي قرر ان يضعه تحت رعايته . هكذا طلع علينا الوزير بمجموعة من التصورات والآراء يمكن ان تندرج تحت باب علم الجماليا واللبنانولوجيا وبقية الكلامولوجيا التي ابدعها سعيد عقل وتلامذته كي يبرهنوا عن مبلغ الضمور الفكري الذي صاحب

الرمزية اللبنانية .

والوزير لم يكتف بان وعدنا برعاية الدولة للأدباء ، هذه الرعاية التي نستعيذ بالله منها ، فلا نحن بقطيع ولا هم برعاة ، بل حدد لنا شكل الرعاية . إذ حدد للشعراء واشكر الله على انني لست واحدا منهم ، الكيفية التي يسمح لهم بها بالتجديد .

الوزير تحدث عن مأزق الشعر ، « فبعضهم يحاول ان يجعل منه اضحوكة والعوبة وهذيانا ويقتل فيه العصب » وهؤلاء « يقومون باغتيال الجمال » ، و« اللبناني ضد الفوضى والشعوذة والتزييف » .

ولو حذفنا موضوع خطاب الوزير لاعتقدناه يتحدث عن الزعماء السياسيين ، او لاعتقدناه يهاجم القوات الاجنبية المحتلة ، او لافترضنا انه يقوم بعملية نقد ذاتي للممارسات السياسية التي اوصلتنا الى الفوضى والشعوذة ، وقطع الكهرباء وإلى آخره . .

لكن الوزير يريدنا ان ننخدع فهو يتحدث عن الشعر ، ينصب نفسه ناقدا ادبيا ، او يقوم البعض بتنصيبه في هذا الموقع ، وتبدأ عملية اغتيال صامتة مغفلة للشعر والشعراء ، تحت اسم الدفاع عن القيم .

تعليق الوزير خوري لم يستوقفنا لانه يحمل جديدا فكريا او وجهة نظر نقدية جديدة ، فكلامه هو جزء من جوقة تصدح ولا تجد من يرد عليها او يلتفت الى كلامها . . لكن ان تقوم الدولة بتبني هذا الكلام ، وتطحش به انطلاقا من حرصها على رعاية الأدب والأدباء ، فهذا يعني ان الأمور وصلت الى درجة صار من الضروري ان نقول لكم اسمحوا لنا بها . اسمحوا لنا ان نقول لكم ان ما نطلبه هو ان تحلوا عن الأدب والأدباء . . فنحن لا وقت لدينا كي ندخل في سجالات عقيمة عن معنى التجديد ، فالذي يريد ان يحاضر فينا عن التجديد عليه على الأقل ان لا يكون جزءا

من دولة طائفية قائمة على افكار العصر الحجري ، بعدها نفكر في ان ندخل في نقاش حول مضمون كلامه .

والذي يريد ان يعظ في موضوع الأدب ، عليه ان لا يتكىء على سلطة الدولة كي يفحم بها خصومه . لأن هؤلاء الخصوم مهتمون بكيف لا يسمحون للقوى الطائفية المسيطرة بتفكيك لبنان وتقاسمه على قاعدة ملكيات وهمية للطوائف .

فقط نريد ان نقول انها « قديمة » هذه المواعظ سمعناها من انظمة عربية أخرى ، بعضها منع الشعر الحديث كليا لأنه « ضد التراث » ، وبعضها الآخر لا يعترف إلا بالشعر الحر ، وبعضها ما زال مصرا على رأي ابن قتيبة في « الكلام الموزون المقفى » ، ومصيبته هي جهله بالتراث العربي ، وجهله بما كتبه الفارابي عن الشعر ، حتى لا نسوق امثلة تكاد لا تنتهي .

كما نريد ان نقول ان هذا الفيلم الذي بدأ منذ سنة ونصف حول رعاية الأدب والأدباء ، اي الهيمنة على الثقافة اللبنانية يجب ان ينتهي . فالقوى التي ادعت الهيمنة ليست بقادرة على ان تقدم الحد الأدنى الثقافي المقبول ، فبدت هيمنتها كاريكاتورية ، لا مجال لها سوى بعض الندوات الفاشلة او البرامج التلفزيونية او « التشبيح » الاعلامي الذي اهلكنا بالخطابات المكررة والأفكار المعروفة و« التجليط » الذي يختبىء خلف إدعاء الجدية . وهي قوى عاجزة تحديدا عن التعاطي مع الشأن الثقافي ، لا تأتيه الا تسللا عبر مجلات تستعيد الماضي الذهبي وتتباكى على الاطلال ، او عبر تكديس المثقفين حول « رأي » والكلام الفارغ الذي لا يريد ان يقول شيئا بينما يدعي انه يقول كل شيء .

القمع ، هذا النوع من القمع الذي يختفي خلف القيم ، يقمع ويدعي انه مقموع ، يضطهد ويدعي انه مضطهد (بفتح الهاء) ، هذا

النوع نعرفه جيدا ونعرف انه يدعي التعصب للاصالة ، او يدعي الحرص على الحداثة ، من اجل ان ينجح في خنق جميع الأصوات التي تحاول البحث عن الحرية والابداع ، وتحاول ان لا تستسلم لهذا الزمن الانحطاطي الذي يفترس كل شيء .

اما الياس ابو شبكة فله الله ، وله شعره . لم يكن ابو شبكة محتاجا في اي يوم لتكريمكم حتى تقوموا اليوم باستخدامه كمعبر لشتم الادب ومحاولة وضع اليد عليه . ابو شبكة ينتمي الى مرحلة تاريخية بحاجة الى دراسة وتقييم وليست بحاجة الى هذا النوع من الحفلات التكريمية التي تعتدي على الأدب بأسمه .

وكلمة أخيرة نسوقها الى بعض المتأدبين الذين يختفون خلف كلام الوزير ، فهؤلاء يعتقدون ان كلام السلطة يعطيهم بعض القوة وبعض اوهام السلطة ، لكنهم يعرفون ان المسألة الثقافية اكثر تعقيدا من هذا بكثير ، ويعرفون ان السلطة لا تستطيع ان تفرض سلطة ثقافية ، مهما كانت السلطة قوية ، فكيف إذا كنا في لبنان ، ووسط هذه الأجواء وهذه الحروب وهذه البلبلة .

الشعر الحديث ليس محتاجا الى وصفات او « روشتات » ، قيمته انه يبحث ويجرب ويحاول . . اما اصحاب « الروشتات » فلا علاقة لهم بالتجربة او المحاولة . فصاحتهم مكررة وكلامهم ثقيل وافكارهم تحتاج الى الكثير من الجهد كي تستقيم افكارا . .

ومرة أخرى ، هذه الحفلات لا تعطي جديدا ، هذا التكريم ليس تكريماً ، هذا الاستغلال يثير الشفقة والرثاء .

أما قضية تدخل الدولة في الثقافة ، ومساعدات وزراة التربية للهيئات الثقافية وطموحات رئيس المجلس الوطني للعلاقات الاقتصادية الخارجية لاقامة مركز ثقافي على نسق مركز بوبور . . فهذه مسائل لها حديث آخر .

٨٤/١/٣١

وداعاً أميركا !

صفحة تنطوي . قرار ريغان بسحب المارينز وبقية الجيوش الاطلسية من بيروت ، يطوي صفحة احدى اهم نتائج الغزو الاسرائيلي واجتياح بيروت في صيف ١٩٨٢ . فالرئيس الأميركي يكتشف متأخرا ان الشعوب لا يمكن اخضاعها بالعصا او بمواسير المدافع ، وان العالم اليوم لا يشبه عالم ما قبل حرب فيتنام ، وإن لبنان ليس أرضا سائبة حتى يسمح للرئيس الأميركي او لأصدقائه الاسرائيليين بأن يفرضوا عليه نظاما سياسياً بقوة المدافع او بحاملات الطائرات .

جاء المارينز كي يقيموا لنا حكومة مركزية قوية ، وكي يجعلوا من لبنان جزءا من العالم الحر والمتمدن ، وكي يعلمونا اصول ديمقراطية الرقابة والقمع . جاءوا من أجلنا ، اي من اجل تدريبنا على الطاعة والركوع وتعويدنا على المذابح ، وتدجيننا على طريقة جمهوريات اميركا الوسطى ، حيث المستشار الاميركي هو الحاكم الفعلي . جاءوا بديمقراطية القصف والقتل ونيوجرسي . جاءوا وهم يعتقدون ان الاجتياح الاسرائيلي قد انهى كل شيء . وانهم يستطيعون ، بعد ان قام شارون بالعمل القذر ، ان يحصدوا لبنان وان يحولوه الى محمية اميركية .

لكن المسألة كانت أكثر تعقيدا من ذلك بكثير .

فخلال سنة ونصف استطاع النظام اللبناني ، بفضل المستشارين الاميركيين ، ان يفرض على البلاد إقامة اوسع جبهة معارضة تقام ضد نظام

لبناني وهو ما يزال في بداية عهده . من الخطف الذي ارهب الناس وكفرّهم ، الى الكلام عن تحالف الأقليات والغالب والمغلوب ، الى اتفاق ايار المشؤوم ، الى حرب الجبل ، الى ارسال وفد الى اسرائيل لطلب مساعدتها العسكرية ـ فيما الضاحية تئن تحت نيران القصف الوحشي ، هذا دون ان نتكلم عن المستشارين والاعلاميين والاقتصاديين الذين تصرفوا وكأن البلاد هي مزرعة خاصة لهم . هكذا ، فمن خلال سنة ونصف من السياسة الخاطئة ومن الكلام الذي من دون رصيد وجد الرئيس الأميركي نفسه مهزوما في لبنان قبل ان يخوض اية معركة ، جنوده يقتلون بالمئات ، مدافعه عاجزة عن حماية النظام ، خبراؤه عاجزون عن إقامة جيش متماسك يرضخ لأوامر الفاشية ، واتفاق ايار ليس اكثر من مظاهرة اعلامية على شرف وزير خارجيته السيد جورج شولتس .

امام هذه العزلة الخانقة ، وبعد انتفاضة بيروت يوم الاثنين الماضي ، وانحسار تجربة الحكم المركزي القوي الى مجرد لغو اعلامي لا معنى له ، وجد الرئيس ريغان نفسه عاجزا عن التصرف ، فهو امام خيارين : المغامرة العسكرية من اجل انقاذ نظام لا يتمتع بأي دعم شعبي ، وهي مغامرة غير مضمونة النتائج ، او الانسحاب واطلاق الكلمات الكبيرة الدخانية كي تغطي الهزيمة . .

هكذا يثبت لبنان مرة أخرى ، ان مسائل قهر الشعوب واخضاعها ليست بالبساطة والفهلوية التي اعتقدها الأميركيون . فلبنان ، بعد كل هذه التجارب التي عاشها ، ليس لقمة سائغة ، وشعبه ليس الهنود الحمر ، ومشكلته لا يمكن حلها على الطريقة التي حل بها الفرنسيون حرب ١٨٦٠ ، عندما ارسلوا جيشهم ليعلمنا الحضارة !

لسست ادري ماذا سيخبر المارينزيون المنسحبون اهلهم في اميركا عن تجربة بيروت . هل سيخبرون انهم عوملوا كما تعامل الميليشيات، وان اطفال

حي السلم كانوا يلبسون ثياب الهنود الحمر ويرقصون امامهم من اجل إخافتهم . هل سيخبرون كيف كان المقاتلون يلبسون الأكفان ويتمايلون بين انصاب المقابر من اجل اخافتهم وإخافة رفاقهم المتعددي الجنسيات ؟ هل سيخبرون كيف اطلق على رئيسهم لقب رئيس الميليشيا ، وكيف كان بعضهم يبكي وهم يستمعون في مكبرات الصوت الى التهديد . . هل سيخبرون ان موت رفاقهم في المبنى المدمر كان لا معنى له . هل سيخبرون انهم جاءوا الى لبنان ليدافعوا عن نظام يقتل شعبه بلا رحمة ، وعن فاشية صغيرة اعتقدت انها تستطيع الاستيلاء على السلطة عبر التشبيح والاستعانة بحراب الجيوش الأجنبية من اجل فرض سلطتها التي لا مقومات داخلية لها .

لا شك ان المارينزيين المغادرين لبنان سوف يخبرون الكثير من القصص ، وسوف ينقلون لقيادتهم الدرس البليغ الذي تعلموه من بيروت . فهذه المدينة اثبتت انها عصية على الاحتلال وعلى القمع والارهاب .



من المؤسف اننا لا نستطيع توديع الأميركيين بحفلة تليق بهم ، فهم يغادرون بسرعة غير متوقعة ، مجرجرين وراءهم فشل مشاريعهم ومستشاريهم . . ونحن منشغلون بإعادة اصلاح ما تم تدميره مرة اخرى بفضل اسلحتهم وقذائفهم .

غير ان المسألة الكبرى التي يواجهها لبنان ، ما تزال من دون حل . . فالخطر الفاشي حتى بعد انحساره الكبير وانتقاله الى الدفاع ، ما يزال يهدد كل شيء ، طالما بقي الاحتلال الاسرائيلي مصرا على مشاريعه التقسيمية للبنان .

فالمعركة التي فرضت بعد الاحتلال الاسرائيلي وبعد جنون الفاشية الطائفية التي انتصرت به ، اتخذت لنفسها اشكالا متعددة ، جوهرها كان رد فعل دفاعي امام الجنون الفالت من عقاله . كأن الفاشية كانت تريد أما تركيع الجميع او فرض الخيار الطائفي الحاسم عليهم ، بما يحمله ذلك من خطر على الجنوب ، ومن تجميد المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي .

غير ان الحسابات الأميركية كانت مخطئة كليا . . فلقد استطاعت المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي ان تعطي المعنى للنضال العام ضد سيطرة الفاشية . فالنضال ضد الفاشية عبر الغرق في لعبة الحرب الأهلية دون قتال الاحتلال ، كان سيعني ان الاحتلال قد فرض منطقه المطلق على لبنان . المعنى الذي اعطته وتعطيه المقاومة الوطنية هو الذي انقذنا من لعبة التدمير الطوائفي ، وهو الذي فرض سحب القوات الأطلسية تمهيدا لفرض سحب جيش الاحتلال الاسرائيلي من الجنوب .

لكن المسألة لن تحل ببساطة . .

إذ ان مشاريع التقسيم والكانتونات ما تزال تلوح في الأفق . بل قد يكون الانكفاء الفاشي في المناطق الشرقية مقدمة لإدخالنا في دوامة التقسيم والكانتونات واستعادة اجواء الحرب الأهلية والخوف وإلى آخره . . . علما ان لغة التقسيم صارت غير واقعية ، بعد ان انكشف مبلغ هزال الفاشية ، وبعد ان تم التخلي الغربي عنها بهذا الشكل الدراماتيكي الذي اعلنه الرئيس ريغان .



الوضع يدخل اليوم منعطفا جديدا . . والمنعطف يأخذ لنفسه اكثر من شكل . على المستوى الداخلي اللبناني يجب ان يعبر عن نفسه ضمن اتجاه وفاقي حقيقي . اي ضمن اتجاه يعي ان اسقاط الفاشية ليس مرادفا للتفتت

الطوائفي ، بل هو نقيضه . . ومتابعة المقاومة ضد الاحتلال الاسـرائيلي ، لإخراج اسرائيل نهائيا من المعادلة اللبنانية ومن اجل تحرير الجنوب .

قـد تكون انتفـاضة بيـروت هي المؤشـر الأول عـلى السـير في هـذين الاتجاهين المتكاملين ، لكنها ليست اكثر من مؤشر . فلقـد خبرنـا في هذه الحرب الأهلية الطويلة جميع اصناف التسويات الاجهاضيـة . والاجهاض الأكبر الذي قد نواجهه هو إدخالنا في دوامة الخوف الـطوائفي من اجل ان ننسى ان الخطر الأكبر هو الاحتلال الاسرائيلي ، وان المسألة اللبنـانية هي جزء من مسألة التحرر من الهيمنة الغربية والسيطرة الاسرائيلية .



مع رحيل المارينز تتهاوى الرهانات على الغرب الاستعماري ، وتتأكد حقيقة اساسية ، هي ان اميركـا ليست كلية القـدرة ، وانها يمكن ان تهزم وتتبهدل وتمضي .

ومع رحيل المارينز يطرح السؤال الكبير ، سؤال حـول قدرة القـوى السياسية على بلورة اجوبتها لمعنى الاستقلال والديمقراطية وتحريـر لبنان من الاحتلال .

٨٤/٢/٩

أسرار الماء

ليس البحر صحراء .

وليس الفلسطيني تائها في صحاري الماء .

لكنها السفن . مرة ثانية تأتي السفن اليونانية ، ومرة ثانية نذهب الى الوداع . كأن وداع صيف ١٩٨٢ وحرقة الماء فيه لم يكن كافيا ، فجاء الوداع الثاني في الشتاء ، لنكتشف مع كل وداع كيف تحترق عيوننا .

ومرة ثانية ، يركب الفدائيون السفن الى المجهول ، ويصبح البحر علامة هذا الزمن العربي .

وفي الوداع نقف على عتبة ذاكرة هذا الجيل الذي طحنته الحروب ، ولا ننسى . لاننسى كيف جاء الفدائيون الى لبنان على سفينة عام ١٩٦٨ . وكانت السفينة صغيرة . كان خليل الجمل اول شهيد لبناني في المقاومة قادما من وادي الأردن في سفينة خشبية صغيرة . يومها خرجت بيروت كلها . خرجنا دون موعد ولم نعرف كيف ، لكننا صرنا بحرا ، كنا بحرا حقيقيا غسل دم جلال كعوش ، ليستفيق فينا ذلك اللهب السري الذي قادنا الى مصائرنا .

على سفينة خليل الجمل ، وعلى السفن التي صنعها موتنا ، تحولنا الى بحر جديد . حاولنا ان نكون البحر ، ورسمنا قوسا يمتد من صنين الى الشاطىء وذهبنا الى موتنا كمن يذهب الى البداية .

لكن السفن اليونانية كانت بانتظارهم ـ بانتظارنا . ولكننا نسينا أو تناسينا ان البحر الوحيد الذي تحمل عليه سفننا هو بحر الأيدي . وها نحن بعد ستة عشرة سنة ، نقف على الشاطىء ، ولا نعرف ان نقول كلمات الوداع .

ومع ذلك ، فهذا البحر ليس صحراء التيه .

ومع ذلك ، فلن تكون السفن هي النهاية ، لأن الماء لا يستطيع ان يبتلع السفن التي صنعت من الأيدي والحناجر .



بعد بيروت ، بعد طرابلس ، وماذا بعد ؟

لماذا كانت الرحلة حزينة ، ولماذا وصلنا الى رصيف الميناء ؟

لماذا ايها البحر لم تشبع من عيوننا ؟

ربما ليس الآن ، ربما لا نستطيع ان نجاوب اليوم ، ربما لا نملك الأجوبة .

لكننا نملك اليوم ان لا ننسى ، ونملك ان لا نسمح لأحد بمصادرة سنوات عمرنا التي صنعها موتنا الكثير .

كيف ننسى كل الأصدقاء ، كل العيون التي كانت مرايا المستقبل ، كيف ننسى الفدائي الذي سقط في صنين وهو يبتسم للموت ، والرفيق الذي رقص للموج امام « الكنيسة » ، والصديق الذي سحلوه على طرقات « الجبل الصغير » .

كيف ننسى ؟

الخنادق التيحفرتها الأيدي في كفرشوبا ، والاطارات التي اشتعلت في

انتفاضة « غندور » ، وقلعة الشقيف ، وانصار ، وخلدة ، وبيروت المحاصرة .

كيف ننسى وجوهنا التي انغرست في رمل الشوارع ، واعناقنا التي تساقطت على الأسفلت . كيف ننسى هذا التاريخ ، هذا الفصل الدموي المرعب ، هذا الحلم الذي مزج الأسماء ، فصار لفلسطين اسمها اللبناني ، وصار لبنان اسما لفلسطين .

ونحن على رصيف الميناء ، ونحن في الوداع الثاني ، نعلن عجزنا عن النسيان .

نكتشف كيف يستفيق فينا هذا الادراك الذي لا يمكن محوه . ففلسطين لم تغادر بيروت كي تغادر طرابلس . فلسطين لا تغادر . انها الاسم الذي كان وسيكون ، انه الذبيحة الدائمة . انها السؤال والحلم والرغبات والآفاق .



قد يعتقد الاسرائيليون انهم دفنوا اعداءهم في الماء .

قد يعتقد الاسرائيليون ان المسألة قد طويت بانطواء موج البحر على سفن التيه الجديدة .

قد يخيل لكثيرين ان المسألة هي بحجم مجموعة من السفن .

لكنهم يعرفون ، ونحن نعرف . يعرفون ان هذا المشرق العربي وهو يتخبط في دمه ، وهو يتفكك في جسده ، وهو يصرخ ، وهو لا يعرف كيف يبدأ ، هذا المشرق لا يمكن ان يبتلع هكذا ، لا يمكن لكمية من الطائرات والجيوش الغازية ان تعيد فبركته .

وهم يعرفون ، ونحن نعرف ، ان فلسطين ليست مسألة . انها

المسألة . وان لبنان لم يخض حروبه ، ولم يتحول الى ساحة للحروب كي تنتهي الأمور ببساطة الغرق في المياه الزرقاء الشاسعة .

المسألة تبدأ كل يوم .

لذلك ، ونحن نقف امام الوداع ، تسكننا قناعة عميقة بأن الأشياء لا تضيع بل تتراكم ، وان العيون لا تغرق ، لأنها اكثر اتساعا من البحر .



قد تكون اسئلتنا المؤجلة هي التي قادت الى هذا الحزن الثاني .

وقد تكون عدم الرغبة او القدرة على اعادة تقييم التجربة ، على فهم هزيمة صيف **١٩٨٢** واستخلاص دروسها ، وعلى ادانة الخطأ . قد يكون كل هذا هو سبب الوصول الى حافة هذا الحزن .

قد يكون صار من الواجب ومن الضروري ، ان نرى الخطأ وان ندخل في معاناة البداية الجديدة .

قد يكون آن الأوان كي نفتح صفحة التجربة على النقد الحقيقي ، على رفض تأجيل النقد باسم الخوف من التفكك ، على رفض الارتماء القدري في التيه ، ورفض الموت حتى ولو تسمى بأجمل الأسماء . .

فهذه السفن هي علامة الاستفهام الكبرى ، وهي السؤال الكبير الذي لا بد من الاجابة عليه .

لكننا لا نملك ونحن نرى الى اجزائنا وهي تغادر ، سوى ان نقف امام هذا البحر .

انه وقت للحزن .

انه وقت للنظر في الماء ، واكتشاف اسراره .

٨٤/٢/١٢

المنعَطف

- ١ -

الكابورال مايكل بولارد (من كلايتون) قال « ان الأمر مستحيل ، انه بلد مجنون » ، وصعد الى البرمائية التي نقلته الى احدى البوارج .

اما السيرجنت ماكفيلغراي (من الاباما) فهو يعجب من هؤلاء الذين « يريدوننا ان نرحل » ، لذلك « فنحن لم ننجح ولن ننجح . . » .

وذهبوا . جاءوا من غرينادا ، فاكتشفوا ان بيروت ليست غرينادا ، وان من يريد ان يفرض على لبنان نظاما سياسيا تابعا للولايات المتحدة ، ومن يريد تحويل لبنان الى قاعدة عسكرية اميركية من اجل حماية الخليج والبترول ، عليه ان لا يكتفي بالقصف التهويلي ، بل عليه ان يحارب . ارادوا احتلالنا دون حرب فانهزموا مرتين ، مرة لانهم لم يحاربوا ، ومرة لأنهم ذهبوا هكذا . . وتركوا لنا الانفاق ، تماما كما ترك لنا أسلافهم القلاع ، وكما سيترك اصدقاؤهم الاسرائيليون الكثير بعد رحيلهم .

هزيمة الولايات المتحدة ، أو نصف الهزيمة التي منيت بها في بيروت ، جاءت لتثبت ان عذابات السنوات العشر وحروبها لم تذهب عبثا ، كما حاولوا ان يوحوا النافي حفلة الـ ١٠٤٥٢ كلم٢، وعندما شنقوا ابراهيم طراف ، وعندما هولوا بالخيار الأميركي وفرضوا الاتفاق اللبناني ـ الاسرائيلي . السنوات لم تذهب عبثا ، لأن بيروت لا يمكن احتلالها ، ولأننا بعد أن أوصلونا الى الموت لم نعد نخاف ، ولأن اميركا لم تعد سيدة العالم من زمان . . من تلك اللحظة التي قفزوا بها من الشبابيك ليتعلقوا باذيال طائرات الهليكوبتر وهي تغادر فيتنام .

يـرحلون دون ان يفهمـوا شيئـا ، دون ان يفهمـوا لمـاذا يقـاوم حي السلم . يـرحلون من بلاد المجـانين هـذه ، لان هؤلاء المجانـين لم يقبلوا عقلانية الحكم الفاشي وجمال الخضوع لاميركا واسرائيل !

- ٢ -

المنعطف الذي دخله الوضع اللبناني بعد الذي جرى في الجبل وبيروت والسـاحل ، يـطرح علينا الكثـير من الاسئلة . فالقـوى التي قادت وتقـود عملية معارضة الهيمنة الفاشية هي قوى ملتبسة . . لأنها تمثل طوائف وفئات متعددة ، ولأنها لا تحمل برنامجا سياسيا واضحا بالمعنى الايجابي .

فبعد حل « الحركة الوطنية » وسحب برنامجهـا ، اصبح التخـوف من عمومية برنامج المعارضة له ما يبرره ، لأن العمومية تستـطيع ان تبـرر كل شيء ، فلقد عشنا منذ حرب الجبل مرحلة التبرير التي لم تسمح لأحد تقريبا بان يتساءل عن الوجهة التي تقودنا اليها سياسة الشحن الطائفية المخيفة . فتبرير الطائفية على انها مجرد ردة فعل هو تبرير ناقص وخاطىء . لا شك ان ردة الفعل والخوف اطلقت قوى متنوعة ، لكن الخوف ليس سببـا كافيـا . هناك قصور وتقصير ، حتى لا نقول ان هناك ما يشبه التواطؤ . فالبرنامج السياسي الطوائفي هو تحديدا برنامج حـرب ومذابـح وتهجير ، وبـرنامـج تسوية ملتبسة . وهذا البرنامج قادنا او يكاد الى مناطق « صافيـة » ، حتى تجربة بيروت الغربية التي تجاوزت نسبيا هذا القطوع ، لا تخلو من الشوائب عبر الممارسات اليومية .

البـرنامـج الملتبس الذي تحمله المعـارضة هـو الذي يقـود الى التباس الاهداف . حتى مسألة الحاق هزيمة نهائية باميركا مسـألة فيهـا نظر . . . . هذا دون ان نتحدث عن الاصلاح السياسي والاقتصادي المطلوب والذي ما يزال غائما ، ما عدا نقطة وحيدة هي اعـادة اقتسام السلطة بـين اطراف

الطبقة الحاكمة . . وحتى لا نتحدث كذلك عن المسائل التي اثارتها وتثيرها مسألة الوجود الفلسطيني المسلح وحق الشعبين اللبناني والفلسطيني في مقاومة الاحتلال .

هذا البرنامج السياسي واضح في نقطتين : الغاء اتفاق ١٧ ايار ، وخروج المارينز والقوات الاطلسية الأخرى . ويبدو اننا وصلنا الى مشارف تحقيق هاتين النقطتين بعد سنة ونصف من المعاناة والمقاومة . ولكن ماذا بعد ؟ ماذا بعد اللجوء الى الخيار العربي . هل يعني هذا عودة الى الوراء ، بمعنى العودة الى الانتظار والعودة الى اللاحرب واللاسلم في ظل المناطق التي تسيطر عليها الطوائف ، ام يعني ان الموج الطائفي العالي سيبدأ انحساره التدريجي ، وان الانهيار الفكري والثقافي الذي تمّ امام السلطة اولا ثم امام الطوائف ، سوف يتوقف لتبدأ مرحلة المراجعة ، ومرحلة الاعداد الجدي لصياغة افق مقاومة الاحتلال الاسرائيلي ورفض هيمنة امراء الحرب وفرسان الطوائف .

الجواب ما زال في مرحلة كتابة حروفه الأولى . لكننا نعلم ان الخروج من هذا النفق لن يتم عبر إعادة اقتسام السلطة والوصول الى تسوية طائفية . فالتسوية الطائفية هي النفق . الخروج من النفق يبدأ عبر اعادة نظر جذرية في التركيبة اللبنانية ، وهي إعادة نظر لن تتم في اروقة المؤتمرات في جنيف او غيرها ، بل ستتم على ارض الصراع .

- ٣ -

والجنوب اليوم هو ارض الصراع .

المقاومة الوطنية ، الانتفاضات التي لا تتوقف ، « المعركة » في جميع القرى والمدن ، الانصار ومخيم « انصار » . هناك ، أي هنا ، سوف يتحدد فعلا إذا كان خيارنا هو خيار الحرية ، ام انهم سوف ينجحون مرة اخرى في

اغراقنا داخل مستنقع التسويات .

لا شك ان اسقاط الهيمنة الفاشية او تحجيمها ، يعني الكثير بالنسبة للمقاومة الوطنية في الجنوب ، لأنه يزيل العائق « الرسمي » من امامها ، ولأنه ايضا ، وهذا هو الأهم ، يسمح لهذه المقاومة بان تشارك في صياغة افق وطني جديد .

لكن الصراع ليس سهلا او بسيطا .

فالاحتلال الاسرائيلي بعد ان فشل في الهيمنة على لبنان ، وبعد ان تساقط مثلث شارون « للسلام » المؤلف من القدس والقاهرة وبيروت ، لن يتراجع بسهولة عن تنفيذ الجانب الامني من اتفاق ١٧ ايار ، كما انه سيسعى الى توسيع الشريط الحدودي الذي اقامه لسعد حداد في مناطق اضافية وعبر عناصر اضافية اصيبت بصدمة فشل مشروع الهيمنة الفاشي .

مقاومة الاحتلال تأخذ اليوم منعطفا جديدا . وهي لا تستطيع ان تقوم على خلفية الاقتصاد البنكي والخدماتي ، التي يحرصون هذه الأيام عليها كثيرا ، ولا على شرعية مجلس النواب الذي صادق على اتفاقية ايار بنفس الأغلبية التي سيلغيها بها ، ولا على المناطق الطائفية التي لا تستطيع ان تكون قواعد للمقاومة طالما بقيت مشدودة الى مشاريعها الصغيرة .

والمقاومة الوطنية تعرف انها جزء من مقاومة عربية ، وهي لا تستطيع ان تكتفي بالمد العفوي او شبه العفوي الذي يرفدها ، بل عليها ان تصيغ معادلة جديدة لمعنى القرار الشعبي دون تقديم اية تنازلات ، فلا امن الجليل هو من مسؤوليتها ، ولا استمرار الاحتلال الاسرائيلي للأرض الفلسطينية هو في مصلحتها .

الجنوب اليوم هو ارض الصراع .

وفي الصراع ستتغير الأشياء وسوف تكتشف ان الطريق الى وحدة لبنان هو طريقة المقاومة وطريق الخلاص من الطوائفية واسيادها .

٨٤/٢/٢٩

أدهشوا العالم .. وفشلوا !

وأخيراً انتهى المؤتمر اللوزاني الشهير وكأنه لم يبدأ . لا المواقف الحقيقية اتضحت ولا ملامح الحل ظهرت . انتهى المؤتمر ككل شيء صنعته وتصنعه الطبقة الحاكمة منذ ان حكمها الزمن بهذا الشعب . فلا هي حلت ولا هي ربطت ، لأنها لا تملك من امرها شيئا ، انها طبقة الرابحين ، تنتظر كيف يميل الميزان كي تجلس في الكفة الرابحة ، وتربح !

لكن لوزان الذي جاء بعد جنيف وبعد الغزو الاسرائيلي وبعد ١٠ سنوات من الحرب وبعد الغاء اتفاق ايار ، اثبت على الأقل ، ان الناس لم تعد قادرة على احتمال هؤلاء الذين ملأوا العالم ضجيجاً وملأوا الأرض دماء ، وملأوا جيوبهم وجيوب احفادهم .

العالم اندهش . صدق امين الجميل حين وعدنا بادهاش العالم . فلم يسبق ان تمت مثل هذه الحفلة الدولية تحت عدسات التلفزيون في العالم بمثل هذه الصورة المدهشة . نجحنا في ادهاش العالم وفي الضحك على وسائل الأعلام وعلى كل ابهة الفتدق اللوزاني الفخم . جاءوا كأنهم يمثلون دولا كبرى ! يتحدثون عن الوفود وعن رؤساء الوفود ، يعقدون اجتماعات مغلقة واخرى مفتوحة ، يدافعون عن حقوق طوائفهم بينما طوائفهم تذبح بأيديهم ، يقيمون مآدب العشاء وحفلات النقاش ، ويأكلون صلصة السلحفاة التي لم يأكلها احد قبلهم ! ويدلون بالتصريحات ، وينسحبون من القاعات ، ويتلفنون ويأمرون بوقف اطلاق النار .. كأنهم في مسرحية

لبنانية ما تزال في طور المدرسة السعيد عقلية التي تصر على اننا اصل الحضارة ، فتتحايل على الواقع بتمثيله ، فكانوا في لوزان كأنهم يمثلون اجتماعات الدول الحقيقية ، أو كأنهم عصبة امم . وهم يعلمون ونحن نعلم ان المسألة لم تكن تتجاوز الاطار المسرحي ، وان المؤتمر بأسره لم يكن اكثر من حفلة اضافية من اجل ادهاش العالم ، واقناعه بالعبقرية اللبنانية .

لا شك ان اختيار مدينة لوزان له دلالته التاريخية ، ليس بسبب المعاهدات والمؤتمرات التي تمت أو عقدت هناك ، بل لأن اللوزانيين اللبنانيين يعرفون السر الحقيقي لمدينة لوزان . والسر هو وجود اهم مدرسة فندقية لتخريج الغارسونات في العالم في المدينة . وبما اننا بلد الخدمات والفنادق ، وبما ان لبنان يملك تجربة فريدة في الحقل الفندقي ، وبما ان جميع الطوائف كانت في مؤتمراتها التي سبقت لوزان قد اتفقت على نقطتين واختلفت على كل شيء ، اتفقت على نهائية الكيان وحرية الاقتصاد واختلفت كيف تتقاسم النهائية والحرية ، كان لا بد من اختيار المدينة التي في مدرستها الشهيرة يتم تخريج عمال الخدمات ، كي يرى الطلاب والأساتذة تجربتنا الحضارية الفذة ، وينجحونا في امتحان الخدمات دون ان نقدمه ، كالعادة ، أو كما يجري في امتحاناتنا هنا ، حيث ينجح من يجب ان ينجح ، دون الأخذ بعين الاعتبار الدرس أو الاجتهاد أو الكفاءة ، لأنها امور تفصيلية ولا حاجة بنا اليها .

المهم ماذا جرى في لوزان ؟

لماذا لم يتفقوا ، ولماذا حين اتفقوا اختلفوا ؟ ولماذا ؟

طبعاً هناك العديد من الأجوبة ، كأن نتهم اسرائيل مثلا بأنها خربت المؤتمر لأنها ضد توسيع صلاحيات رئيس الوزراء ! أو قد نفسر الأمر بجراح الحرب والاستقطاب الطائفي المخيف ، أو كأن نقول بأن لبنان لم يعد قابلا

للحياة ، أو كأن نتهم هذا الفريق بأنه فرط المؤتمر . .

والحقيقة ان جميع الأجوبة صحيحة وخاطئة في آن . أي ان جميع الأجوبة ليست أجوبة ، لأنها تقبل اصول اللعبة كما يفرضها فرسان الطوائف ، بينما المسألة تقع في مكان آخر ، خارج لوزان ومدرستها الفندقية على وجه التأكيد ، وخارج هذا الدجل الذي يطرح الفيدرالية ثم يستبدلها بالعلمنة الشاملة كأن هناك علاقة بين المسألتين ، أو خارج طرح الغاء الطائفية السياسية دون الغاء الطائفية !

المسألة تتلخص بنقطة أساسية ، اسمها عجز الطبقة الحاكمة وفشلها . طبقة خلقت لتحكم شيئاً يشبه ادارة المتصرفية ، أي تعيين النواطير وشراء الزمامير والعمل كتراجمة عند قناصل الدول . ثم سمح لها الزمن الاستعماري بأن تتحكم بدولة لبنان الكبير ، فادارته كما تعودت ، وحولته الى رماد ، عندما شعرت ان المسألة اكثر تعقيداً ، وان الدولة شيء مختلف عن تجارة الحرير . .

هذا العجز هو الذي أنتج الفاشية الكتائبية ، التي اعادتنا الى القرن التاسع عشر عبر رهاناتها الجنونية على الدول الكبرى ثم عبر حلفها الأسود مع اسرائيل . فالفاشية كانت محاولة لانقاذ الطبقة كلها ، لكنها وبسبب التصهين الطائفي ، الذي لم يكن امام الطبقة الحاكمة من سبيل سوى في اللجوء اليه ، فشلت تجربتها الجديدة فلجأت الى التهويل بالتقسيم . اما ان نركع امام اصحاب البنوك وشركائهم أو يقسمون البلد ! اما ان نقبل بما لا يقبل أو يفرط البلد ! اما الشعب وأما البلد ! هكذا قالوا أو حاولوا ان يقولوا ، ونسوا انهم لا يملكون من البلد شيئاً . يعدوننا ببلد محتل ، ببلد لم يدافعوا عنه ، وتركوا الفقراء وحدهم بأيديهم العارية وصدورهم يدافعون فيه عن كرامتهم وحريتهم ! يعدوننا بماذا ، بلا شيء . انهم لا يملكون شيئاً . .

ولأنهم لا يملكون شيئاً ، فلقد قاموا بحجب المسألة الأساسية ، والتهوا بالتفاصيل الصغيرة . حجبوا مسألة الاحتلال الاسرائيلي الذي يمنع حريتنا. حجبوا مسألة الجيوش الأطلسية التي دكت قرانا ، حجبوا الفضائح والمجازر والسرقات ، حجبوا أو حاولوا حجب كل شيء .

لكنهم ، وهم في فندقهم ، ومع مستشاريهم ، وهم في تلبكهم في وطن لم يصنعوه وفي أرض لم يزرعوها ولم يدافعوا عنها ، كانوا يعلنون موت زمن مللنا احتضاره الطويل ، كانوا يعلنون ان القضية تقع في مكان آخر ، وان لبنان لن ينهض من ركامه وموته الا بعد ان يسدل الستار على هذه المسرحية .

المسألة تقع في مكان آخر ، خارج تقاسم الحصص وتوزيع الوظائف الوهمية . المسألة اسمها المقاومة . اما ان نقبل بالطرح الفيدرالي الذي يعني الموت الأكيد والركوع امام لاهوت الجنون والعنف أو نقاوم الاحتلال ، ونسقط الطبقة التي نمت كالبثور على جراحنا .

لكن كيف الوصول الى هناك ؟

كيف الخروج من الفندق والمدرسة الفندقية ؟ كيف الخلاص من امراء الطوائف بعد كل الذي جرى ويجري ؟

لعل الجواب لا يأتي دفعة واحدة ، بل تصوغه التجربة وهي تنجح في اسقاط اتفاق ايار وفي خلخلة الارهاب الفاشي ، وهي تصنع عبر المقاومة الوطنية ملحمة يومية ، وهي تطرح مع صمود الفقراء امام وحش الاحتلال ، احتمال ان يولد جديد ديمقراطي ، لا طائفي ، جديد مقاوم .

ادهشوا العالم . . وفشلوا !

هذه هي المحصلة اللوزانية ، لا ، ادهشوا العالم . . ونجحوا ! كما

حول الغزو الثقافي الاسرائيلي
حرب الذاكرة على الذاكرة

أريد أن اتساءل في البداية عن معنى عبارة الغزو الثقافي ، وهل هناك فعلا غزو ثقافي ؟

عبارة الغزو الثقافي هي احدى العبارات الرائجة هذه الأيام ، لكنها عبارة غامضة الدلالات ، ومليئة بالمواقف والمفاهيم المسبقة . وهي تستخدم على نطاق واسع دون التدقيق فيها أو دون تحديدها .

عبارة الغزو الثقافي تحمل معنى الرفض ، رفض التبعية الثقافية ، ولكن كيف تتمظهر التبعية الثقافية وتتشكل ؟

درجت في الآونة الأخيرة ، وبفعل التطورات الناتجة عن مسار الحرب الأهلية واحباطاتها ، عبارات كالأفكار المستوردة والأفكار الغربية عن التقاليد والتراث . وقد ترافق هذا الرفض للغرباء مع محاولة الأديولوجية المسيطرة خلق عالم وهمي من الأساطير المرتبطة بالطوائفية السائدة ، عبر عملية الغاء التاريخ واستبداله بالأسطورة ، فهل رفضنا للغزو الثقافي الاسرائيلي هو جزء من رفض ما يسمى بالأفكار المستوردة ، وتمسك بأذيال التقاليد الأصلية ، أو هو شيء آخر . .

نعود الى السؤال الأساسي ، هل هناك فعلا غزو ثقافي ؟

اعتقد ان عبارة الغزو الثقافي غير دقيقة ، فالثقافات لا تغزو انها تتفاعل . وثقافة الحضارات المنتصرة تجد نفسها في تفاعلها مع ثقافات

أي أن عملية الاستتباع الثقافي تتم عبر قنوات لا علمية على المستوى الثقافي ، وعبر مجموعة من المؤسسات القمعية والتربوية التي تقوم بترجمة نتاج بحوث تلك القنوات .

الاستشراق بهذا المعنى ، هو استراتيجية فكرية تهدف الى فرض قراءة معينة للتاريخ والثقافة والدين في العالم العربي ، وهي قراءة وهمية تقوم بدور المساعد للأدوات الاستعمارية المباشرة .

والاستشراق ليس الثقافة الغربية ، انه احد اشكال توظيف المعرفة في سبيل السيطرة، وفي هذا التوظيف وبسبب منه تقوم بتشويه الثقافة التي تدافع عنها أو التي تستند الى منجزاتها . وبهذا المعنى فان « العلم » الاستشراقي الذي يهدف الى السيطرة هو سيطرة وليس علما ، وهو غزو وليس ثقافة ، ويقوم في التحليل الأخير بحجب الانجازات الثقافية الغربية خلف الوهم العلمي وينعكس تشويها وقمعا .

هكذا ، فان التفاعل بين الثقافة العربية والثقافة الغربية لم يتم على أيدي المستشرقين أو المبشرين ، بل تم ويتم في اطار العداء للهيمنة الاستعمارية .

قد يكون الهدف الرئيسي للخطاب الاستشراقي هو اغراقنا في خطاب مضاد ، وابقاء الحياة الثقافية العربية في اطار رد الفعل الدفاعي ، الذي يحجب عنا القدرة على الرؤ ية العلمية . والخطاب المضاد يسقط في مقدمات الخطاب الذي يريد الرد عليه ، فيقوم بانتاج لاهوت ثقافي اسطوري ، ويعمم الظواهر المرتبطة بالانحطاط محيلا اياها الى ثوابت ثقافية ، فيصير الرد تبنيا ضمنيا للخطاب الاستشراقي ، وتكون الاستراتيجية الثقافية الاستشراقية ، قد نجحت في شلّنا ثقافياً.

بعد هذه المقدمة التي تهدف الى محاولة اعادة النظر في العبارات

والمفاهيم نصل الى موضوعنا ، مخاطر الغزو الاسرائيلي ثقافياً . . .

لا اعتقد ان هناك خطر غزو ثقافي جدي تقوم به اسرائيل ، فالمشروع الاسرائيلي هو استكمال لمشروع الهيمنة الاستعمارية على المشرق العربي ، واسرائيل لا تملك سوى فتات الفكر الاستشراقي الغربي . فالاستشراق الاسرائيلي في نتاجات هركابي وميلسون وغيرهما من المستعربين ، ما يزال يعيش على فتات الاستشراقين الانكليزي والفرنسي . واسرائيل لم تنتج خطابا استشراقيا جديدا ، يفترض بنا التنبه الى اخطاره .

اما على المستوى الثقافي - العلمي ، اي مستوى النتاجات الثقافية والاكتشافات العلمية وأسلوب الحياة ، فان اسرائيل تقوم عمليا بالاستيلاء على التراث الثقافي الفلسطيني : الرقص ، الموسيقى ، الأزياء ، الطعام ، الفولكلور ، من جهة وتشكل امتدادا يحتذى ، كما يتم عادة عندما تقوم الشعوب المغلوبة بتقليد الغالب ، هناك فقط خطر واحد ، هو ان تنجح اسرائيل في إبادتنا أو في دفعنا الى التوحش المطلق ، كي تستطيع الاستيلاء على تراثنا الثقافي .

ان استخدام عبارة الغزو الثقافي الاسرائيلي ، هو في رأيي استخدام غير دقيق . فاسرائيل لم تنتج مستوى ثقافيا يستطيع فرض نفسه كنموذج ، وهي تستخدم الثقافة والتطبيع الثقافي في سبيل خلق مناخ وهمي من التعايش في ظل السلم الاسرائيلي ، كما يحصل اليوم مع بعض الثقافة المصرية .

من هنا تبقى مسألة أخيرة ، وهي مسألة تعميم النموذج العنصري - الطائفي - الفاشي الذي قامت عليه الدولة الاسرائيلية . محاولة التعميم هذه لا تندرج داخل المصطلح الثقافي ، لأن اسرائيل في فاشيتها هي الوجه الآخر للفاشية الأوروبية التي اضطهدت اليهود ، ولأن المسألة الطائفية في بلادنا هي جزء من المسألة الشرقية التي قامت قبل نشوء الكيان الاسرائيلي ونأمل ان تنتهي معه .

اذا كانت اسرائيل عاجزة عن انتاج خطابها الاستشراقي ، فان الخطر الاسرائيلي يقع في مكان آخر. فاسرائيل تقوم اليوم بمحاولة تنفيذ الاستراتيجية الغربية في المنطقة، استراتيجية استكمال تفتيت المنطقة إلى دول عنصرية ـ طائفية. ولبنان هو البداية المختبر لتطبيق هذه الاستراتيجية من جديد.

هنا يطرح السؤال ، هل خطر التفكك الذي نتعرض له هو نتاج الغزو الاسرائيلي، ام ان الغزو الاسرائيلي هو من نتاجه ؟

الجواب بالغ التعقيد ، فاسرائيل هي استكمال للغزوة الاستعمارية التي عملت على تفتيت المنطقة . غير أن هذه الغزوة لم تتم في الفراغ . بل استندت الى بنى اجتماعية وأيديولوجية ، قامت بالاتكاء عليها وتنميتها والا لما استطاعت احتلال المجتمع من داخله . أي أن الغزوة التي انهت الدولة العثمانية جاءت كتتويج لاكتمال دورة انحطاط هذه الدولة وانحلالها . ومع الانحلال العثماني دخل المشرق العربي في الدورة الاستعمارية التي قامت بتفتيته الى دول ودويلات ، وساهمت في انشاء الكيان الاسرائيلي .

والسؤال الذي لم يطرح ، أو الذي حين طرح بقي خجولاً وهامشياً ، هو سؤال داخلي في الأساس ، سؤال عن واقعنا وأوالياتهوكيف تمفصل هذا الواقع على المشروع الاستعماري . . وبدلا من طرح السؤال طرحت الأجوبة ، أي سقطنا في شرك اكتشاف الأسباب الخارجية التي لن تقود الا الى الشرك الأسطوري الماضوي ، أي الى اسطرة تاريخنا والغائه واختزاله في قيم ثابتة ، كأن التاريخ ليس حركة صراعات ، بل هو نص لا يمكن المس به ، وكل ما يخرج على النص يتم شطبه .

في السؤال الذي لم يطرح ، وفي الثقافة النقدية الهامشية أو المهمشة ،

يكمن الغزو الحقيقي ، انه الانهيار امام الأجوبة التي تفرض علينا .

المرحلة التي دخلها لبنان بعد الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢ ، هي مرحلة جديدة كليا ، ليس في تاريخ لبنان الحديث فقط ، بل وفي تاريخ المشرق العربي . وهي مرحلة تطرح على الثقافة مجموعة من المهمات :

أولها ، دراسة التجربة السابقة ، تجربة الحرب الأهلية الطويلة ، ونقدها بشكل جذري ، وثانيا : التعامل النقدي مع الأحداث التي نعايش . فلم يعد من الممكن للعمل الفكري ان يبقى مجرد تبريرات لما يحصل ، لأن ما يحصل صار خارج كل امكانية تبرير من جهة ، ولأن الثقافة لم تعد بقادرة على تبرير نفسها اذا لم تكن نقدية ، من جهة ثانية . فهذه الهجمة للثقافة التقليدية وللبنى الفكرية الطائفية التي تحاول اجتياح كل شيء ، تقوم عمليا بالغاء الثقافة .

في مهمتي النقد هاتين ، تبرز النقطة المركزية التي حولها يجب ان يتمركز كل عمل وطني وديمقراطي وثقافي ، انها مسألة مواجهة الاحتلال .
والاحتلال يواجه على مستويين متكاملين :

المستوى الأول ، هو مستوى المقاومة الوطنية ، التي تشتعل اليوم في الجنوب والبقاع الغربي ، والتي تعيد لنا الثقة في جدارتنا بالحياة . فالاحتلال لا يمكن التعامل معه الا بلغة واحدة : المقاومة . والاحتلال لا يمكن اخراجه من ارضنا عبر الصفقات والتسويات ، هناك طريق واحد هو طريق المقاومة . ولقد كان وعي الجنوبيين لهذه الحقيقة مدهشا ، فكانت استفاقتهم من صدمة الاحتلال ، هي استفاقة لروح المقاومة ولقرار بناء وطن حقيقي غير قائم على التسويات الكاذبة .

المقاومة تعني تغيرا جذريا في الوضعية اللبنانية ، لأنها تنقلنا من وطن صنعته القوى الأجنبية كتوازن مؤقت يحكمه امراء الطوائف الى وطن تصنعه

ارادة أبنائه . وهذا يفترض كتابة تاريخ جديدة . فالتاريخ الجديد لا يكتب على الورق الا بعد ان يكتب في الواقع كممارسة جديدة .

المستوى الثاني ، هو تحويل هذه المقاومة الى المقياس الأساسي للحياة السياسية الفكرية في لبنان . أي رفض التقوقع الطوائفي الذي لا يقود الا الى الجنون المطلق والعبثية . في رفض الطائفية ورفض كل أشكالها المطروحة ، تكون مقاومة الاحتلال مقاومة حقيقية وفاعلة . ولا يمكن ان ننتصر على الطروحات الطائفية والتقسيمية ، الا اذا استطاعت القوى الطليعية تقديم برنامج وطني ديمقراطي ، برنامج ينطلق من رفض الفاشية ورفض كل خطاب فاشي ، ويسعى الى بناء وحدة شعبية جديدة ، لا علاقة لها بالتسويات الطائفية ، التي لم يجن منها اكثرية الشعب اللبناني سوى الموت والدمار والخطف والانهيار .

في هذين المستويين المتكاملين تتم مقاومة المشروع الاسرائيلي ويتم الانتصار عليه . والتجربة اللبنانية القصيرة في ظل الاحتلال ، علمتنا كم ان المقاومة الشعبية والمسلحة قادرة على تحقيق الانجازات وعلى البرهنة مرة أخرى على أن القانون العام الذي سمح بانتصار الجزائر وفيتنام وبهزيمة فرنسا واميركا ، يمكن ان يترجم في أرضنا عبر انتصار شعبنا وهزيمة الكيان الاسرائيلي .

هذه المقاومة التي تنمو اليوم ، بوصفها شكلا للتعبير عن حقنا في الحياة ، تطرح على الثقافة والفكر مجموعة من الأسئلة العميقة .

السؤال الأول ، يتعلق بمعنى هذا الاستقطاب الطائفي التي نجحت اسرائيل والفاشية في تعميمه بهذه الصورة المرعبة . والنقاش الذي يبدو صعبا اليوم يجب ان يخاض على قاعدة واعية ، فالطوائفية هي حالة نشأت في ظرف سياسي تاريخي ويمكن ان تزول في مرحلة تاريخية اخرى . انها

ليست شيئا مقدسا . وما تقديسها اليوم الا التعبير الساطع عن العجز التاريخي والاستسلام امام القوى الاستعمارية .

السؤال الثاني ، يتعلق بالفكر السلفي الذي ينتشر ويتعمم. هذا الفكر الذي يقتات من هزيمة الحركة القومية ، ليس ردا الا بالمعنى السلبي . وقد يكون شكلا لتماسك ما . لكنه لا يقدم شيئا سوى اختزال التاريخ الى لحظة واحدة . من هنا ، فان مناقشة هذا الفكر والسجال معه صار اليوم ضرورة فكرية وسياسية ، من أجل فهمه ووضعه في تاريخيته ، من أجل تجاوزه .

السؤال الثالث ، هو سؤال حول معنى الديمقراطية وارتباطها بالمعركة من اجل التحرير . فالديمقراطية الغائبة في هذا المشرق العربي ، هي الضمانة الوحيدة من اجل تجديد المجتمع . لكن الديمقراطية لا تعني العودة الى الاشكال التي نشأت مع الاحتلال الأجنبي وانهارت مع رحيله ، بل تعني ديمقراطية المنتجين ، أي ديمقراطية الاكثرية الشعبية في مواجهة ديكتاتورية السماسرة والتجار والطغاة . هذا البحث عن معنى الديمقراطية ، هو السؤال المطروح علينا ونحن في مرحلة المقاومة ، كي لا نسقط مرة جديدة أسرى الطبقات التي تستسلم لأنها غير قادرة على مواصلة النضال .

السؤال الرابع ، هو حول معنى الوطن والهوية . الوطن والهوية ليسا ماضي نحن اليه ، انهما مستقبل نصنعه . الحنين الى الماضي لا ينتج سوى المزيد من التدهور ، الهوية هي مستقبل نصنعه وليست فتاتا مكسرة نقوم بالصاقها .

السؤال الخامس ، هو معنى النقد ، هل نبقى أسرى الخطاب الكلي الذي يريد الثقافة هامشا للسلطة أي اداة قمع وتعمية ، أم نستطيع ان نخرج من الثقافة المسيطرة بوجهيها الموالي والمعارض ، الى ثقافة جديدة ،

ديمقراطية فعلا .

السؤال السادس هو سؤال الذاكرة ، فلقد خيضت ضدنا حرب الذاكرة على الذاكرة ، حرب الذاكرة الاسطورية على الذاكرة التاريخية . ارادونا ان ننسى ان المعركة ليست بين الطوائف بل هي معركة ضد اسرائيل ، كما أرادونا ان ننسى ان المعركة ضد اسرائيل هي معركـة ضد الوجود الاستعماري الأميركي ، كما أرادونا أن ننسى ان تحرير لبنان هو جزء من عملية تحرير فلسطين وليس نقيضا لها . أرادونا ان ننسى كي نغرق في الوهم ونتذابح ، بينما الأرض تحتل ، والكلمات تفقد معناها ، والموت يحصدنا .

ليست هذه هي جميع الأسئلة ، لكن الأسئلة تتمحور في حرب حقيقية تخاض بين من يريد تفتيتنا من الداخل كي تنشل ارادة المقاومة فينا ، وبين المقاومة التي لا أفق لها سوى في ان تتعمم وتصبح هي أساس بناء أفق جديد .

ان مسؤولية الثقافة والفكر اليوم هي في رؤية الأساسي المغطى خلف كل هذه القشور الكاذبة ، والأساسي هو طريق مقاومة الاحتلال . فهذه الطريق وفي مستوياتها كلها العسكرية والسياسية والفكرية ، هي طريق التحدي الحقيقي ، اما ان ننجح في صياغتها أو نسقط في كل شيء .

بناء هذه الطريق هو سبيلنا لمنع العدو من قتلنا من الداخل ، وهي مقياس كل شيء ، هنا تتأسس المقاومة الثقافية للغزو الاسرائيلي باعتبارها احد اشكال المقاومة الشاملة ، وباعتبارها نقدا وبناء وممارسة تاريخية .

قدمت هذه المداخلة في اطار المؤتمر الوطني الأول لدعم تحرير الجنوب .

٨٤/٤/٤

١٣ نيسان

عشر سنوات .

كان ذلك في ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، يومها بدأت الحرب بالمذبحة . حصلت مذبحة باص عين الرمانة ودخلنا أو أدخلنا في سياق حرب لا نعلم كيف تنتهي ومتى ؟ ومع الحرب فتحت مجموعة من الحروب ، ومع كل حرب جديدة كان ملف الجراح يزداد وكانت الحروب القادمة اكثر هولا من التي سبقتها .

عشر سنوات ، ونحن في قلب الموت . والموت لا يعرف أن ينتهي ، والقبور المفتوحة لا تجد من يغلقها ، والمذابح تتعمم .

وفي هذه السنوات واجه لبنان منفردا ، وواجه الفلسطينيون فيه ومعه ، القدر العربي . فدفع ودفعوا ثمن الانحطاط والأخطاء ، وحارب وحاربوا عن العرب من أجل العرب ، وسحق وقتل ونهض ، وهو مرة أخرى وحيدا يواجه الاحتلال ، ووحيدا يواجه الحرب التي لا تنتهي .

عشر سنوات هي عمرنا هي البحث والتضحية والهزيمة والنصر . هي كل ما نملكه ، ولا نملك شيئا . بعد عشر سنوات نكتشف اننا لا نملك شيئا ، واننا وحدنا كنا ضد موج التراجع الكاسح ، واننا سنبقى ربما لسنوات اخرى طويلة ، فاذا لم ننجح في ان نقلب الزمن فاننا سنحاول ان لا نسمح للزمن بأن يقلبنا ، واذا لم ننجح في صياغة الحياة ، فاننا لن نسمح

للموت بأن يصيغ حياتنا .

وفي هذه السنوات الطويلة كدهر ، المثقوبة كذاكرتنا ، نقف ونسأل عمرنا الذي يذهب ، نقف امام خرائب المدن والقرى والمخيمات ، نقف امام الأرض التي تقطعت اوصالها ، نستمع الى صوت المقاومة القادمة من الجنوب والبقاع الغربي وهي تحمل آخر نبضات الحياة فينا ، ونسأل قبل ان يضيع السؤال ، وقبل ان يلتهمنا وحش الخطأ مرة أخرى . .

منذ الباص المحترق على طريق عين الرمانة ، كانت الفاشية تحاول ان تدفع بالمجتمع الأهلي الى منطق المذبحة ، فخصوصية الفاشية الصغيرة في لبنان ، هو انها تتجنب الحرب وتستبدلها بالمذبحة ، ففي المذبحة أمان الطائفة واستدعاء القوى الأجنبية . من الباص الى السبت الأسود الى الكرنتينا والمسلخ الى تل الزعتر الى صبرا وشاتيلا الى الخطف الى ما لا نهاية . . . وهدف المذبحة هو الدفع باتجاه تعميم المذابح ، وحين تتعمم المذابح تكون الفاشية الصغيرة قد انتصرت ، ربما مشروعها الخاص لا ينتصر ، لكن المشروع العام ، مشروع التفكك والانهيار والارتهان لاسرائيل يكون هو الذي ينتصر .

والسؤال ليس موجها الى الفاشية الصغيرة ، لكنه موجه الينا ؟ كيف سمحنا او انزلقنا أو انزلق بعضنا الى منطقها ، وكيف ننتقل اليوم من القضية الوطنية الى القضية الطائفية ، ثم ننزلق من الطائفة الى ما دونها ومن ما دونها الى ما هو أدنى ، فالهاوية لا قرار لها ، ولقد علمتنا هذه الحرب ان هناك دائما ما هو أسوأ .

قد يكون الصراع الدائر على أرض لبنان اليوم ، اكبر من قدرة الجميع على تحمل مسؤولياته ، وقد يكون انعكاسا مباشرا لانحطاط الوضع العربي وانهيار قيم عصر النهضة القومية بأسرها بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، لكن

هذا لا يعفينا من تحمل مسؤولية الذي جرى ويجري .

فلقد نجح الفاشيون الصغار عبر تحالفاتهم مع الغرب الاستعماري ومع اسرائيل في الدفع باتجاه فرض وتعميم منطق الوسائل المدمرة والخاطئة في سبيل الوصول الى غاية مختلفة . ولقد انزلق الجميع في ذلك المنطق ، منذ الدامور التي شكلت منعطفا والانزلاق يجري ، حتى وصلنا الى اللحظة التي أفرزها الغزو الاسرائيلي ، حيث صار المنطق الطائفي هو المنطق شبه الوحيد ، فضاع المعنى أو يكاد ، وصارت الوسائل هي الغايات . لقد نجحوا في تحويل الوسائل الى غايات ، الى درجة اننا نعيش اليوم حالة من انعدام الوزن السياسي والفكري والثقافي . والحرب الدائرة اليوم ، وهي اكثر مراحل الحرب الأهلية عنفا ودموية ، تدور دون برنامج سياسي يمتلك الحد الأدنى من مقومات البرنامج . هكذا يغرق الجميع في دماء الضحايا . والا ، فكيف نفسر هذه المذبحة التى لا تنتهي ، وهذا الموت الذي لا يتوقف ؟

مذبحة عائلة الحداد التي تمت قبل أيام من ذكرى ١٣ نيسان ، يجب ان تنبه الجميع الى الهاوية التي نسقط فيها . قد نجاوب بسهولة ان الأجهزة ، واسرائيل ، هي وراء جنون الموت هذا ، لكن الجواب السهل لم يعد يقنع أحدا ، فلو لم نفقد كل مناعة فكرية وسياسية وأخلاقية ، لما استطاعت الأجهزة ان تفعل كل هذا . . الأجهزة هي تعبير عن عجزنا . . والقتلة هم وجوهنا الأخرى ، هم شكل انحطاطنا الرهيب .

المسألة اذن ، هي ان الوسائل التي صارت غايات هي التي تقتلنا ، وان امراء الحرب وفرسان الطوائف لا يقودون الناس الا الى الذبح والموت .

الفاشية الصغيرة لا تواجه بمنطقها نفسه . الانزلاق الى منطقها يعني استسلاما غير مباشر لها ، وهذا ما نجحت اسرائيل وزمن التراجع العربي في

جرنا اليه . . . وحين نسقط في المنطق الفاشي ، ينتهي حقنا في الحياة ، ونتحول الى قتلة .

على الرغم من هذه الصورة القاتمة ، وعلى الرغم من هذا الموج الطوائفي العالي ، نقف بعد تسع سنوات ولا ننسى آلاف الرجال الذين سقطوا على جبال الحلم ، عشرات الأصدقاء الذين عانقوا الموت في منعطفات هذه المدن ، من أجل ان لا نسمح للوحش الاسرائيلي بتحويلنا الى وحوش ، ومن اجل ان لا نسمح للزمن الطوائفي بابتلاع زمننا .

ولأننا لا ننسى ، نكتشف ان قدرنا وخيارنا ، هو ان نقف وسط الحصار مرة أخرى ، أمام جدار البحر الأخير نقف ، ونرفض ، ونشهد .

وشهادتنا هي ان نذكر الجميع . ان الخيار الطوائفي لا يقود الا الى العبثية المطلقة ، لأنه خيار لا أفق له ولا معنى ، ولأنه يجعلنا عبيدا لاسرائيل ، ولأنه يعيدنا سنوات طويلة الى الوراء ، ولأنه اليوم له اسم واحد هو المذبحة الدائمة !

لعل المقاومة الوطنية للاحتلال الاسرائيلي ، والتي تجري في ظروف وشروط بالغة الصعوبة ، تذكرنا بأن المسألة ليست صراعا على الحصص أو على المناطق، بل المسألة هي وجودنا كبشر يتمتعون بالحد الأدنى من الكرامة .

هذه المقاومة الوطنية تعلن اليوم ان المأزق لا يمكن الخروج منه الا بالعودة الى اكتشاف العدو الحقيقي ، الا بأن تصبح هي مقياس الوطنية في الحياة السياسية اللبنانية . وهذا يعني اعادة نظر شاملة في الأفكار والبرامج والممارسات ، ومواجهة مأزق هذا الانحطاط الفكري والسياسي ، عبر الانطلاق من ضرورة نقد الممارسات في هذه الحرب الطويلة ، ونقد الأفكار الطوائفية والبرامج العرجاء ، التي افقدتنا المناعة امام جنون الطوائف .

هذا النقد ليس نقدا للممارسات اللبنانية أو الفلسطينية فقط ، انه نقد لمجمل الوضع العربي ، وللمأزق الذي تتخبط فيه الأنظمة وهي تعلن عجزها وأفلاسها امام اسرائيل ، أو وهي تتحول الى أدوات لقمع شعوبها وسحق ارادتهم .

تسع سنوات تنتهي اليوم .

جيل كامل ولد في الحرب وعاش وسط انقلاباتها الرهيبة . جيل صنع حلمه وفقده ، دفع ثمن الحلم الذي وقفت ضده وحاولت ان تقتله جميع قوى الماضي . هذا الجيل الذي حاولوا ان يكسروه ، تعلم من الحرب الدرس الأساسي الذي حجبته كتب التاريخ الرسمي كلها ، وهي ان التاريخ لا يصير تاريخا الا حين نتعلمه ونحن نصنعه .

لقد دفعنا الكثير من أجل أن نتعلم .

آلاف ، عشرات آلاف الضحايا ، سقطوا ، وما نزال في دوامة الموت .

ووسط هذا الخراب ، ما نزال نقول لاسرائيل وللمنطق الاسرائيلي ، وللمنطق الفاشي الطوائفي لا ،

نقول لا ، ونواجه هذا الموت بالمقاومة والانتظار .

وسنظل نصرخ حتى يستفيق هذا الوادي العربي من سباته .

وسنظل نرفض ونقاوم ولن نستسلم لهذا الموت .

نقول لا للمذبحة ونقاوم وننتظر .

٨٤/٤/١٣

الفتى المخطوف

قالت المرأة ،

مات أبوه ، كنا في أبو ظبي وغرق الرجل في البحر . ثلاثة أيام ونحن نبحث عن جثته قالوا ربما لم يمت ، لكني كنت متأكدة ، شيء في داخلي قال لي ان الرجل مات . وعندما وجدوا جثته ضربني حزن عاصف ، لكني احسست بما يشبه الارتياح ، لا أعرف كيف يجيء الحزن مع الارتياح ، مات في الغربة، في البحر ، ذهب يشتغل ومات ، وبقيت وحدي .

قالت المرأة ،

لم يترك لي سواه . ابني اسمه علي وهو اليوم في الثالثة عشرة ، وعندما غرق أبوه كان عمره سنة واحدة . كان علي كل شيء . أخذته ورجعت به الى لبنان ، واشتغلت وعشنا . كان رجلي الوحيد وكنت امه الوحيدة . كنا وحيدين ، لكننا كنا نحاول ان نصنع حياتنا من جديد . وصنعناها . سكنا في القماطية ، هو ذهب الى المدرسة وانا جئت الى هنا واشتغلت . عمره من عمر الحرب . بدأت الحرب وكان طفلا ، عشت معه الحرب ، والان الحرب تستمر وهو ليس معي . انا لا أحب الحرب ، اريده ولا أريد ان أعيش مع الحرب .

قالت المرأة ،

لكنهم خطفوه كان قادما الى بيروت واختفى . جاء هو وصديقه ولم يصلا منذ شهر ونصف وانا انتظره ، لكنه لم يصل . رحلة طويلة ، لكنه

سيصل . كل يوم عندما أنهض من النوم أو من هذا الذي يشبه النوم أقول انه سيأتي . في لحظات الصباح الأولى عندما افكر انه سيأتي اشعر بفرح غامض ، ثم يمر النهار ويتلاشى الفرح . لماذا خطفوه ، هو لم يفعل شيئا ، ما يزال طفلا ، لماذا يخطفون الأطفال ؟ اكيد ، المسألة مجرد خطأ ، وانا اسامحهم . انا مستعدة ان اسامح كل الناس ، كل الناس اسامحهم ، لكن عليه ان يصل لم أتعود ان انتظر هذه المدة الطويلة . الصبر مر وانتم لا تسمعون . انا امرأة وحيدة ، شربت كل الصبر الموجود في هذا العالم ، لكنه لم يصل بعد .

قالت المرأة والمرأة التي تقول لا تشبه الا نفسها ، كل ام لا تشبه أي ام أخرى . رأيتها ورأيتهن ، كل امرأة تختلف ، وكل حكاية تختلف ، والحكاية واحدة .

لكن نايفة وهي تتكلم عن الفتى المخطوف علي حمادة ، تغيب كأنها حاضرة . نايفة التي عرفناها منذ سنوات وهي تجلس خلف طاولتها في « السفير » ، وترد على التلفون وتبتسم لنا . نايفة تدخل اليوم في المساحة التي تفصل ايدينا عن أقلامنا .

أقول لنايفة اني سأكتب ولا أكتب .

هي لا تعرف انها كسرت كل الكتابة . من يجرؤ على الكتابة . كيف نستطيع ان نجعل من الأحرف والكلمات صراخا لا يشبه هذا الصراخ الكاذب الذي تمتلىء به المدينة . كيف نستطيع ان نجعل من الكلمات صرخة استغاثة حقيقية في وقت يضحك فيه الجلاد من صراخ ضحيته ، يثير الصراخ ، فيه مزيداً من البحث عن الضحايا ومزيدا من جنون الرعب والاجرام .

وعلي حمادة ليس حالة فريدة .

كل حالة فريدة ، أقول . لكنني اعرف انهم يقتلون وجودنا ويحيلوننا الى أرقام .

المئات مثله ، والمئات الذين غابوا لم يعودوا ، والامهات ينتظرن .

ماذا تستطيع المرأة التي تنتظر وهي تعيش تحت خيمة القصف والرعب الذي يجتاح المدنية ؟

تقول انه ابنها ، ماذا تفعل المرأة بابنها غير ان تبحث عنه وتنتظره .

قالت المرأة ،

لم أترك أحدا ، الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم ، الذين يخطفون والذين لا يخطفون . لم اترك رجلا كبيرا الا وكلمته عنه وعن أولاده . كلهم عندهم أولاد ، وكلهم وعدوني ، وكلهم يفهمون وضعي لو كنت أعرف اين لذهبت . لو كان هناك سجن لذهبت وجلست على بابه وانتظرت ولن ازعجهم . لن ازعج الحراس ولا الزعماء . اجلس على الباب وانتظر . دلوني عل السجن حتى أذهب . هل هذا ممكن ، سجين ولا اعرف سجنه ، مخطوف ولا أعرف مكانه . يا ليتهم يقولون لي اين وضعوه ، في أية زنزانة حتى أرتاح قليلا . فانا أقبل . احبسوه ما شاء لكم ، وانا سأعوضه كل شيء عندما يخرج . لكن قولوا لي شيئا .

لكنهم لا يقولون. لا احد يقول لي . هل من المعقول ، يختفي ابني ولا يعترف احد انه خطفه ، لا احد يقول ، هل هذا معقول ، لا احد خطفه ، الخاطف مجهول والجميع يعرفونه ، وانا اعرفه . اذهب الى الخاطف فيقول انه لا يعرف ، من يعرف اذن ؟ الخاطف لا يعترف ، هل يخاف مني ، انا لن أفعل له شيئا ، انا لا أستطيع أن أفعل شيئا ، لكنه لا يعترف ويريدني أن أصدقه .

ونايفة التي تغير صوتها وصار يشبه اصوات الأمهات ما تزال تبحث . لم تعد تسألنا شيئا ، ولم نعد نجرؤ على أن نسأل . لكننا نعرف انها تبحث عنه . لم تعد تقول شيئا ، كتبت نداء ونشرته في كل الصحف ، ذهبت الى كل مكان ، رجت الجميع حتى لم يعد للرجاء مكان ، وها هي تحيك في عينيها حكايتها . تحيك الحكاية وتدخل في الحزن الذي لا حزن يشبهه .

ونحن ماذا نفعل ؟

كنا نعلم اننا من زمان لم نعد نستطيع ان نفعل شيئا . لكننا امام عيني هذه المرأة نكتشف ان عجزنا يعادل الجريمة . لقد سكتنا طويلا على اكبر مؤسسة اجرامية في هذه الحرب ، وهي مؤسسة اسمها الخطف . والخطف ليس عملا بريئا ، ليس ردة فعل يقوم بها « أبرياء » ، الخطف هو مؤسسة لخنق الأبرياء ، لا يخطفون غير الأبرياء ، ليس لأن الخاطفين مجرد جبناء بل لأنهم شيء آخر ، لأنهم يريدوننا ان نخرج من الحياة الى الاستسلام الكامل والركوع الكامل ، حتى يفعلوا ما يشاؤون . وهم لا يشاؤون شيئا . غيرهم يشاء لهم ، غيرهم يريد ارجاعنا الى عصر قبائل الطوائف المغلقة ، حيث الحماية من الخوف عبر الخوف ، وحيث الحماية من الخطف عبر خطف العقل وابادته . كلما سكتنا والتهينا بتشكل الوزارات وباللجان الأمنية وبالقاضايا الكبرى .

والخاطفون لا قضية لهم سوى خطفنا وابادتنا وتحويلنا الى البدائية حيث تصير امنياتنا كلها هي ان لا نموت بقذيفة أو لا نخطف ونحن نشتري الخبز . .

ماذا نقول لنايفة ولمئات الأمهات اللواتي يتجمعن امام دار الفتوى منذ سنة ونصف . لم نعد نستطيع ان نقول شيئا . . صرنا نخجل من أقلامنا ومن أوراقنا .

وها هي عيوننا تنكسر في الأرض لأننا لم نعد نجرؤ على النظر الى عيون المرأة التي تنتظر .

٨٤/٥/١٠

ولا تشبه الا نفسها .

ماذا سنخبر عنك وأنت تموتين ، وانت تأخذين حكايتك الى حيث تنتهي كل الحكايات قبل ان تبدأ . اليست هذه هي الحكاية ؟ زوج يموت غريقا في البحر ويغيب ثلاثة ايام مع الماء قبل ان يجدوا جثته . وطفل يختفي وتبحثين عنه تسعة أشهر وتذهبين الى حيث لا احد يبحث .

ماذا سنخبر عنك .

لماذا الانتحار يا نايفة ؟

كنت سأقول لك لكني اخاف ان تزعلي ، وانت الآن مكللة بكل بهاء الموت ، وانت الآن تشبهين امي . كنت سأقول لك انهم لن يتأثروا . مؤسسة الخطف التي انشأها سفاحو شاتيلا وصبرا لن تتأثر امام موتك البهي ، لأن القتلة دخلوا منذ زمن طويل في رقصة العار والجنون ، ولأن الموت يثير فيهم شهوة اكبر الى القتل .

لن أقول لك لماذا الانتحار ؟

فانت لم تنتحري . انا رأيت القتلة تسعة اشهر وهم يعصبون عينيك ، تسعة أشهروهم يجلدونك بالحديد ، تسعة أشهر ، نراهم ونرى عذابك ولا نفعل شيئا . نتلهى نملأ وقتنا بالكذب والرياء نملأ حياتنا بالصمت ، نراهم ونسمع صراخك ولا نستطيع ان نفعل شيئا ، تسعة اشهر يا صديقتي الجميلة وانا اخاف ان احكي معك ، وانا لا اجرؤ على ان اسألك شيئا .

رأيناهم وسكتنا .

وكنت تموتين نبضة نبضة . كنت تذوبين وسط الأيدي التي تعذب روحك وتقتل جسدك ، وكان علي غائبا ! اعرف انك ذهبت الى كل مكان ، اعرف انك بحثت وصرخت . رأيتك معهن ، مع نساء لبنان وانتن

تملأن الشارع بالحزن ، وانتن تحرقن دواليب المطاط عشية تنفيذ الخطة الأمنية . . رأيتك ، رأيناك ، لكننا ذهبنا الى راحتنا المؤقتة وعقدنا صفقة مع القاتل ، صمتنا عن القاتل لأننا كنا نعرف ان الحبر صار أبيض والدم صار أبيض ، صمتنا لأننا . . لا اعرف لماذا . . لكننا كنا عاجزين عن ان نصرخ بهم ، وكان عجزنا قاتلا . نجحوا في تلويث كل شيء بالجريمة ، حتى صارت الجريمة هي القاعدة . وتلوثنا فسكتنا . لوثوا بيروت كي يقتلوا روح المدينة ونجحوا . اعتقدوا واعتقدنا معهم انهم نجحوا .

لكنك ، بجسدك النحيل وكتفيك المنحنيتين على الموت تكتبين بطريقة مختلفة . لم تقتلي احدا . كنت ضد الانتقام وضد الخطف . لم تفعلي كما فعل الجميع اخذت اقصر الطرق الى الاحتجاج انتظرت تسعة اشهر كي لا يلومك احد ، درت مع الفصول وحبلت عيناك بالفتى المخطوف . وعندما لم تأتِ الولادة جاء الموت .

موتك أيتها الصديقة هو الصرخة الأولى .

انتحارك البهي يعيد الحكاية الى بدايتها .

امامك ، امام الموت والحزن والصمت لن نصمت بعد اليوم . سامحي صمتنا وعجزنا وخراب روحنا .

وستكونين انت حكايتنا كلها . انت الحكاية والصداقة والصمت والكلام .

انت الحزن والصراخ .

انت ، تذهبين الى حيث تذهبين ، وتتبعك عيوننا ، ولا نجد الكلام .

٨٤/١٢/٢٨

القصف والجريمة

مدرسة الارشاد حيث المهجرون ، ثم مدرسة كلية البشارة حيث الأطفال يلعبون في الباحة ، ثم ماذا . .

هؤلاء الذين يقصفون من اجل رفع سعر الدولار او من أجل أهداف سياسية او من أجل لذة القصف نفسها ، هؤلاء ماذا يريدون منا ، وما هي مطالبيهم حتى نلبيها .

لقد انفلقنا .

أيها السادة انفلقنا من هذه الأساليب . تريدون الحرب اذهبوا اليها وخلصونا ، اذهبوا وحاربوا وانتصروا او انهزموا ، لكن خلصونا من هذه الأساليب الاجرامية التي لا تفيد قضية ولا تخدم هدفا .

فهذا الأسلوب الجبان الذي يتصيد الفقراء والأولاد لم يعد يثير فينا سوى الشعور بالغثيان من انتمائنا الى هذه البلاد المنكوبة والشعور بالعار من كوننا نعاصر هذا الزمن الجبان والأرعن .

ولو اردنا تفسيرا منطقيا واحدا لجنون القصف هذا ، فلن نعثر عليه ، لأن المنطق غاب كليا ، ودخلنا في لعبة الحرب التي لا هدف لها ، أو التي تهدف الى اخراج جميع الناس من السياسة والحياة وتحويلهم الى عبيد لامراء الحرب وفرسان الطوائف .

لماذا يقصفون .

يقصفون من اجل الجيش ، من اجل تحسين مواقعهم في الجيش قبل فتح ملفه . لكنهم لا يحسنون موقعا ولا ينتصرون الا على الموتى .

يقصفون من اجل التلاعب باسعار الدولار . تلاعبوا طويلا حتى فرط الاقتصاد وفرطت الليرة ولا يشبعون .

يقصفون من أجل خدمة الهدف الاسرائيلي ، أو يقصفون ضد الهدف الاسرائيلي ، واسرائيل في الجنوب وليست في المدارس ، وعملاء اسرائيل على خطوط التماس وليس في البيوت .

يقصفون من اجل فرض الحل السياسي . . لكن الحل السياسي يزداد تعقيدا والقصف يبعدنا عن السياسة .

لا بد ان هناك تفسيرا لبنانيا خاصا لهذا الجنون . انه القصف للقصف . فكما يوجد الفن للفن اخترع امراء الحرب مفهوماً جديداً اسمه القصف للقصف . يقصفون من اجل القصف نفسه ، من اجل التمتع بمشاهدة صور الجثث على شاشة التلفزيون وفي صحف الصباح . يقصفون من اجل المتعة المجردة عن كل هدف . فلقد تجرد ابطال القصف من كل هدف وصاروا هم هدفا لأنفسهم ، صاروا هم الوسيلة والغاية، البداية والنهاية . .

القصف للقصف هل هذا معقول ؟

طبعاً هذا هو المعقول الوحيد في هذا الزمن الذي يفترسه الكذب والجنون . المتعة هي في مزيد من القتل المجاني ، لأن القتل الممتع هو القتل المجاني ، القتل الذي يبرهن للقاتل انه يستطيع ان يقتل كما يشاء وساعة يشاء دون اي حساب أو رقيب أو خوف .

القاصف يريد ان يثبت لنا انه لا يخاف من الخوف ، فهو الخوف ، هو

الجريمة فكيف يخافها . .

ونحن ماذا نقول ؟

حاولنا ان نقول لكنهم لا يسمعون ، حاولنا ان نشير لكنهم لا يرون ، حاولنا ، لكنهم سرقوا كلامنا كله ، يقصفون ويحتجون على القصف ، يقتلون ويلبسون ثياب الضحية ، حتى احترنا في امرنا معهم .

ثم هم في المجهول دائما . مرة خدعونا بحكاية الطرف الثالث ومرة ثانية ضحكوا علينا بمسألة القناص . . لنكتشف ان لا وجود لطرف ثالث ، وان القنص صار اليوم بالمضاد وبمدافع الهاون .

ومع ذلك ، هم يعرفون اننا نعرف ، لكنهم يستمرون في لعبة الضحك علينا ، ويصدرون البيانات ويستنكرون ، ونحن نموت .

من مافيا الدولار الى مافيا الجريمة وهذا الشعب يتجرجر في الآلام ، والعصر الاسرائيلي يأكلنا من الداخل ، وامراء الطوائف ينتصرون . لكنهم لا يعرفون ان اللعبة ستأكلهم ، وان هذا الرهان على القوى الأجنبية لن يقود الا الى مزيد من الدمار والموت ، واذا انتصروا فانهم لن يحكموا سوى الخراب والمقابر .

٨٤/٥/١٥

الطريق الى بيروت

من سمرقند الى بيروت ، المسافة طويلة والزمن يضيق .

في سمرقند تـرى الأزرق يغطي الفضـاء وتسأل . قـالت المترجمـة انها طريقة انتظار السماء . كانوا يـطلون السقف بالأزرق حتى يصـير كل شيء شبيها بلحظة النهـاية . وحـين تأتي النهـاية ، ويحـل الأزرق على الأرض ، يكون ازرقنا مستعداً لاستقباله وللاندغام به .

كانت المترجمة تروي ونحن نصعد الدرج الى قبـر ابن العباس ، وانـا التفت مصابا بالدهشة امام الخط العربي وهو يتماوج في الزرقة التي تتسع الى ما لا نهاية .

وفي طريق الهبوط سألت عن قبر ابن العباس . قالوا انه لم يمت . قالوا ان ابن العباس جاء الى سمرقند مبشرا فهجم عليه أحدهم وقطع رأسه . نهض ابن العباس ، انحنى على رأسه المقطوع وحمله بيديه ومشى ، ومشى الناس خلفه، ثم دخل نفقا ومن النفق دخل بئراً واختفى والناس انتظرته امـام النفق المؤدي الى البئر لكنـه لم يعد . قـالوا انـه سيعود حـين يحتل الأزرق كل المساحات . لكنه لم يعد .

قالت المترجمة ان الناس هنا كانوا يعدون الدرج صعودا وهبوطا ، فاذا لم تتطابق ارقام الصعود والهبوط فهذا يعني سوء النية أو الخطيئة.انا لم اجرؤ على ان اعد الدرج خفت ان لا تتطابق الأرقام وخفت ان تتطابق . وعندما

هبطنا سألتني عن العدد قلت لا اعرف، وقالت هي انها لا تعرف . قالت انها صعدت هذا الدرج عددا لا يحصى من المرات ، وانها في كل مرة كانت تخطىء العد .

انا لم أخبرها لماذا خفت من الأرقام المتطابقة ومن الماضي ومن القباب الزرقاء . اكتفيت من الدرج بالصعـود والهبوط ولم ازر قبـر ابن العباس . القبر الذي زرته كان قبر تيمورلنك . هناك وقفت طويلا ولم أسـأل شيئا . كانوا يتحدثون عن القدم العرجـاء والبطولات ، وانـا استمع وأرى القبـر الرخامي الأسود .

نخرج من سمرقند ومدارسها وقبابها الزرقاء لنعود الى بيروت . نخرج من الماضي وقد أصبنا بصدمة الدهشة امام مرآة قديمة لنعود الى الحاضر أو الى المستقبل .

البعد عن هذه المدينة صار مستحيلا ، فهي المكان الذي صـار شبيهها بـالزمن ، وهي الـذاكرة والـذكريـات والانصاب والقبـور ورائحـة المـوت والحياة . وفي الطريق الطويل والمتعرج الذي يعود بنا اليها ، نصاب بصدمة المرآة التي تعكس حاضـرنا ومـاضينا ، نصـاب بالخـراب الذي ينتشـر على الأرض ويغطي السماء . نسلك الطريق الطويل كأننا نمسك بمحـاية كبيـرة تمحو وجوهنا وتعيدنـا الى الوراء ، أو تـرمي بنا عـلى حافـة الموت ، ونحن نحاول ان نواجه هذا المحو بفتح عيوننا . نفتح عيوننا الى الأقصى ونرى ، ونسأل الماضي .

من الماضي الى الماضي .

لماذا يعود الماضي بمثل هذا الوضوح القاتل الذي لا يليق به . وضوح يرميه ويرمينا معه على طـرقات مهـدمة وفي قـوس الموت . وهـل هذا هـو الماضي ؟

بيروت تسأل وانا أسأل ، والقصف يمطر هذا الموت ، والأفق مسدود بالماضي الذي لا يعود الا بوصفه ماضيا ، أي بوصفه ذاكرة مثقوبة وذكريات مشوهة .

أسأل بيروت ، وبيروت لا تجاوب . فبيروت مشغولة بوجهها الذي يكاد يتساقط ، مشغولة باحزانها التي لم يعد البحر قادرا على لملمتها .

والماضي يعود . امشي في الطرقات فلا أرى قبابا زرقاء ولا درجا طويلا . امشي فأرى وجهي يتساقط على الأرض وانا لا اجرؤ على التقاطه .

انه الموج العالي . موج الطوائف والانحلال والفكر المستقيل . ففي زمن التراجع ، حيث التبست الأشياء على نفسها ، يعود الينا الماضي على صورة العجز عن فهم الحاضر او التعامل معه . يعود الينا الخوف بصورة الشجاعة والنذالة بصورة الشهامة والوهم بصورة الحقيقة . وامام الخوف والنذالة والوهم ، نكتشف ان لا خيار لنا . فالخيار الذي دفعنا ثمنه سنوات الحصار والقصف، هو وحده خيارنا في مواجهة الموج العالي . هو الخيار الوحيد لاننا تعلمنا ان الانحطاط لا يؤسس لشيء بل يؤسس لزواله . وان الزمن قد ينقلب لكنه لا يستطيع ان يعود من حيث أتى .

وفي بيروت نكتشف كيف يمر الزمن ولا يمر . اسبوع بحجم سنة وسنة بحجم أسبوع ونكتشف ان الزمن لا يمر سريعا ، بل هي الأيام تتدحرج والهاوية تتسع .

امام الماضي الذي يستفيق ، كأنه في صحوة الموت ، تسأل ، هل هم يصدقون ام انه كابوس سنستفيق منه ونهزأ من رموزه . هل يصدقون حكاية الطوائف بالجدية التي يظهرون بها . . هل يمكن ان نصدق هذا الحقد وهذا العمى . نقتل بأيدينا واسرائيل تجتاحنا من الداخل ، تراهن على هزيمتنا

الداخلية كي تنقذ نفسها من هزيمة التورط في جنون الأحلام الامبراطورية .

هل نصدق ان اجدادنا الذين هربنا من ظلامهم وحاولنا ان ننسى انحلالهم في زمن الانحلال العثماني قد نهضوا من قبورهم ونبشوا قبورنا واعادونا الى حظيرتهم المسيجة بعقلية القبائل المنقرضة . .

امام هذا الماضي ، لا أستطيع ان أصدق حقيقة ظاهر الأشياء . . فلو صدقنا لانتهت الحياة الى تكرار لا يليق بها ، ولانتهى الحلم الى كابوس يخنقنا . فالماضي لا يعود ، انها مجرد لحظة يدافع بها الماضي عن نفسه بشراسة جنونية تؤكد نهايته . يستخدم جميع الأساليب ويصير في النهاية جزءا من العصر الاسرائيلي الذي يفرض علينا هذا الموت الذي لا ينتهي . وفي هذا اللقاء يحفر الماضي نهايته ويدفع بالجميع الى اعادة النظر بكل شيء .



وفي الطريق الى بيروت يفترسنا البحر . المدينة تبدو من الجبل ومن الطرقات المتعرجة وكأنها امتداد للبحر الذي لا ينتهي . وحين نصل الى البحر ونشم رائحة ملحه واسماكه نكتشف ان البحر لا يستطيع ان يهاجر واننا باقون معه .

وامام البحر وعلى الرغم من رائحة الموت تأتي صورته . بلال فحص ، أو يسار مروة ، أو كل الأسماء التي امتلأت بها السجون . . تأتي صورته لتقول لنا ان دمنا وعذاباتنا وموتنا لا يمكن تأجيرها لأمراء الموت واسياد الطوائف . تأتي لتقول ، انه هناك على الضفة الأخرى من اليأس تنهض الانقاض وتستفيق وان الزمن الذي ارادوه للموت يخلف من الموت حلما يتجدد .

صورته تشبه صورة علي شعيب وصورة علي شعيب تشبه لبنـان الذي يحاولون محوه بالمـاضي وبالجنـون . وفي الزمن الـذي يمتد بـين علي شعيب وبلال فحص ، بين الهجـوم على بنـك أوف اميركـا والهجوم عـلى الدبـابة الاسرائيلية ، بين الموت في بيروت والموت في الجنوب ، يولـد بلال فحص من جديد ويعلن ايقاع الحاضر . لا يلتفت الى الوراء بل يضع كـل شيء جديداً .



في الطريق الى بيروت نكتشف الماضي بوصفه ماضيا ، ونقول للمرحلة ان تنتظر قليلا ، فهذا الكابوس الطويـل يجب ان ينتهي ، وزمن الطوائف هذا ليس اكثر من ردة فعل على سطح الأشياء .

٨٤/٦/١٩

مؤسسة الخطف !

مرة أخرى تمتلىء الشوارع بالنساء ، وتقطع الطرق ، ويرتفع الصراخ ، وتسأل بيروت عن نفسها ومصيرها .

ومرة أخرى ، تأتي الأمهات لتذكر الجميع بأن القتل لا يصنع سلاما ، وان القتلة لن يصيروا اسياد الحياة بعد ان كانوا أسياد الموت .

ومرة أخرى ننسى ، فتأتي صورهم المرفوعة لتذكرنا بأن السلام ليس تجارة بالجثث ، وان الأوطان ليست شركات للتصدير والاستيراد ، واذ الحياة ليست منة من أحد .

امس واليوم وغدا ، سوف تروهن وقد قطعن هذا « السلام » . امس واليوم وغدا سيرتفع الصراخ ولن ينام احد ، لأن ارواح القتلى وعذاب المرميين في باطن السجون سوف يملأ المدينة ويدخل الى البيوت ويحتل اسرة النوم .

امس واليوم وغدا سوف نكتشف من جديد ان الجريمة لا تستولد غير الجريمة ، وان القتلة الذين ارتكبوا المذابح السادية لن يتوقفوا عن اجرامهم ، لأن ايقاف الجريمة يعني الفضيحة ، ايقاف الجريمة يعني كشفها وكشف كل الأطراف التي تسترت عليها وغطتها بأغطية هذا النظام الوحشي الذي صنعها وصنعته .



الجميع فوجئوا . كل الناس ذهبوا في فرحة الخطة الأمنية على الرغم من قناعاتهم بأن المسألة لا يمكن حلها على هذه الطريقة . ولكن ، ولأن ابطال القصف حولوا حياة الناس الى جحيم ، ولأن الظروف الاقليمية لا تسمح لنا بحل حقيقي ينهي الحرب وأسبابها ، فرح الناس بالخطة الأمنية وبالمطار وبالمعابر . . .

ولكننا فوجئنا بأن قضية المخطوفين لا تجد حلا . من البديهي ان يكون حل هذه القضية هو الأكثر سهولة ، فالذي يحتجز مخطوفين يقوم باطلاق سراحهم وتنتهي المسألة .

والمسألة لا تنتهي . لأن الذي يحتجز المخطوفين ما يزال مصرا على ان لا يعترف بأنه يحتجزهم ، والذي حول ردة الفعل الى مؤسسة ، واستورد الأساليب الاسرائيلية المأخوذة بحرفيتها عن تقنيات التعذيب النازية ، لا يريد ان يرينا يديه مخافة ان نرى آثار الدم عليهما .

القضية تزداد تعقيداً ، لأن الأمهات والزوجات ، تحولن اليوم الى ضميرنا بعد ان قتلوا ضمائرنا وحولونا الى اشباح خائفة . هؤلاء النسوة يطالبن بالحد الأدنى : الكشف عن مصير الرجال والنساء الذين خطفوا ، والحد الأدنى صار اليوم مطلبا خياليا . الحد الأدنى صار حدا أقسى والمطالبة بأبسط حقوق الانسان صارت تهديدا لمسيرة السلاح والوفاق ، والكشف عن أبشع جريمة ترتكب صار حجر عثرة امام ايقاف الاجرام ؟

أيها السادة ، أي بلد هذا ، وأي سلام ، وأي وفاق ؟

هل تعتقدون انه يمكن القبول بأن يذهب مصير الآلاف الى العدم الاخلاقي . هل يمكن توريط الجميع بهذه الجريمة ثم مطالبتهم بالتوقف عن القتل ؟



مؤسسة الخطف .

فالخطف لم يكن ردة فعل ، الخطف تحول الى مؤسسة حقيقية . الناس أرقام ، والنساء تغتصب ، والتعذيب تجريبي ، والأشغال الشاقة ، والرقم الذي فقد كل صلة بالعالم ، والجثث التي ترمى الى البحر ، والى ما لا آخر له ، لأننا لا نعرفه . . .

عندما التقيت بنساء المخطوفين منذ اكثر من سنة وسمعت حكاياتهن ، اعتقدت بسذاجة المثقف الذي لا يرى ، لأنه يخاف من عينيه اعتقدت انني اسمع حكايات أسطورية ، وان النساء يسقطن خرافات المجتمع على واقع ابنائهن .

ثم بدأت الأخبار تأتي من زنازين الخطف ، وكانت اخباراً متفرقة وغير قابلة للتصديق ثم تزايدت الأخبار وجاء الذين أفرج عنهم ، وتحدثوا ، وخفنا . كنا ونحن نستمع اليهم نشعر بخوف غامض يفترسنا من الداخل ، خوف من لا يريد ان يصدق ، من لا يريد ان يتورط بالحقيقة ، لأن الحقيقة سوف تمنعه من الاستمرار في هذا النمط المخادع من الحياة . وكانوا يتحدثون ببساطة من مات ثم انقذ بالصدفة ، ويروون عن تلك الأيام التي عاشها المعتقلون في سجون الفاشية الصغيرة .

ومن الأخبار التي رووها هناك ما يؤكد بأن الرقم الحقيقي للمحتجزين اكبر بكثير من الرقم المعلن ، وبأن هناك شيئاً غامضاً يريد اخفاء المسألة كلها وطي صفحتها نهائياً ، حتى لا ينكشف الحقيقي المرعب .

ربما كان اصحاب مؤسسة الخطف على « حق » في تسترهم على مؤسستهم ، لأن واقع هذه المؤسسة اذا كشف ، سوف يفضح الجميع ، ويفضح استحالة هذا الشكل من الترقيع والتسويات . فانكشاف المؤسسة يعني ان المجتمع لا يستطيع ان يتكون كمجتمع في حدوده الدنيا ، اذا لم يجر

تدمير هذه المؤسسة ومعاقبة اصحابها .

ولكن ، من يعاقب من ؟

كيف يمكن فضح المؤسسة دون فضح كل شيء ؟ هذا ما حاولته الفاشية منذ بداية الحرب الأهلية . توريط الجميع في جريمتها كي يصبح الاجرام سمة اجتماعية عامة ، وكي يتفكك المجتمع ولا يعاد تركيبه الا عبر القمع الفاشي الذي قام بتفكيكه .

واليوم ، وصلنا الى لحظة تعلن فيها الطبقة الحاكمة بكل اجنحتها عجزها عن التعامل مع جريمة واضحة وتمس الوجود الاجتماعي بأسره .

وعندما يعلن الحاكم عجزه ، يكشف تورطه . وفي لحظة انهيار كالتي نعيشها يقوم بتوريط كل الناس معه . فنصبح كلنا قتلة وخاطفين ، وتضيع معالم الجريمة ويضيع الناس ونضيع نحن .



١٥٤٢ كان يتحدث .

وقفنا لنستمع اليه فلم نفهم كثيراً . فهذا الرجل الذي لا يذكر من اسمه سوى الرقم ، لأنهم دربوه على النسيان ، مرمي في سريره في المستشفى ولا يستطيع ان يتذكر سوى الانين .

كلنا نشبه ١٥٤٢ ، لأننا كلنا لا نريد ان نتذكر ، كلنا نريد أن ننسى المذابح والقصف الجنوني . كلنا نريد ان نغرق في صمت الكذب . لكن الفرق بيننا وبين ١٥٤٢ ، هو أنه اكثر صدقا منا ، واكثر التصاقا بالحياة .

١٥٤٢ هو النموذج لما قد نصير اليه اذا اغمضنا عيوننا وقبلنا ان يستمر امراء الحرب والفاشيون الصغار في جرنا الى هاوية النسيان .

وعندما تخرج النساء لتذكرنا بالحياة وبأن الحياة تستحق ان تصرخ فينا وان تقاوم ، عندما يخرجن بالصور المعلقة على صدورهن ، نتذكر من جديد ان استقالتنا لا تعني نجاتنا ، وان اغماض العيون لا يعني الهرب . .

لذلك تتردد اصداء صرخاتهن في الرؤوس والقلوب . ونصرخ معهن ،لنقول ان الجريمة لا تستطيع ان تلبس ثياب البراءة .



منذ بداية الحرب كان الخطف تقنية لاصطياد الأبرياء . كان اعلانا بموت البراءة ، ودعوة الى الحاق كل شيء بالمكنة الفاشية التي تطحننا . وخلال مسار الحرب الطويل ، نجحت الفاشية في توريط الآخرين .

من أجل كل ذلك ، تأتي أصواتهن وصورهن لتذكرنا ولتكون الشهادة الأخيرة في زمن انسحب فيه الشهود وصمتوا .

انها الشهادة الأخيرة وستكون الشهادة الأولى .

فهذا الكذب لن يصنع بلادا . وهذا الظلم لن يصنع عدلا .

العدل في مكان آخر وسيأتي من جهة أخرى وبلغة أخرى ليدمر الخطف و « سلامه » ، معلنا موت هذه المرحلة التي قتلتنا قبل أن تمضي .

٨٤/٧/١٠

ولَن نسكت

المفاجىء في محاولة اغتيال طلال سلمان هو اننا لم نفاجأ بها . كأننا كنا على يقين من أنها ستحصل يوما ما .

كنا نعرف ، وكانوا يعرفون اننا نعرف .

ولأننا نعرف لم نشعر بالخوف ، بل بمزيج من المرارة والحزن .

ان تسبح ضد التيار فهذا لن يغير مجرى النهر ، لكنه قد يغير مجرى حياتك ومعنى النهر .

وسبحنا ضد التيار ، بحثا عن المعنى . وفي البحث عن المعنى حاولوا قتلنا .

لم نسبح ضد التيار حبا بالمعارضة أو حبا بالتميز والاختلاف ، سبحنا لأننا هكذا . لأن القلم رفض ان ينكسر في أيدينا ، ولأن الحلم رفض ان يغادر عيوننا ، ولأننا لم نستطع ان نخون جيلنا واصدقاءنا وغابة المدى التي احتلت لبنان . لم نستطع ان نتأقلم مع هذا الزمن المنقلب فلم ننقلب معه ، فضلنا البحر على يباس اليابسة والكتابة على موت الروح .

عدم قدرتنا على التأقلم لا تحمل أي معنى من معاني البطولة أو الشهامة . لم نستطع لأننا لا نستطيع . فنحن أيها السادة قادمون من مكان آخر ، قادمون من أرض أردنا خلقها على صورة أحلامنا ، قادمون من فهم مختلف للكتابة . الكتابة في العرف السائد هي اداة لحجب الحقيقة

وطمسها ، الكتابة السائدة هي كهانة الانحطاط والانقراض . اما نحن فمقتنعون ان على الكتابة ان تقترب من الحقيقة ، وكلما اقتربنا من الحقيقة كلما لفحنا وهجها وازداد تورطنا بها . فكتبنا كما نكتب ، وكنا نعلم ان هذه الكتابة هي اقتراب من الموت ، لكننا لم نختر هذه الحياة فلماذا لا نختار ثمن تغييرها . لم نختر هذا الانحطاط فلماذا لا نختار نقيضه . اقتربنا من الحقيقة فتورطنا بوهجها الذي يسمرنا وصرنا عاجزين عن مغادرته الى حيث الأمان والرفاهية والسلطة .

ولأننا لم نستطع ان نتأقلم ، ولأن ما يراد لنا التأقلم معه هش ومنحط وبلا معنى ، لم نفاجأ بمحاولة اغتيال رئيس تحرير « السفير » ، ولن نفاجأ بأي شيء قد يقومون به من اجل اخراس صوتنا ودفن كلماتنا .

المسألة أيها السادة اننا نعلم ما تريدون منا ، ونعلم اننا لن نقدمه لكم .

انتم تملكون الأسلحة والأجهزة والقنابل ونحن لا نملك شيئا ،

انتم تملكون القوة ونحن لا نملك سوى اقلامنا . .

الأمور تصل اليوم في لبنان الى ذروتها ، والذروة هي الصمت . الصمت عن الاحتلال ، والصمت عن القمع والصمت عن الخطف والصمت كي نموت ، وندخل في خراب الانحلال .

ونحن نسأل :

هل هي مجرد صدفة ان يتزامن منع « السفير » ثم منع الصحف عن الجنوب مع محاولة اغتيال طلال سلمان ؟

هل هي مجرد صدفة ان يأتي الاغتيال في الوقت نفسه الذي يكثر فيه الحديث عن الأمن الذاتي والكانتونات واشكال التقسيم المتداولة ؟

وهل هي مجرد صدفة أيضاً ، ان يترافق طمس مقاومة الاحتلال الاسرائيلي في الجنوب مع محاولة خنق الصوت الذي كرس نفسه منذ البداية من اجل مقاومة الاحتلال ، ودعا الى اعتبار هذه المقاومة أولوية مطلقة .

عندما تتلاقى الصدف بهذه الطريقة ، فاسمحوا لنا ان لا نصدق اعتباطية الصدفة .

الصدفة صارت مخططا ، والمخطط واضح ومكشوف . يريدون اخراسنا من اجل ان يمر كل شيء بهدوء ودون ضجيج . يريدون كم أفواهنا لأنهم يريدون تكبيل الأيدي التي تقاوم . يريدون منعنا من الكتابة لأنهم خطفوا المخطوفين ودمروا البيوت .

ومرة اخرى نحن نعرف ماذا يريدون ، ومرة أخرى لن نسكت .

فهذه البيروت التي حاصرها الجيش الاسرائيلي اكثر من شهرين ، هذه المدينة التي اجتيحت اكثر من مرة ، لم تتعلم الركوع ، لأنها مدينة المقاومة والثقافة والحرية والابداع .

وبيروت ليست غابة اسمنت ، وليست مجرد بحر مفتوح على الأفق . بيروت هي الأفق . والأفق صنعناه بعرقنا ودمنا واقلامنا وخوفنا وصمودنا . ولن نتخلى عنه هكذا ببساطة . سندافع عنه لأنه نحن . ولن نسمح لهذا الموج الانحطاطي بأن يحجب وجوهنا وأصواتنا .

الدرس الوحيد الذي علمنا اياه الاغتيال هو ان لا نخضع للخوف .

فنحن كتبنا وسنكتب دفاعا عن الحرية وعن حقنا في أن نعيش بكرامة . ولن نتوقف عن الكتابة لأن رصاصة غادرة انطلقت ، بل قد تكون هذه الرصاصة حافزا لمزيد من المقاومة .

فلقد اقنعنا رصاصهم ان الكلمات هي بشر ، وان البشر قادرون على

صناعة مصائرهم .

كنا قبل الرصاص نخشى من ان تكون الكلمات مجرد كلمات ، فاذا بهم يقولون لنا ان الكلمات هي فعل حرية .

لقد ازددنا قناعة بأن تحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي هو قضية نضالية كبرى ، وان كلماتنا هي جزء من اندفاعة الجنوب الى الحرية .

كما ازددنا قناعة بأن الديمقراطية هي نقيض الطوائفية السائدة ، وان المقاومة الوطنية للاحتلال هي مقاومة للانحطاط الداخلي وللفاشية .

كما ازددنا قناعة بأن تحرير لبنان هو جزء من عملية تحرير فلسطين وتحرير كل القارة العربية من القهر والقمع والاحتلال .

والقضية لها اسم واحد . انه الحرية .

والحرية تستحق ان نموت من أجلها ، لأنها تستحق ان نعيش من اجلها .

٨٤/٧/١٨

حوار مع البحر

يشبه البحر امرأة غائبة .

لا يشبه البحر الا وجهها الغائب في البعيد .

والبحر يمتد ، الأزرق ، الأخضر ، الرمادي ، الفاتح ، الغامق ، الألوان تختلط بالألوان ، والعيون تختلط بالعيون . وهي تمتد على مساحة البحر ، وصوتها البعيد يأتي ضاحكا . ينكسر الموج فيه ويعلو . والوعود تنحني على الوعود .

يشبه البحر غيابها ، وغيابها لا يشبه الا نفسه .

انها الغياب الحاضر ، والبحر يمتد في العيون والأصابع ، والألوان تنتشر على الجسد الوحيد الذي كان امتدادا للموج .

والواقف على الشاطىء المنحني ، يقف ويسأل العيون ، ثم يغرق بين الموجة والموجة ، يطمر عينيه في الأزرق الفاتح ويحاول ان ينسى . وينسى .

قال لي انه يسأل البحر وينسى السؤال . وحين يجاوبه البحر يكون هو قد نسي كل شيء . قال لي انه أراد ان ينسى ، قال وغاب . ووجهها يغيب بين الموجة والموجة ثم يحضر كأنه يلتمع بالدهشة والرغبات التي لا تمحوها المدن المهدمة .

نظر الى البحر وقال انه يبحث في البحر عن الأفق . نظر الى الأفق وقال

انه يبحث في الأفق عن البحر . وضاعت النظرات بين انتظار وانتظار . وبقي البحر وحده كأنه الأرض وهي تنحني على احزاننا وانتظاراتنا .



سألني ، ولكنهم لا يعبدون البحر ؟

قال ان الانسان كائن بالغ الغرابة ، عبد كل شيء ، النار والأنهار والريح والمطر ، لكنه لم يعبد في الطبيعة ما يستحق العبادة . البحر وحده لم يعبده الانسان ، لأنه يخاف من هذا الجوف المليء بالحياة ، والذي خرجت منه كل حياة .

يقف امام البحر ، ويفتش عن الحياة . والحياة تهرب من بين أصابعه ، الأرض تدور به ، وهو يدور حولها ، ويكتشف في لحظة ان العمر يكاد يمضي به الى حيث الرمل يغطي كل شيء ، وانه على حافة الرمل يكاد ان ينسى البحر . يكاد ان يغرق بين حبات الرمال التي تأكل بعضها هربا من الموج .

يقف امام البحر وتنخطف عيناه امام وجهها الغائب . هل يستطيع وجه ان يمتد الى حدود الموج ؟ ولكن الوجه الغائب يحضر ، والعمر يحضر ، وهو الواقف في البحر امام هذا الموج الذي لا ينكسر يطمر وجهه بين حبات الماء ويغيب .

قال لي انه لا يستطيع ان يخرج من البحر .

البحر ليس ورطة الا للذين لا يحبون الحياة . البحر كالحياة يمحو كل شيء . الماء يمحو كل شيء ، لكنه لا يستطيع ان يمحو الماء . لذلك لا تكتشف الأشياء الا حين تكون في الماء ، يغسل البحر يديك وعينيك وذاكرتك . يمحوك ويلغيك من جديد . وفي اللحظة التي تستطيع فيها ان

لتحيا من جديد ، لأنها لا تحب الموتى الذين لا يعترفون بموتهم ، بل يكابرون فيسيئون الى معنى الموت . تجدها كشجرة مقطوعة لا تطلب لنفسها شيئا ، ولا تطالبك بشيء ، كأنها أنت ، تشبهك المدينة المنكسرة حتى نهاية الموت ، وحين تريد ان تعلن انك حزين ، تكتشف ان الحزن صار مضحكا ، لأنهم لم يتركوا موقفا لم يدمروه ، فتخرس احزانك وتضحك .

من البحر تضحك المدينة عليك وعلى احلامك .

ـ لكن الأحلام صنعت المدينة . .

ولأن الأحلام صنعت المدينة فالمدينة تضحك على الأحلام ، لأن الأحلام صنعت هذه الأرض ، فالأرض تضحك ولا تترك لنا مجالا ، تضحك وتدفشنا نحو الماء .

من البحر تبدو بيروت كأنها امتداد للماء ، كل شيء فيها يبدو مؤقتا . كل المؤقتات تجتمع هنا ، ونحن في المؤقت حاولنا ان نهدم الحجارة ، حاولنا ان ننهدم مع الحجارة ، حاولنا ولن نخرج من هذا الماء الذي خلقنا على صورته .



من البحر ، ترى الأرض المنكسرة . . الأرض التي يحاول الوحش ان يبتلعها . في الماضي كان الوحش يحاول ان يبتلع القمر . وقيل انه ابتلعه . اما اليوم فالوحش يأكل الأرض والأشجار . الوحش على اليابسة .

وانت تعلم . انت لا تعلم شيئا . علمك البحر شيئا واحدا . علمك أنه يطوي . آلاف الوحوش طواها هذا البحر الأبيض الملون ، وبقي أبيض وملونا ، علمك البحر أنه يطوي ويمحو . . وهو حين يمحوك يعلن انه قادر على ان يمحو الوحش ويطويه .

الجنوب الوحيد والغريب

كم يبدو الجنوب وحيدا .

المواجهات اليومية ، الحصار ، العزل ، المعابر المغلقة . ومع ذلـك ، يقف الجنوب وحده ويندفع الى مصيره ، كأنه قبل لنفسه مصيرا مختلفاً ، أو كأنه اختار هذا المصير كي يعلن افقه المختلف عن هذا الزمن الذي يتآكل فيه المجتمع عبر الطوائف المعسكرة .

والذي لا يفاجىء هو ان مواجهات الجنوب ، لا تنعكس على السياسة اللبنانية التي ينصرف اسيادها الى اقتسام السلطة ووضع الحدود والتأكيد على أولوية الموت على الحيـاة . الجنوب ليس في وارد ان يفـاجئه هـذا الزمن ، فالذي يعيش تحت الاحتلال ، والذي يعلم ان كل الأرض محتلة حتى وان لم تكن محتلة ، والذي يعرف جيدا معنى الهيمنة الاسرائيلية ، يعرف ان الذين يرضون بالاحتلال والذين يرضخون لمنطق الانحلال الطوائفي ، ليسوا هم من سيفك عزلة الجنوب أو يحرره أو يستعيده .

الجنوب وحيد وغريب في هذا اللبنان .

وحيد ، لأنه يواجه وحـده احتمالات الحـاضر والمستقبـل . الآخرون غارقون في أوهام الماضي ، بعضهم ما زال يعيش وهم الحنين الى الحمـاية الغربية والى الانتماء الى العالم « الحر » والى تكريس امتيازات لا معنى لها ، والبعض الآخر يغرق في ماض آخر ، في تاريخ لا تاريخ له ، تاريخ صراع

القبائل في القرون الماضية . وحدة الجنوب هي وحدته امام الحاضر والمستقبل .

في الحاضر ، هناك الاحتلال . والاحتلال لا يجبر على الجلاء عبر تسوية . فكل تسوية مع اسرائيل ، في الشروط الراهنة للوضع العربي ، هي خضوع ومزيد من الحروب الأهلية التي تفتت . وفي مواجهة الحاضر ، يكتشف الجنوب ان وحدته قادمة من انه خارج المعادلة الطائفية التي لا تتسع له ولا يتسع لها . والمعادلة ككل معادلات لبنان هي تسوية مؤقتة . كلهم يعيشون في المؤقت بينما هو يعيش في المواجهة . وبين هذا المؤقت وبين المواجهة الحقيقية المؤجلة منذ أعوام طويلة ، مسافة لا يمكن ردمها .

وفي المستقبل ، هناك المستقبل . المستقبل يعني ان الجنوب لا يستعاد . من يستطيع بعد هذا السيل من الانتفاضات اليومية ان يستعيد الجنوب . الجنوب لا يصنع في المقاومة مستقبله وحده ، بل ان مقاومته تصيغ افقا مستقبليا عاما أو تسقط وتهزم . وفي هذا التحدي يبدو الجنوب اليوم اكثر حرية من كل حرياتنا الكاذبة أو المغلقة بهذا الرعب الطائفي الذي يحيلنا الى لا شيء . ومن حرية الجنوب ، التي تولد اليوم بصمت ودون ضجة ودون ادعاءات خبرناها في التجارب الماضية ، نستطيع ان نحلم بحرية حقيقية وبأرض حقيقية نبني فوقها بيوتنا واحلامنا .

والجنوب غريب .

غريب في هذا اللبنان ، الذي يسوده منطق الغربة ويحكمه الوهم .

المقاومة الوطنية ، التي تعلن كل يوم اننا لم نمت تحت جنازير الدبابات الاسرائيلية ، تجد نفسها غريبة عن هذا المنطق السائد في لبنان اليوم .

المنطق السائد لا يهتم الا بشكل تسووي يحافظ على بنى الحرب الأهلية

الطائفية التي فرضها الغزو الاسرائيلي عبر جنون حليفه الفاشي . وهذا المنطق يجد اليوم لنفسه كل التبريرات ، من فلسفة المجتمع الأهلي التي تعني خنق المجتمع الأهلي تحت سلطة الأمراء والعسكر الى فلسفة التعدد الحضاري التي لا تنفي الوحدة فقط بل تنفي الحضارة ايضا ، لأنها تسعى الى تلخيص تاريخنا وحاضرنا عبر احالته الى تاريخ وحاضر يتحكم به منطق الغزو الأوروبي ، الى فلسفة اللامركزية الأمنية الى آخره .

هذا المنطق بجميع فروعه ليس منطق مواجهة ، انه منطق استسلام . والجنوب يعرف ان الاستسلام لا يقود الى التحرير ، وان مسألة الاحتلال الاسرائيلي هي مسألة جديدة ولا يمكن تسليمها لمن أثبتوا منذ مئة سنة لاجديتهم ولا جدواهم الا في النهب والقتل . الجنوب يعرف ان مياه الليطاني مهددة بشكل جدي وان تغييرات الحدود تجري وان العملاء الصغار سوف يلعبون مرة أخرى لعبة الموت كي ترضى اسرائيل عنهم ، ولذلك فغربة الجنوب مضاعفة . ينظر الى لبنان فلا يجد لمواجهاته أي صدى ، يجد الاعلام وفرق المطبلين ، لكنه لا يجد ان تغيير حقيقي في كيفية صياغة الأفق السياسي ، وينظر الى العالم العربي فيجده مشغولا بملوكه وحروبهم ، وينظر الى العدو فيجد نفسه امام عدو حقيقي لا يرحم .

خيار الجنوب في المقاومة ليس خيارا ، انه منطق الأشياء . ولكن عندما تكون السيادة في لبنان اليوم لمنطق تعليق الأزمة الداخلية واعادة انتاج لبنان الماضي ، يجد الجنوب نفسه في غربة مضاعفة ، ويعلن غربته عبر استمراره في منطقه الخاص المناقض للمنطق السائد .

غربة الجنوب ووحدته هي تلخيص مكثف لغربتنا ووحدتنا .

فمنذ الاحتلال الاسرائيلي واقتحام بيروت ، ومنذ اعلان ولادة المقاومة الوطنية في شوارع المدينة التي دمرتها الطائرات ، ونحن عاجزون عن

مراجعة التجربة التي قادتنا الى الهزيمة ، ومستسلمون امام سيل الأحداث الجارف ، حتى فقدت الأحداث أي معنى ، وتحت محاسبة التجربة عن يمينها وعلى الأرض الفعلية للصراع .

هذا الانجراف في الآني فرضه منطق الاحتلال بالدرجة الأولى ، ولكن أيضا فرضه الاستسلام امام هذا المنطق ، أو محاولة الانخراط في آليته ، حتى صارت الحرب الأهلية الداخلية جزءا من المواجهات في ظل الاحتلال . وعلى الرغم من التناقضات والمواجهات التي قادت الى انسحاب القوات الأطلسية والى الغاء اتفاق ١٧ أيار ، فان المشكلة الرئيسية التي يواجهها أي بلد محتل ، وهي مشكلة كيفية مقاومة الاحتلال ، ما تزال هامشية امام المشكلات الداخلية المستعصية ، وامام التركيبة اللبنانية المرعبة .

سقط الكيان واحتلت الأرض وبقي النظام .

وهذا النظام الباقي يتجدد ويولد من جديد نتيجة العجز عن اقتراح بديله ، أو نتيجة الهزائم المبكرة التي منيت بها البدائل في زمن الانحطاط العربي الشامل .

لذلك يبدو الجنوب وحيدا وغريبا ، صحيح ان الجنوب لم يكتشف لغته بعد ، لكنه حين يواجه وحيدا ، وحين لا يستند الا الى اجساد ابنائه ، فانه يؤسس وحده حلما لم يجرؤ احد على تأسيسه .

والجنوب لا يمكن ان يستعاد .

منطق العودة والاستعادة ، منطق الحنين الرومانسي الى ماض مات وتعفنت جثته ، سقط من زمان . لم بعد الحلم بالماضي الا تعبيرا عن العجز عن حل مشكلات الحاضر والحلم بالمستقبل . او انه مجرد قبول ساذج بمنطق العنصرية الاسرائيلية بعد احداث تغييرات طفيفة في المصطلح .

الجنوب لن يعود الى لبنان .

فهذا اللبنان لا يستطيع ، ان يقدم له شيئا .

الجنوب ، والمقاومة الوطنية ، بكل تياراتها هي امام تحدي الحاضر والمستقبل . تحدي صياغة لغة جديدة لبلاد جديدة . وتحدي الخروج من منطق الطوائف والقبائل الى منطق الشعب الواحد الذي يصنع مصيره بنفسه .

٨٤/٨/٢١

الطائر القاتل

منذ البداية ، وهل هناك بداية ؟

ولكن ، من زمان ، منذ اللحظات الأولى لتكوين ذاكرتنا الأدبية ، ونحن نمتلىء بهذا الطائر الذي يموت ويحيا ، لا يموت ولا يحيا ، ولكنه يملأ الدنيا ويشعل الخيال . اسمه طائر الفينيق . والقصائد لا تنتهي ، تكتب عنه أو بوحيه ، وهو الرمز الذي يلخص الرموز . الفينيق الذي يحترق عندما يهرم ، يتداخل مع نفسه ويحترق ، ومن رماده يولد من جديد ، الطائر نفسه يولد ، لا يتغير ولا يتبدل ، لا يموت ولا يتركنا نفتش عن شيء جديد . وصار هذا الفينيق المنبعث ابدا مصدر تداعيات رمزية تتشابك فيها السياسة بالأدب باحلام الانبعاث والنهضة والحداثة والى آخره . . .

ثم اختفى الطائر ، لم يختف ، ولكنه من شدة اندماجه بدوره الانبعاثي لم يعد ينتظر الشعراء كي يكتبوه ، صار يكتب نفسه . وعندما يكتب الشيء نفسه ، وهذا نادراً ما يحصل ، تصبح الكتابة عنه باهتة ، ويصبح الشيء بذاته هو المساحة التي تحتل متن الأشياء .

لا يكتبون عنه ، لكنه لا يتوقف عن ولادة نفسه ، يموت ويحيا الى ما لا نهاية . وصار هو الكاتب الحقيقي ، هو الذي يكتب الذين لا يكتبون ، ثم الغى الكتابة ، لماذا الكتابة حين يكون الكاتب والمكتوب واحدا ، ثم الغى الفرق بين الحياة والموت فصار ميتا حيا لأنه حي ميت .

تعالوا لنراه .

لا احد يراه ، هكذا يقولون .

فتحنا الكتب فرأيناه ، كان منشوراً على صفحات الكتب ، كان يوحي بشيء آخر ، كان شيئاً آخر ثم تغير ، لا لم يكن شيئاً آخر هو لا يستطيع ان يموت فكيف يستطيع ان يتغير، الكتب كانت وهمه وهو كان غير منزعج من لعبة الوهم . ثم حين مزق الكتب والدفاتر وخرج الى الشوارع لم يعد مهتما بما كتب عنه أو بنوايا الذين كتبوا . صار هو النوايا .

قالوا ان المسألة هي مجرد اسطورة . وقد جرى استخدام الأسطورة لتضمين الشعر الحديث احتمالات الولادة الجديدة ، وعندما حصلت الولادة أو حصلت الهزيمة، ليس هذا مهماً ، لم يعد للأسطورة من مبرر وجود ، فعادت الى مكانها الوهمي بوصفها مستودعاً للذاكرة .

قالوا ان الأسطورة لا ترى ، والأسطورة رمز ، والرمز احتمال تاريخي ، والاحتمال فعل ممكن . . والفينيق مجرد اسطورة ، ولا يمكن رؤ يته .

ومع ذلك أريدكم ان تروه معي . فأنا منذ رأيته يملأ سماء المدينة وأنا أشعر بالشماتة من نفسي أولاً ، لأني صدقت ، ومن الآخرين لأنهم صدقوا ، رأيته ، كان أسود وصغيرا ، عيناه تكادان تتساقطان عن وجهه ، يحاول ان يغني فلا يصدر عنه صوت ، يحاول ان يطير فيترنح وحيدا ، كأنه سكران ، يحاول ان يجلس على اغصان الأشجار فلا يميز بين غصن الشجرة وأسلاك الكهرباء . ويطير ويهوي .

منذ تلك اللحظة وأنا أشعر بخوف كبير ، صرت أخاف من جميع انواع الأساطير وأتحاشى الطيور .

البطل يموت عادة . لكن هذا الطائر بطل ولا يموت ، يموت ولا يموت ، يحيا ولا يحيا ، يبقى هكذا معلقا بين الحياة والموت ، تظنه ميتا فاذا رماد ينبعث ، وتظنه حيا فاذا به كهل يحتضر ، شيء كأنه لا شيء ، لا تستطيع ان تخاطبه وهو لا يملك شيئاً يقوله . تقف وتتفرج عليه أو تسقط عليه أوهاما مجهضة ، وهو يحاول ان يطير فيتعثر برماده الذي ينتظره كي يوحي لنا بأنه يحيا .

هذا الطائر الرمزي يعبر وحده ربما عن هذه الهاوية التي سقطنا فيها ، فهو يطير في سقف الهاوية ، ولأننا تحت نظنه يطير في السماء ، والسماء بعيدة . يجعلنا نضيّع المقاييس ونضيع في المسافات . ومع ذلك نكتبه أو كتبناه طويلا ، كأنه المنقذ، أو كأننا نرى فيه صورة للخلاص . وحين يأتي وحده ، حين يفرّ من بين السطور وننظر الى وجهه نكتشف كم كان الوهم شرطا للانحطاط ، وكم كان حلم الانبعاث شرطا للموت .

الغريب فينا وفيه انه ينبعث هو نفسه ونحن نريده هو نفسه . هو لا يعترف بالموت ونحن لا نعترف بالموت . الغريب اننا واياه لا نريد ان نصدق الموت ، لذلك نعيش في المقابر على اعتبار ان الأموات لم يموتوا وان الأحياء هم الأموات .

انه الشيء الذي لا يموت . هل هناك ما هو أشد ارهاباً وتخويفاً من شيء لا يموت . يهرم ، يتساقط ، لكنه لا يموت . ونحن نقدس فيه هذا اللاموت ، لأننا تآلفنا مع الموت أو مع هذا النوع من الموت وصرنا نخاف من الحياة .

هذا الفينيق ، الذي يبدو لمن يراه اليوم شيئاً مضحكاً ، كان في زمن ، حين كان الكتاب يكتبون كما يكتب الكتّاب . هو كل شيء . . كان حلم الانبعاث ، حلم اليقظة من الموت . وربما فات الجميع يومها ، ان لعبة

إيقاظ الموتى تحمل في داخلها احتمال تكرار الموت واليقظة ، واحتمال العيش هكذا في اللاحياة .

يبدو مضحكا ، لأنه تحرر من الكتابة وكشف عن وجهه ، فرأينا وجوهنا فيه . رأينا كيف اننا لم نحسم في اختيار وكيف بقينا على شاطىء الأشياء دون ان نقتحمها ، لأننا كنا ننتظر الأعجوبة من طائر اخترعه الوهم .

واليوم يظهر الطائر في سماء المدينة ، والمدينة لا تراه ، تراه لكنها تتصرف وكأنها لا تراه . تخاف منه ولكنها تعلن انها ترحب به .

المدينة المدججة بالسلاح تخفض سلاحها له ، تخاف منه . تخاف من أوهامها ومن أدبها ومن كلماتها السابقة .

والنار في كل مكان . الحرائق تشتعل والناس يغرقون في بحر النار ويتركون هذا الفينيق معلقا في سماء المدينة كأنه فزّاعة للبشر .

وأنا أعرف ، يجب ان نطلق النار عليه . يجب ان نقتله فهو ميت . هل نستطيع ان نقتل الأموات ؟ ثم ما الجدوى من اطلاق النار على كومة من الرماد والحصى .

اعرف ان علينا ان نعلن موته . علينا ان نتملك الجرأة التي أضعناها ونحن نبحث عن انبعاث في الوهم ، ونحن نتجنب مواجهة الحاضر . علينا ان نمتلك الجرأة من جديد لا لنطلق النار بل لنعيد للغة قدرتها على تسمية الأشياء في الوعي . ونعلن لقد مات هذا الطائر من زمان ولن ينبعث من رماده .

أما هذا الذي نراه معلقا في سماء المدينة فهو شيء آخر . انه الانحطاط والغزو . انه مزيج الغزو الخارجي بالعجز الداخلي .

معطف الموت

الأموات

بلاد يحكمها الأموات . الأموات على العرش ، الأموات على المفارق ، الأموات في كل مكان . ونحن ننحني ، اعناقنا انكسرت من شدة الانحناء ، عيوننا طمست من الرمل الذي أدخل اليها ، والأموات يحكمون ويتحكمون بنا وبأولادنا وبالبحر الذي حاولنا ان نهرب اليه . اموات في كل مكان ولا يموتون . رؤوس وصور وشعارات وكلمات . وماض وحاضر وحاضر لا يمضي .

نسأل ، وهذه البلاد تغيب في صمت السبات . كلهم موتى ، ونحن نعبدهم . ولأننا نعبد الأموات فالحياة صارت تفصيلا في سيرة الموت . والموت يتكرر الى ما لا نهاية ولا ينتهي .

تبدو ظاهرة الأموات الذين يتحكمون بمصائر الأحياء ظاهرة طبيعية . فكل شيء صار طبيعيا في زمن ثقافي يتآكل من الداخل ويتعفن . كل الظواهر صارت معقولة ، وكل لا معقول صار ظاهرة . وعبادة الموتى الذين لا يتركون لنا حيزا للتنفس تتعمم في كل المطارح . صار الموتى هم الأحياء وحدهم ، ودخل الأحياء في انتظارية الخوف .

كل شيء في سبيل الموت . فالموت في كل مكان ، الرمز له والكلمات له والقيادة له . ولم تعد مسألة العلاقة بالموت مسألة تتحكم بها ظروف الحرب ، أي لم تعد المسألة مرتبطة بالتعبئة في سبيل تحقيق هدف سياسي حيث يجري وضع الموت في سياق الوسائل التي تقود الى الحياة ، بل صار

الموت كائنا مستقلا . صار هدفا لذاته . فحين لا تستطيع الجماعات ان تتحرر من سيطرة الأموات الرموز عليها ، وحين تتجمد الحرب على شفير الحرب الدائمة ، وحين تضيع الأهداف لتصبح في حدود الأدنى فالأدنى ، في حدود سيكولوجية الخوف والتخويف والالتجاء والحماية ، عندها يصبح الموت هو سيد الجميع ، ويركع الجميع امام سلطانه .

كل الطقوس الاجتماعية المستجدة هي تعبير عن هذا الواقع ، حيث تشعر الجماعات والأفراد انها تقاد الى مصير مجهول ، وحيث يصبح العقل ادارة لتنظيم وتبرير اللامعقول ، وحيث ينبش التاريخ ليس من اجل دراسته واستلهامه ، بل من اجل استحضار مزيد من الأموات ـ الرموز وبعثهم احياء في مدينة الأشباح .

قد تكون ظاهرة الأموات ، الأحياء هؤلاء تعبيرا عن موت مرحلة ، عن هذا الذي كان يسميه اجدادنا بتغير الدول لكن المخيف هو ان المرحلة تسقط على رؤوس الناس . فعبقرية هذا النظام اللبناني هو انه استطاع ان يفكك نفسه حتى لا ينتهي . وصار علينا بدل ان نواجه نظاما واحدا مواجهة مجموعة من الأنظمة . وكلها تفرض علينا طقوس الموت كي لا تسمح لنا بأن نفكر بالحياة وبالحاضر وبالمشكلات التي تكاد تخنقنا .

مدينة يحكمها الموتى . تحكمها اصوات مضت لكنها لا تمضي ، ويقودها حنين الى ماض لم يكن موجودا ، لكن الحنين لا يختفي .

ونسأل الى متى ننتظر هذه الطقوس ونتفرج على هذه المسرحية .

الى متى نستمع الى الأموات ونقبل ان تكون حياتنا مجرد هامش في سيرة الموت .

نسأل ، ولكنهم لا يريدون الاستماع الى اسئلتنا . ونحن لم نعد بقادرين على الاستماع الى اجوبتهم .

المؤقت

كيف تبدو هذه المدينة بعد سنتين من اجتياحها ، وعشر سنوات من الحروب ، وجيوش اتت ومضت وقد تأتي وتمضي .

منذ البداية ، كانت هذه المدينة احتمالات لا تحصى ، والحرب كانت احتمالها الأقوى . ففي زمن التراجع والتعفن في هذا العالم العربي ، لم يعد لبيروت مكان سوى في الحرب .

وحروب هذه المدينة كانت دائما حروبا تمتد على مساحة العالم العربي . فبيروت لم تكن عاصمة للبنان الا لأنها اختارت ان تعيش في المؤقت وان تبحث عن الاحتمالات . ومؤقت بيروت كان مغامرة دائمة . لذلك اجبرت هذه المدينة على ان تدفع الثمن الذي لم يدفعه احد . اجبرت على ان تفقد الكثير من اعضاء جسدها ، اجبرت على ان تودع مقاتلي فلسطين في البحر وان تشاهد موت أولادها واحداً بعد الآخر . لكنها، ولأنها اختارات المؤقت واحتمالاته ، لم يستطع أي كفن أن يضمها . فبقي معطف الموت قصيرا عليها ، وبقيت هي تمتد الى هذا العالم الشاسع وتحاول ان تستعيد صوتها وان تعيد اكتشاف كلماتها .

يسيرون في شوارعها ، يحاولون كسر حجارتها ، لكنهم يرتحلون واليأس يأكلهم .

واليوم ، حين يحاولون افتراس هذه المدينة بالشائعات وبالاغتيال وبالحروب المفبركة ، تنظر بيروت الى مرآة بحرها وتضحك عليهم .

فهي وحدها تعلم ان هذه الأرض الممتدة من فلسطين الى المحيط ما تزال تحمل بذور التمرد على زمن ملوك الطوائف ، وان الذين هربوا من الحرب سيموتون متعثرين بأقدامهم ، وانها هي ستبقى .

هذا المؤقت الذي يكاد يختنق ، ويكاد الموت يبتلعه ، هذه المدينة التي صارت كتابنا الوحيد ، لن تسقط في حروب الأموات .

ستدفنهم واحدا واحدا ، وستجلس امام بحرها وتنتظر .

الموت الآخر

لكن هناك موتاً آخر .

من أم الفحم الى صيدا الى السجون والأقبية .

لكن هناك كلمات أخرى ، ما تزال تتلمس معانيها .

هل نستطيع ان نسمي هذا الآخر موتا ؟

حين ننظر الى المرحلة والى الكيفية التي ما تزال المقاومة قادرة على ان تكون وسط هذا الصمت المريب ، والخيانة التي تتوالد ، والثقافة التي تبيع نفسها لشيطان السلطة والنفط . حين نرى ان هناك في الأعماق ما يزال شيء من النبض وكثير من الشوق . نكتشف الموت الآخر بوصفه امتداد لهذا المؤقت الذي نعيش . أي نكتشف اننا ما نزال احتمالات ، وان عدم قدرتنا على بلورة لغة جديدة قد يكون جزءا من الانتظار من اجل أن لا نستنبط موتا جديدا ونعطيه اسماء خاطئة ، كما كان يحصل دائما .

٨٤/٩/٤

المخيم ليس مقبرة

لم يتحول المخيم الى مقبرة .

القبر لم يبتلع الأحياء والموت لم يقتل نبض الأشياء .

في أزقة شاتيلا وصبرا ، في الأماكن التي تحولت الى ارض الموت والوحشية ، هناك اليوم آلاف الرجال والنساء والأطفال ، هناك ذاكرة الدموع التي تتجول بين الماء ومستنقعات الخراب .

الأرض رخوة . ارض المقبرة الجماعية رخوة والأعلام السوداء المرسومة على سور المقبرة تبدو وكأنها صرخات مكتومة ، صرخة دائمة ، صرخة لا تتوقف . والصراخ ليس صراخ استغاثة . المخيم لا يستغيث ، المخيم يبكي بصمت ، ولا ينسى .

صورة المخيم .

انظروا الى فلسطين ، فلسطين التي احتلت عيوننا ، عيوننا التي يأكلها التراب ، التراب الذي يغطي الجثث ، الجثث التي صارت زهورا واعشابا برية ونباتات .

يروي سكان المخيم ان نباتات غريبة تنبت فوق المقبرة .

يقولون ان لا أحد سبق له وان رأى أو سمع . نباتات لم تطلع في أرض

فلسطين من قبل ، نباتات لم نعرفها لا في لبنان ولا في فلسطين ولا في المغرب الأقصى .

نباتات تشبه الصراخ المكتوم ، تشبه عيون الفتيات المفتوحة على شمس لا تطلع .

يروي سكان المخيم انهم تعذبوا كثيرا كي يصلوا الى انجاز تسوير المقبرة الجماعية .

قبل ان نبني السور كان المخيم كله يشبه المقبرة . تروي المرأة وأنا أنظر الى عينيها فلا أرى اثرا للدموع . الدموع صارت ذاكرة تقول المرأة وهي تتجول امام السور .

لم يتحول المخيم الى مقبرة .

صبرا وشاتيلا، اسمان ، اسم واحد ، كل الأسماء .

الحياة هنا ، الحياة لا تستعيد شيئا لأنها تمضي . تمضي وهي محمولة على وشم جديد اسمه المذبحة .

فلسطين هي المذبحة الدائمة .

ذبيحة المشرق الأزلية .

ذبحونا بصمت .

استخدموا البلطات والخناجر والحراب كي يفترس الصمت الضحايا .

جلبوا الجرافات وكان القاتل الجالس في مقر القيادة الاسرائيلية يضحك . كان الجنرال الاسرائيلي يمثل المشهد الأخير من هستيريا عقدته من النازي . .

وكان اهل المخيم يموتون بصمت الضحايا .

لكننا لسنا ضحايا .

المخيم ليس مقبرة . وفلسطين تشبه السفينة .

نحن ، فلسطين ، صبرا ، بيروت ، نحن الاسم الجديد ، الاسم الذي لم يولد بعد .

نحن الوشم .

اذا ذهبتم الى صبرا وشاتيلا ، لا تتوقفوا طويلا امام المقبرة ، اذهبوا الى الأزقة الضيقة وسترون ان هذه الفلسطين تولد كل يوم .

٨٤/٩/١٧

دم الموت ودم الولادة

- ١ -

وقفت المـرأة امـام السـور الـذي يبنى . كـانت اعـلام سـوداء وكـان صمت . الـزمان هـو ٩ شباط ١٩٨٤ ، أي بعـد ان تم رفع القبضـة عن بيروت . المرأة تقف ، أتقدم الى المقبرة الجماعية . ارى عمال البناء وأرى الأرض المنبسطة ، هنا ، دفنـوا . . لا اعلم العدد بـالضبط تقول المـرأة ، حتى الأسماء كلها لا نعرفها . نحاول جمع الأسماء . انت تعرف ، منعونا من رفـع النفايـات عن المقبرة ، منعـونا من الاقتـراب منها . . امـا الآن فلقد تغيرت الأحوال .

تقول المرأة الواقفة امام سور المقبرة الذي يبنى انها كانت هنا ، وانها لم تمت بمحض الصدفة . تقول وتقول ، تخبـر عن الذين مـاتوا وعن الـوجوه المجهـولة . تخبـر عن أقـربـاء واصـدقـاء . . وانـا اقف ، انـظر الى القبـر الفسيح . القبر يشبه الساحة ، صار للاموات سـاحة يستـطيعون الالتقـاء فيها . صار الأموات امواتا .

اسألها عن المقبرة . .

سنزرعها نباتات ونسقيها . تجاوب المرأة . سنحتفل كل سنةهنا ، ولن نبكي .

عامل البناء الذي يضع حجرا فوق حجر ، ينظر الي بعيون لا مبـالية ويتابع عمله .

أطفال يلعبون بالطين والحجارة على بعد عدة امتار .

حاجز المسلحين على مدخل المخيم .

عابرون يمرون ولا يلتفتون .

انتصرنا ، تقول المرأة . الآن انتصرنا . صار بامكاننا ان نبني مقبرة !

- ٢ -

سنتان . . لم يمر الزمن بعد ، والفتى لم يكبر .

ما يزال في المخيم ، الفتى الهارب من الطعنات ، ما يزال يعيش في المخيم ، عيناه تريان كل شيء .

منذ سنتين روى الفتى ، سنتان لا شيء في عمر الزمن ، الفتى لم يكبر وعيناه ما تزالان معلقتين في ظلام اللحظة التي تفصل الجسد عن الجسد .

جاءوا قال الفتى ، جاءوا واطلقوا النار . انا لا أعرف ، رأيت كأنني لم أر . كنا في البيت ووقفنا ، هم أوقفونا ، واطلقوا النار وتساقطنا على الأرض . كنت وكانت أمي ، امي الى جانبي ، وجميع أفراد العائلة ينامون الى جانبنا في أرض البيت ، وحرام صوفي يغطينا ، بدأت أتحرك ، سمعت أنين امي ، كانت امي الى جانبي تحاول ان تقول ان لا اتحرك ، قالت يجب ان ننتظرهم يذهبون . . انتظرت ، لم اشعر بالألم ، كنت اشعر بطعم غريب ، قالوا لي بعد ذلك انه طعم الدم ، كان الدم في فمي وأنفي . . ثم سمعت امي ، كانت تحاول ان تتحرك طلبت مني أن اساعدها ، طلبت مني ان اذهب واجلب الاسعاف ، اقتربت منها ، كنت ملتصقا بها لكني اقتربت اكثر ، وغرقت في بركة الدم المتجمد . حاولت ان امسك بيدها ، لم اجد يدها ، قلت لها ان تأتي معي ، لم تجاوب ، كان الحرام الصوفي يغطي رأسي ، نهضت، الضوء في كل مكان ، خرجت من البيت فرأيتهم ،

احدهم صرخ هذا لم يمت واطلق النار ، ركضت كان الدم يتساقط من خاصرتي وانا اركض بين الأزقة ، وصلت الى الشارع الرئيسي فحملني احد رجال الصليب الأحمر واخذني الى المستشفى ، لكني لم اعثر على امي .

الفتى يروي : توقفت عن البحث عنها ، قالوا انها في المقبرة الجماعية مع اخواتي واخوتي .

الفتى يمشي في ازقة المخيم ، الفتى يعيش مأساة السنة التي تلت المجزرة ، ما تبقى من البيت جاءت الجرافات وهدمته ، يحكي عن الليالي السوداء حين كان أهل المخيم يهربون في الليل من بيوتهم ، يحكي عن المداهمات والاذلال والأحذية التي حاولت سحق الرؤوس .

سنتان ، لم يكبر الفتى بعد ، سنتان والعيون لا تزال تبحث تحت الحرام الصوفي . هناك كان الدم . دم الموت ، دم الولادة ، لكنه دمنا . حيث يختلط دم الموت بدم الولادة هناك اسم واحد يلخص كل شيء ، انه فلسطين .

- ٣ -

شكيب اسعد ضاهر ٥٠ سنة ، مواليد قرية القليعة في قضاء مرجعيون .

شكيب اسعد ضاهر خرج من القليعة ، التي حولتها اسرائيل الى قاعدة لسعد حداد ، عام ١٩٧٥ ، مضايقات واصابع ديناميت واسرائيل . سكن في منطقة زقاق البلاط ثم انتقل الى منطقة العريس في الشياح .

شكيب اسعد ضاهر ، فلاح لبناني ، لا يعرف سوى زراعة التبغ والخضراوات . اقتلع من قريته منذ بداية الحرب ، ووجد نفسه في بيروت يعمل حارسا في مطبعة التكنوبرس ، قرب السفارة الكويتية . صباح

الجمعة ١٦ أيلول ١٩٨٢ غادر منزله وذهب الى المطبعة ، ولم يعد . بعض معارفه رأوه صاعدا على جسر الغبيري ، وصل امام المطبعة فقبض المسلحون عليه واقتادوه الى اليمين قرب المقبرة الجماعية ولم يعد .

بحثنا عنه ، يروي زوج ابنته ، ولم نعثر له على اثر . ذهبنا الى الصليب الأحمر ، هناك اعطونا هويته ، الموظفة التي تلبس الأبيض اعطتني الهوية وهي تقول ، غريب . شو الغريب سألتها ، غريب قالت ماروني ومن القليعة وهويته مع القتلى !

اما انا فلم استغرب ، لأني اعرف انهم يريدون قتلنا كلنا . اسرائيل والكتائب يريدون قتل الجميع .

اعطوني الهوية ولم يروني التقرير الطبي ، كنت واقفا ، الموظفة خرجت من الغرفة ، رأيت على الطاولة تقارير باللغة الفرنسية ، وبدأت أقرأ ، جاءت الممرضة وصارت تصرخ ، يا عيب الشوم عليك وأخذت الدفتر مني . قلت لها معليش اريد ان اعرف كيف قتل ، جاوبتني مش شغلك .

طبعا مش شغلي . لكني لم اعثر على جثته . قالوا لنا اذهبوا الى صبرا هناك تجدونه في المدفن الجماعي ، وتستطيعون أخذ الهويات .

لماذا نأخذ الجثة . مات من أجل القضية التي هجر من قريته لأنه التزم بها . مات مع الناس الذين أحبهم ، مع الفقراء الفلسطينيين واللبنانيين ، الذين دفعوا ثمن الهزيمة .

- ٤ -

تجلس المرأة وحدها .

كلهم ماتوا تقول . لن أروي شيئا ، لن أحكي ، الحكي لا معنى له .

كلهم ماتوا لكنني لن اغادر المخيم ، الى أين أذهب ، الى مخيم آخر .

لن أذهب . قتلوهم كلهم وتركوني وحدي ، ثم اكملوا الاضطهاد ، تفتيش وارهاب وتخويف ، لكني لن أذهب من هنا .

سأبقى قرب المقبرة . اذهب كل صباح وأسقيها ، وأرى الأزهار تطلع . وعندما أموت أريد ان أدفن الى جانبهم .

- ٥ -

سنتان . وصبرا وشاتيلا ما يزالان .

اذهب الى هناك فأرى وجهي وأرى فلسطين ، فلسطين التي لم تغادر عيوننا ، فلسطين التي تمتد حتى نهاية البحر .

اذهب الى هناك ، وأرى الأشياء تولد .

كما في الجنوب حيث المقاومة . هنا أيضا مقاومة .

والمقاومة لا تعنى بالثأر ، بل تعنى بالتحرير .

صبرا وشاتيلا ليسا دعوة الى الثار ، بل هما دعوة الى ان نستعيد اصواتنا الضائعة ، ونعيد اكتشاف عيوننا .

٨٤/٩/١٧

التقى المخيم بالمخيم

كان المخيم امس مختلفاً . في الصباح وفي ذكرى مجزرة المخيمين ، بدا صبرا وشاتيلا مخيماً آخر . كانوا يخرجون من الأزقة ومن الشقوق. الآلاف، فجأة صاروا آلافا وصار الناس بحرا . كأن المذبحة لم تجر هنا ، كأن اسرائيل والفاشيين الصغار لم يملأوا هذه الشوارع الضيقة رعباً وموتاً .

من جدار الرعب كانوا يخرجون . كانت الأرض تتشقق والحيطان تنحني والأصوات تملأ المخيم ، كان علم فلسطين والأعلام السوداء وصور الضحايا . وموسيقى القرب ، والهتافات .

فجأة بدا المخيم وكأنه ليس المخيم نفسه . كأن الأموات خرجوا من المقابر ، كأن المقابر انفتحت والضحايا تملأ الشارع الضيق . هل رأيتم الضحايا وهم يمشون . الضحايا لا يسيرون في الشوارع ، لكن ضحايا صبرا وشاتيلا كسروا امس القاعدة ومشوا . لم يكن الحزن ، كان ما يشبه البكاء . البكاء الذي يتسلق العيون لحظة اللقاء .

امس التقى المخيم بالمخيم ، التقت المأساة بالمأساة ، امس رأيت فلسطين التي قالوا انها ابيدت وتم محوها من الذاكرة ، وهي تمشي .

أطفال يملأون الأرض ،يهتفون ويغنون ويرقصون .

فتيان فتحوا عيونهم على الخوف ، يكسرون الخوف ويهتفون لن نركع .

فتيات ونساء . كل شيء كان جميلاً امس . الجمال الذي يدفعك الى

حافة الحزن ، جمال العيون التي تنتشر على الفضاء كأنها اجنحة . والأرض كانت تنتفض .

وامام المقبرة وقفنا . كانت المقبرة مدى شاسعاً . وامام المقبرة اعدنا اكتشاف الحياة . فالغزاة الاسرائيليون والقتلة الذين جاءوا في ركابهم لم يستطيعوا ان يقتلعوا الحياة . فالحياة أقوى ، وفلسطين ليست مجرد اسم ، انها شعب ، والشعوب لا تموت الا اذا اغتيلت من الداخل . . وفلسطين لا يستطيع احد اغتيالها .

امس ، في المخيم رأيت المخيم من جديد . رأيت الناس يخرجون من القبر ويعلنون الحياة .

والحياة أقوى . ليس غريباً أن تترافق مذبحة المخيمين مع قرار اعلان المقاومة الوطنية في اللحظة نفسها التي هجم فيها الفاشيون ببلطاتهم وبنادقهم على المخيم وهم يركبون جرافات اسرائيلية وينفذون اوامر شارون ، في تلك اللحظة اعلن عن قيام جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية وبدأنا مسيرة الخروج من تحت الأنقاض .

سنتان ، في تلك اللحظات السوداء من تاريخنا ، حين حاول شبح الموت احتلالنا ، كنا نعرف اننا لن نستحق الحياة الا اذا كسرنا الخوف وتعلمنا من الخطأ وبدأنا من جديد .

والأشياء تبدأ ، في اللحظة التي اعتقدوا فيها ان الأشياء انتهت ، كانت هي تبدأ من جديد . وعذاب البداية ما يزال مريرا ، عذاب البحث وعذاب الأنقاض .

واكتشفنا ببطء ، وسط الحروب التي لم تتوقف ، ان حربنا الحقيقية تبدأ في الجنوب ، وان مقاومتنا للاحتلال هي شرط البقاء وشرط البداية .

المخيم امس واليوم هو المقاومة امس واليوم .

امام المقبرة الجماعية رأينا وجوهنا ورأينا عمرنا المسور بالدم والدمع والقهر . وسمعنا اصواتهم . اصوات الرفاق الذي سقطوا ، كانت أصواتهم تملأ المدينة وتملأ المخيم وتملأ هذا العالم العربي .

في المخيم رأينا كيف تختلط فلسطين بالجنوب ، وكيف تخرج الحياة من الموت .

٨٤/٩/١٨

الكيس والرأس المكيَّس

الحرب الأهلية والحروب المتصلة بها ، افرزت مجموعة من الشعائر والأساطير ـ الرموز : من ملصقات الشهداء إلى الأنصاب ، ومن صورة المخطوف الذي يرتجف الى الهجرات المتصلة ، ومن القرى المدمرة الى انقاض البيوت ، ومن الشعار السياسي الى الثأر ، ومن الطائفة إلى آخره . . .

شعائر وشعارات وأساطير لم يجر التوقف عندها إلا بصورة جزئية ولم تدرس دلالاتها وآثارها . ربما لم يسمح لنا ايقاع الحرب وتورط الجميع بها ، بشكل او بآخر ، بمتسع من العقل لدراسة الأشياء التي نعايش ، او ربما كان اختلاط اللغات ، وسيطرة المؤقت في حرب مليئة بالمنعطفات والتغيرات المفاجئة ، هو الذي جعل من الشعارات والشعائر مجرد لحظات لا دلالة لها . هناك العديد من الأسباب ، وهناك العديد من العناصر التي تفسر لنا عدم القدرة او الشلل الذي نعانيه ، ونحن نعاين التطورات السياسية والعسكرية في حياتنا اليومية .

من بين كل الشعائر والرموز ، لا أعلم لماذا ترتبط الصورة في ذهني بالكيس وبالعيون المغمضة . ربما لأنني حين كنت اشاهد صور آلاف الأسرى خلال الاجتياح الاسرائيلي للبنان ، على شاشة التلفزيون ، كان المرعب بالنسبة لي هو هذه العيون المغمضة . ثم حين التقيت بأسرى خارجين من انصار ، روى لي احدهم عن الكيس الأبيض الذي وضعوه

على رأسه ، وكيف صار يرى العالم ابيض ، البياض يخنق قال الأسير ، والعرق يتصبب على الوجه ، والأسير يخاف من الغرق او يشعر وكأنه يغرق في بحر ابيض .

كنت استمع الى الأسير وأنا اكاد اتحسس وجهي . كنت خائفا من ان يعتقل الكيس رأسي . ثم صرت اخاف من ان نكون قد نجحنا بشكل جماعي ، أي فشلنا في منع الكيس من اعتقال رؤ وسنا .

- ١ -

لم يكن هناك استخدام للكيس بشكل منظم في العمل السياسي قبل قيام دولة اسرائيل . المصادر التاريخية العربية تتحدث عن سمل العيون وعن السجن في غرف مظلمة تحت الأرض ، او عن القبور التي يدفن فيها الأحياء . لكن الكيس لم يكن يستخدم للغايات السياسية التي يستخدم بها اليوم .

فالكيس في لسان العرب هو وعاء معروف يكون للدراهم والدنانير والياقوت ، ويطلق اليوم على وعاء منسوج من خيوط الصبّار يحمل قنطارا من القمح . والكيس (بفتح الكاف) هو العقل والفطنة . ويروى ان استخدام الأكياس تدرج من كيس الخيش الى الكيس الورقي السميك الى اكياس النايلون الشفافة الدارجة هذه الأيام . ولست اعلم اذا كان هناك علاقة بين شيوع استخدام اكياس النايلون لوضع الخضار والفواكه فيها وبين الاستخدام الجديد للكيس السميك . لكن الثابت ان الكيس كان يستخدم لأغراض بريئة كالوقاية من الشمس ، قبل انشاء دولة اسرائيل .

مع نشوء دولة اسرائيل شاع استخدام كيس الخيش لأسباب سياسية . يروي اميل حبيبي في روايته « المتشائل » ، ان العميل كان يعرف برأس الخيش . يأتي العميل ويجلس مع الجنود الاسرائيليين او مع المحققين ،

ويكـون رأسه مغـطى بكيس من الخيش له ثقبـان على العينـين ، والعميل يؤشر برأسه حين تمر العناصر « المشبوهة » التي يقوم الجنود باعتقالها .

اي ان التـاريخ السيـاسي للكيس يبدأ مـع استخدامـه عـلى رؤوس العملاء . والسبب واضح ، إخفاء العميل وإشعار الناس ان العمـلاء قد يكونون في وسطهم ، مما يزيد من قدرة الدولة الاسرائيلية على ارهاب سكان البلاد الأصليين . غير ان هذا السبب لا يفسر كل شيء ، لأن هناك دلالة مستقلة لاستخدام كيس الخيش على الرأس ، فكيس الخيش يحول العميل الى مجرد كيس ، اي يقوم بالغاء رأسه ووجهه ، وبذلك يتحول العميل الى مجـرد أداة كما انـه يجعل من العميـل عميلا مضـاعفا ، لأن خـوف العميل يصبح متركـزا على احتمـال افتضاح امـره ، وأمره لا يفتضـح إلا إذا رفع الكيس عن رأسـه . العميل يخـاف من ان يقوم الاسـرائيلي بـرفع الكيس فيصبح اكثر عمالة . فالمسألـة ليست ببساطـة « كذاب » جـلال خوري ، حيث جسـدت المسـرحيـة التي لعبت عـلى مسـارح بيـروت غـداة الغـزو الاسـرائيلي عن فهم مبسط لمسـألة الكيس ، إذ يقـوم احد الأسـرى بـرفع الكيس عن وجه العميل المفترض . فالأسير يكون مربوط اليـدين وعاجـزا عن القيام بمثل هذاالعمل ، إلا إذا كان الأسير المزعوم عميلا أو إذا كانت المسألة كلها لا هدف لها سوى تغطية العملاء الحقيقيين .

المهم ان دلالة وضع كيس الخيش على رأس العميل تصبح ذات ابعاد سيـاسية ونفسيـة مستقلة عن السبب المباشـر لوضـع الكيس . تبقى نقطة اخيرة ، فالعميل كان يضع كيسا له ثقبان على العيون فقط ، اي انـه كان يشعر وهو يقوم بعمله بما يشبه الاختناق ، إذ ان كمية الهواء التي يستـطيع تنشقها من خلال فتحـة العنق ، لا بد وان تكـون غير كـافية كـأن الدولـة الاسرائيلية كانت ، عبر استخدامها لهذا التكنيك تقوم بتعذيب العميـل ، الذي يعذب الضحايا .

- ٢ -

بدأ استخدام الكيس في لبنان منذ اللحظات الأولى للحرب الأهلية . فالصور التي نشرتها الصحف في الأيام الأولى بعد مذبحة باص عين الرمانة (١٣ نيسان ١٩٧٥) كانت ترينا مجموعات من المسلحين التابعين للميليشيات الفاشية وهم يغطون رؤوسهم بالأكياس . والواقع ، أن هذه المراحل الأولى شهدت استخدامات متعددة لأغطية الرأس ، من اكياس الورق السميك ، الى اكياس النايلون السوداء ، الى جوارب النايلون النسائية التي تشوه الوجوه وتجعلها مخيفة الى ما هنالك . التفسير المباشر لهذه الظاهرة يكمن في طبيعة الهجوم الذي قررت الفاشية شنه ، فالمرحلة كانت مرحلة هجوم مذعور ، الخوف واشاعة جو الخوف كانا المسألة المركزية في بدايات الحرب . كما ان الطبيعة التسووية للنظام اللبناني لا بد وان تكون لعبت دورها ، إذ ان المقاتل كان يرى امكانية ان يعود الى الحياة الطبيعية في وقت لم يكن قد وصل فيه الفرز الطائفي الى ما وصلنا اليه اليوم ، وهذا يستدعي إخفاء الوجه خوفا من انعكاسات ثأرية محتملة .

غير ان إخفاء الوجه يحمل دلالات اكثر اهمية .

فهو يعني تحويل المقاتل الى مقاتل مغفل . أي التورط الفردي في العمليات القتالية يذوب في بحر التورط الجماعي . فالمغفل لا اسم له ، يحمي خوفه على نفسه ومستقبله عبر دمج ذاته بالآخرين ومحوها .

كما ان الكيس يرفع المسؤولية الفردية . الأيام الأولى للحرب الأهلية كانت عبارة عن قصف وعن خطف وقتل على الهوية . اي ان الحرب لم تكن حربا بالمعنى العسكري ، كانت الاستراتيجية هي المذبحة . رفع المسؤولية الفردية ووضعها في كيس الطائفة الذي يغطي الرأس ، كان شرطا لا بد من توفره من اجل حصول المذبحة . وإلا كيف نستطيع ان نفسر جنون

« السبت الأسود » ، أو جنون قتل جميع المعارضين في المناطق الشرقية . الجنون لم يكن جنوناً ، كان نتيجة محو المسؤولية ووضعها داخل كيس يوضع على الرأس .

لا استطيع ان افسر ظاهرة انتقال الكيس من رأس القاتل الى رأس الضحية . فلقد تعايش الكيسان فترة طويلة . ربما ، قد يكون بعض المقاتلين الذين تدربوا في اسرائيل ورأوا التقنيات المتقدمة لاستخدامات الكيس هناك ، هم اول من قام بوضع الكيس على رؤوس الضحايا من المخطوفين . او ربما تمت العملية من اجل اهداف امنية ، كأن يضطر الخاطف الى مبادلة المخطوف . فهو لا يريده ان يرى اين يحتجزه ، او قد تكون بدأت بمحض الصدفة ، كأن تكون الفكرة قد خطرت برأس احد الأكياس فقام بتطبيقها ، ثم جرى تعميمها على الطريقة اللبنانية ، اي تحولت الى موضة كما تحولت الفراريج المشوية في الماضي الى موضة .

ظاهرة إلباس الأكياس لرؤوس المخطوفين تم تعميمها من قبل جميع الأطراف في الحرب الأهلية ، وهذا يعبر في الجوهر عن تحويل الضحية الى مغفل ، وعن تعميم السياق الطائفي . كما ان الاكياس جرى استخدامها في المنطقة الغربية من بيروت ، وخاصة في التمرين العام الذي سبق ٦ شباط حين تحولت شوارع المنطقة الغربية الى ما يشبه الكرنفال المقنع : اكياس ، اقنعة ، جوارب ، وجوه حيوانات . .

الكيس يلغي القاتل الفرد ، ويرفع عنه المسؤولية .

والكيس يلغي المقتول ، يحوله الى مجرد رقم .

وفي هذا الالغاء المزدوج استكملت المجزرة الدائمة عناصر استمراريتها وديمومتها .

قلنا أن الكيس بدأ سيرته السياسية مع نشوء الدولة الاسرائيلية . ولقد اثبتت الأيام ، ان اسرائيل ما تزال افضل من استخدم الاكياس واكثرهم براعة .

صور الأسرى هي صور لاناس عصبت عيونهم . فالجيش الاسرائيلي كان يقوم منذ اللحظة الأولى لاعتقال الاسير بعصب عينيه وربط يديه ورجليه ، اي يقوم بالغائه . وفي ظل هذا الالغاء تتم عمليات التعذيب .

كما ان العميل ، او الدالول ، كان هو الآخر يلبس كيسا على رأسه . لكن المفارقة هي ان العميل لا يستطيع ان يعمل إذا كان الاسير مقنعا . فتجري عملية مبادلة قصيرة ، يلبس العميل القناع وينكشف وجه الأسير . .

الاستخدام الاسرائيلي للاكياس، مسألة يجب دراستها بعناية. فالاخبار القادمة من الجنوب ، تقول ان الكيس هو احدى التقنيات الاساسية التي تستخدمها الاستخبارات الاسرائيلية في عملية قمع المقاومة الوطنية في الجنوب المحتل .

فإلى جانب استخدام البراميل المسخنة حيث يوضع الاسرى ، واستخدام الكونتينر والزنازين الافرادية والاعتقال في الساحات العامة حيث يترك الاسير ليلا تحت المطر دون غطاء ويعطى في النهار غطاء مبللا بالماء . . هناك الدور الثابت الذي يلعبه الكيس .

احد المواطنين الجنوبيين ، اعتقل في حزيران الماضي ، وأخذ الى مركز المخابرات في الريجي ـ النبطية . التعذيب في الريجي اتخذ الشكل التالي : بقي الاسير ١٧ يوما جالسا على كرسي وهو مربوط اليدين والقدمين ورأسه

مغطى بكيس اسود ، وعلى العينين والفم رباطان فوق الكيس ، يسمح له بالنوم لمدة ثلاث ساعات فقط ، اما في باقي ساعات اليوم فالضرب لا يتوقف. في مواعيد الطعام، يؤخذ الأسير ، يرفع الكيس عن فمه لكنه يبقى في الرأس ، اي انه يرفع عن الفم فقط ، يؤخذ الأسير الى امام علبة تشبه المعلف ، حيث يأكل دون استخدام يديه .

الكيس هو العنصر الثابت في جميع عمليات التعذيب التي يقوم بها الاحتلال الاسرائيلي ، كأن المقصود بالكيس هو إذلال الاسير وسلبه كل إرادة . فالكيس هو الظلام ، الاسير داخل الكيس يعني عدم القدرة على تحديد الزمن او على اكتشاف المكان ، الكيس هو اللاامان المطلق ، لا ترى فلا تستطيع ان تتوقع او ان تتقي ضربات العصي او الركلات . الكيس هو الاختناق ، او الوصول الى حدود الاختناق . عبر الكيس يقوم الذي يعذب بالغاء كل شيء من حول جسد الاسير ، ويحوله الى حالة مؤقتة يصعب معها التمييز بين الأشياء .

- ٤ -

الكيس هو احد رموز هذه الحروب التي نعيشها منذ عشر سنوات . وما يهدف اليه الذين اخترعوا الاكياس ، هو ان يجري تعميم الكيس ، عبر وضع كيس خفي على جميع الرؤوس ، بحيث لا يعود باستطاعة احد ان يرى ، وحيث يغرق الجميع في الدم والموت .

وما نخشاه ، هو ان يكون اهمالنا لما يجري في الجنوب ، وغرقنا في لعبة الطوائف والمذاهب ، هو الفصل الأخير من عملية تكييس المجتمع اللبناني .

اقول نخشى ،لأن نبض المقاومة الوطنية يشير الى وجود اناس ثقبوا الاكياس ورأوا عددهم الحقيقي .

فمتى نرى نحن ؟

٨٤/٩/١١

الكتابة والموت

في هذا الزمن الذي يشبه الهاوية ، حيث الدلالات تتبدل قبل ان تستقر على معانيها ، وحيث تكشف الأشياء عن هشاشتها وعطبها ، وحيث الأشياء الكبيرة تصغر ، والصغيرة تكبر ، والمعنى يضيع في تفاصيله ، والتفاصيل محكومة بجغرافية المكان ، والمكان يتبدل في ازمنة متتالية توحي بالتغيير بينما التغير لا يجري إلا على سطح الأشياء ، والأشياء تنتظر المعنى الغائب .

في هذا الواقع ، يبدو السؤال حول معنى الكتابة محكوما بزمنه ، اي محكوما بهذه الهشاشة التي تفترس كل شيء ، وتلغي متعة العيش في التبدل ، وتحاول اغتيال الروح .

ولكننا نكتب ونقاوم ونموت .

لست أدري كيف سنرى كتاباتنا بعيون الزمن ، فالزمن صار بالنسبة لنا مجموعة من التغيرات الانقلابية لا تستقر فيها المعاني ، صار الزمن لا زمنيا ، من شدة ترجرجه . وصارت النسبية مطلقة الى درجة لم يعد هناك من تقييم اولي له اساس من الثبات الفكري والنظري . انكشفت العلاقة التي كان برهانها يتطلب العشرات من الكتب : الكتابة هي احد اشكال اعادة انتاج التأقلم مع التغير ، احد اشكال التغير في تعبيراته عن ثباته اي عن جدارته . ولكن حين لا يكون التأقلم ممكنا ، وحين يصبح المتغير مترجرجا في حركة يختلط فيها التراجع بالتقدم ، يصبح السؤال عن معنى الكتابة

دخولا في متاهة لا نعرف كيف يمكن الخروج منها . ويصبح الصمت شكلا من البحث عن استقرار نسبي ، في زمن اللادلالة .



نكتب كي نقاوم الموت . الموت الذي ينتشر في ثيابنا ، يأخذ اشكاله التي لا حصر لها . من الموت المجاني الى موت الذين يقاومون الاحتلال . من موت الطوائف والعشائر والأحياء والزواريب ، الى موت الحروب التي لا تنتهي . اشكال وملصقات لا حصر لها . لا بد وان سكان المدينة قد لاحظوا هذا التغير الذي يجري على حيطانها . والتغير ظرفي ، مثل الملصق الورقي الذي يعلنه ، وأفواج الشهداء الذين ماتوا والذين سيموتون تختلط في الحائط الذي يمحو الأوراق .

والموت في كل مكان .

نكتب كي نقاوم الموت . ولكن كيف نستطيع ان نقاوم والموت يتعدد الى ما لا نهاية . كيف تستطيع هذه الأشكال التي لا حصر لها ان تقود الى موت يبحث عن معناه .

قد يكون الموت لا يحمل سوى جواب النسيان . نكتب كي ننسى . الكتابة التي تنسى وتمحو عوض ان تسجل . الكلمات التي تمحو الكلمات ، كتابة ما ينفي الكتابة ، ألا نرى امامنا هذا التراكم للنصوص والأعمال التي تمحو الذاكرة . تنسى التاريخ وتؤرخ للنسيان في قالب طقوسي . لم يعد هناك سوى الطقس بعد ان افرغ من مضمونه . اليس هذا هو التعبير الأكثر دقة عن الانحطاط والانحلال . لكن الكتابة التي تكتب النسيان ، لا تكتب شيئا . تلغي نفسها لحظة ولادتها ، وتبقى خارج معادلة مقاومة الموت .

إذن اين هي الكتابة التي تقاوم الموت ؟

في هذا الزمن الذي تختلط فيه الأزمنة ، تصبح الكتابة وكأنها وعاء هذا الاختلاط . السنا نشهد على هذا المستقبل المحكوم بالماضي وعلى هذا المجتمع الذي يحكمه الموتى ، وعلى هذا التفكك في اللغات كلها ، الى درجة صار فيها الانتقال من موقف الى موقف لا يكلف سوى ثمن الحبر الكافي لكتابة جملة اسمية واحدة . لم تعد الكتابة وسيلة تبادل ، انتقل التبادل الى الأجساد ، صارت الجثث هي وسيلة الاعلان عن موقف ، القصف او الخطف او القتل او الاعدام . اما الكتابة ، بأشكالها المختلفة فصارت مجرد اسم لهذا الاعلان .

ومع ذلك ، وبسبب ذلك نقاوم الموت .

المدينة ماتت ، بيروت تموت ، قال احد الأصدقاء ، رأى من المدينة جسدا يشبه الجثث ، لكنه قال ان هذه المدينة ماتت بعد ان قاومت عشر سنوات ، بينما المدن العربية ماتت بصمت . بيروت تموت بصخب الحروب ، بينما المدن الأخرى تموت اغتيالا .

لكن الصديق لم ير كيف تقاوم المدينة الموت ، فالمدينة لا تموت . اخاف ان تكون الكلمات التي بين ايدينا هي التي تموت ، لذلك صرنا عاجزين عن اكتشاف ايقاع المقاومة في هذا الجسد الممزق . وايقاع المقاومة ليس النسيان .

النسيان كان شكلا لقراءة هذا الشريط الذي سجل عشر سنوات اكثر طول من قرن ، واكثر قصرا من لحظة . النسيان كان شكلا للقبول . القبول بالمستقبل الغامض الذي لم يأت . لذلك تبدو الكتابة في لعبة مقاومة الموت عاجزة ، لأنها محكومة بالنسيان .



إذا لم تكن الكتابة قادرة على مقاومة الموت فماذا تكتب ؟

النسيان لا يؤسس نفسه إلا لحظة ثم يغيب ، فالنسيان ، في مجتمع لا تستقر معادلاته ، لأنها معادلات تاريخ المنطقة كلها ، عجز عن ان يؤسس لغته . وعجز عن ان يحول لغة فئة او جماعة الى اللغة العامة الوحيدة ، فعشنا ، ونعيش في التعدد المرعب ، الذي يبدو وكأنه يدور على نفسه ، وسط فراغ لا حدود له .

إذن ، نكتب الموت .

هل من الممكن كتابة ما لا يكتب .

نكتب الموت ، كي نحاول ان نخلق معادلا لتجربة الجسد . الكتابة واللغة لم يعودا بقادرين على الانفصال عن الجسد ، اي لم يعودا بقادرين على التكون كمعادلة خاصة تعطي المعنى . صار المعنى مرميا في ارض الموت . ولكن كيف تكتب اللغة الموت ، ما معنى العلاقة بين الكتابة والجسد ، حين يكون الجسد هشا ومعطوبا واحتمالات لا تحصى .

الكتابة كما قدمت نفسها لنا ، كانت اشبه بتنويع على جاهز ، على مستقبل معروف . مغامرتها هي نقل المعرفة من حيز الى حيز ، وفي النقل تحدث اضافتها على المعرفة . اما اليوم ، وحين نريد ان نكتب الموت ، ينتفي المستقبل المعروف . يصبح المستقبل جزءا من الحاضر، وتصير الكتابة قبولا بتعدد لا يحصى . تنزاح المهمة القديمة ، مهمة التسجيل عبر المحو والنسيان ، لتولد مهمة جديدة ، هي مهمة الكتابة داخل العاصفة . اي القبول بالتعدد والتلعثم . ففي هذه التجربة الطويلة التي عشناهاونعيشها، نكتشف ان المعاني تنهار قبل ان تولد ، وان الموت حين يكتب ، اي حين يمارس ، يصبح هو المعادلة الوحيدة التي تحمل معنى المقاومة .

كتابة الموت لا تعني تمجيده وتبرير كل هذه الجرائم التي ترتكب بأسماء

مختلفة . الكتابة هنا تتخلى عن دور التبرير والتمجيد لتقدم نفسها بوصفها معادلا حقيقيا ، اي بوصفها تعددا وارتماء في المجهول ورفضا لالغاء التناقضات باسم التركيز على مسألة واحدة . فلقد اثبت لنا واقعنا المحطم تحت الاحتلال ، ان الاحتلال ليس هو المشكلة ، بل مقاومته هي المشكلة . اي ان الجواب البديهي على مسألة الاحتلال، الذي هو المقاومة، هو الذي يطرح الأسئلة الحقيقية . كيف نقاوم ونكتب المقاومة ، اي كيف نموت ونكتب لعبة الحياة التي يخترقها الموت ؟ المشكلة اذن ، هي في الداخل ، هي الداخل ، هي نحن وقد افقدتنا السنوات العشر كل الحيل . والآن عندما نتحايل لا تنطلي لعبتنا على احد ، لذلك تسقط النصوص وتتساقط الشعارات قبل ان تولد .



نكتب الموت اي ندخل في مغامرة اللامسبق . هنا سنواجه بالكتابة نفسها . بهذا الركام من النصوص التي تزور التاريخ وتؤرخ التزوير ، بالرموز التي صارت اوثانا ، وبالبلاد التي انكسر فيها كل شيء .

وفي هذا المقترب الجديد للكتابة يكون النص جزءا من المقاومة ، من افق تصنعه المقاومة وهي تصنع نفسها ولغتها ، فصياغة اللغة الجديدة هي المؤشر الحقيقي على الجديد ، وإلا كان الجديد قديما ، وكانت الحلقة مفرغة .

٨٤/١١/٦

مقالات ـ شهادات. إنها شكل من أشكال السيرة الشخصية وغير الشخصية في آن. فالذي كانت تطمح إليه هذه المقالات، هو أن تكتب اللحظة الساخنة، وأن تساهم في بلورة الأسئلة التي تطرحها مسألة مقاومة الاحتلال، من أجل أن تكسر الحصار الذي ولدت في داخله.

وأنا لا أدعي أن الكتابة تغير الأشياء. الكتابة تعبر عن الأشياء في حركتها وفي تغيراتها. وإذا كانت هذه المقالات تعبر عن شيء، فإنها تطمح أن تكون جزءا من صوت آلاف الذين صنعوا بنضالهم وعذابهم وموتهم، أفق المقاومة.

وفي النهاية، فإن هذا الكتاب مدين لهم بكل شيء. فلولاهم لما كانت الكتابة ممكنة.

زمن الاحتلال





مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت-لبنان